

مكتبة الإسكندرية 2010 ©

الاستغلال غير التجاري

تم إصدار المعلومات الواردة في هذا المصنف للاستخدام الشخصي والمنفعة العامة لأغراض غير تجارية، ويمكن إعادة إصدارها كلها أو جزء منها أو بأية طريقة أخرى، دون أي مقابل ودون تصاريح أخرى من مكتبة الإسكندرية. وإنما نطلب الآتي فقط :

- يجب على المستغلين مراعاة الدقة في إعادة إصدار المصنفات.
- الإشارة إلى مكتبة الإسكندرية بصفتها "مصدر" تلك المصنفات.
- لا يعتبر المصنف الناتج عن إعادة الإصدار نسخة رسمية من المواد الأصلية، ويجب ألا ينسب إلى مكتبة الإسكندرية، والأيشار إلى أنه تم بدعمٍ منها.

الاستغلال التجاري

يحظر نسخ المواد الواردة في هذا المصنف كله أو جزء منه، بغرض التوزيع أو الاستغلال التجاري، إلا بموجب إذن كتابي من مكتبة الإسكندرية. وللحصول على إذن لإعادة إنتاج المواد الواردة في هذا المصنف، يرجى الاتصال بمكتبة الإسكندرية، ص.ب. 138 الشاطبي، الإسكندرية، 21526، مصر. البريد الإلكتروني :

secretariat@bibalex.org



فِي الْفِكْرِ النَّهْضَوِيِّ الْإِسْلَامِيِّ

السُّنَنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى بَيْنَ أَهْلِ الْفَقْرِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ

تَأليف

محمد الغزالي

تقديم

نصر الدين شريف باعطوة

دار الكتاب اللبناني

بيروت

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

مكتبة الإسكندرية

دار الكتاب المصري

القاهرة

السُّنَنُ النَّبَوِيَّةُ
بَيْنَ أَهْلِ الْفِقْهِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ

هذا الكتاب

طُبِعَ لأول مرة عام (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ويُعدُّ محاولة لزحزحة العقل الإسلامي عن دوائره التقليدية، وإذكاء فاعليته للعمل على تجسير العلاقة بين مستلزمات الواقع ومتطلبات الشريعة التي جاءت لتحقيق مصالح الناس.

وتأتي أهميته في تناوله لقضيتين محوريّتين في الفكر الإسلامي: أولاهما أن أحاديث الأحاد ظنية الثبوت، وأنه لا حجية للحديث النبوي إذا تعارض مع القرآن الكريم، أو خالف المحسوس، أو تنافى مع العقل السليم، أو العلم المقطوع به. وثانيهما أنه لا سُنَّة من غير فقه؛ ومن ثَمَّ فإن عمل الفقيه يتمم عمل المُحدِّث.

والشيخ الغزالي في كتابه هذا لم يطرح أو يبتدع قواعد جديدة؛ وإنما أراد إحياء مجموعة من القواعد العلمية في الحُكم على الحديث، وحاول مُخلِصًا دفعها إلى حيز البحث العلمي الرصين.

في الفكر النهضوي الإسلامي

الإشراف العام

إسماعيل سراج الدين

إدارة المشروع

صلاح الدين الجوهري

ألقت جافور - هالة عبد الوهاب

الإشراف على الإخراج الفني

ألقت جافور

(فريق العمل: عاطف عبد الغني)

اللجنة العلمية

محمد عمارة محمد كمال الدين إمام

صلاح الدين الجوهري إبراهيم البيومي غانم

الأعمال التحضيرية والمتابعة

نهال بدر - هدى سيد -

شيماء التركي

الإشراف على مراجعة النصوص

أحمد محمد شعبان محمد القاسم

(فريق العمل: عائشة الحداد - سماح رضوان - علياء محمد)

فِي الْفِكْرِ النَّهْضِيِّ الْإِسْلَامِيِّ

السُّنَنُ النَّبَوِيَّةُ بَيْنَ أَهْلِ الْفَقْرِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ

تَأليفُ
محمَّد الغزالي

تَقْصِيمُ
نصْر الدين شريف باعظوة

٢٠١٢

دار الكتاب اللبناني
بيروت

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

دار الكتاب المصري
القاهرة

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة - أثناء - النشر (فان)

الغزالي، محمد، 1917 - 1996م
السنة النبوية بين أهل الفقه و أهل الحديث / تأليف محمد الغزالي ؛ تقديم نصر الدين باعطوة. -
الإسكندرية، مصر : مكتبة الإسكندرية، 2011.
ص. سم. (في الفكر النهضوي الإسلامي)

تدمك 978-977-452-128-5

يشتمل على إرجاعات ببيوجرافية.

1. الفقه السني . 2. الفقه الإسلامي . 3. الإسلام -- حركات الإحياء والإصلاح والتجديد .
4. الأخلاق الإسلامية . 5. الوعظ والإرشاد . أ. باعطوة، نصر الدين . ب. العنوان . ج. السلسلة .

2011554570

ديوي - 297.1

ISBN: 978-977-452-128-5

رقم الإيداع: 9837/2011

تتقدم مكتبة الإسكندرية بالشكر والتقدير

للكالة السويسرية للتنمية والتعاون (SDC) Swiss Agency for Development and Cooperation

ومؤسسة كارنيجي بنيويورك Carnegie Corporation of New York

على الدعم المادي والمعنوي الذي قدّماه للمشروع .

© مكتبة الإسكندرية، ٢٠١١

جميع حقوق النشر الورقي محفوظة لدار الكتاب المصري واللبناني، وذلك بموجب اتفاق مبرم
بين مكتبة الإسكندرية ودار الكتاب المصري واللبناني .

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر مكتبة الإسكندرية، إنما تعبّر فقط
عن وجهة نظر مؤلفيها .

هذا الكتاب ضمن فعاليات مشروع «إعادة إصدار كتب التراث الإسلامي الحديث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين / التاسع عشر والعشرين الميلاديين»

المحتوى

٧	مقدمة السلسلة
١٣	تقديم

كتاب «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث»

٣	تمهيد
٥	مقدمة الطبعة السادسة
٩	مقدمة الكتاب

الفصل الأول

١٩	نماذج للرأي .. والرواية
----	-------	-------------------------

الفصل الثاني

٥٥	في عَالَمِ النساء
٥٥	- معركة الحجاب
٦٦	- المرأة والأسرة والوظائف العامة
٨٤	- حول شهادة المرأة

الفصل الثالث

٩١	الغناء
----	-------	--------

الفصل الرابع

١٣٣	الدين بين العادات والعبادات
١٣٣	- آداب الطعام
١٣٨	- آداب الملبس
١٤٠	- آداب المساكن
١٤٤	- كتاب البنيان

الفصل الخامس

١٥١	المسّ الشيطاني .. حقيقته وعلاجه
-----	---------------------------------------

الفصل السادس

١٦٩	فقه الكتاب أولاً
-----	------------------------

الفصل السابع

١٩٩	أحاديث الفتن
-----	--------------------

الفصل الثامن

٢١٥	وسائل وغايات
-----	--------------------

الفصل التاسع

٢٢٧	القَدْر والجَبْر
-----	------------------------

٢٥٥	خاتمة
-----	-------------

مقدمة السلسلة



إن فكرة هذا المشروع الذي أُطلق عليه «إعادة إصدار كتب التراث الإسلامي الحديث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين / التاسع عشر والعشرين الميلاديين»، قد نبعت من الرؤية التي تتبناها مكتبة الإسكندرية بشأن ضرورة المحافظة على التراث الفكري والعلمي في مختلف مجالات المعرفة، والمساهمة في نقل هذا التراث للأجيال المتعاقبة تأكيداً لأهمية التواصل بين أجيال الأمة عبر تاريخها الحضاري؛ إذ إن الإنتاج الثقافي - لا شك - تراكمي، وإن الإبداع ينبت في الأرض الخصبة بعطاء السابقين، وإن التجديد الفعال لا يتم إلا مع التأصيل. وضمن هذا التواصل يعتبر من أهم وظائف المكتبة التي اضطلعت بها، منذ نشأتها الأولى وعبر مراحل تطورها المختلفة.

والسبب الرئيسي لاختيار هذين القرنين هو وجود انطباع سائد غير صحيح؛ وهو أن الإسهامات الكبيرة التي قام بها المفكرون والعلماء المسلمون قد توقفت عند فترات تاريخية قديمة، ولم تتجاوزها. ولكن الحقائق الموثقة تشير إلى غير ذلك، وتؤكد أن عطاء المفكرين المسلمين في الفكر النهضوي التنويري - وإن

مر بمدّ وجزر - إنما هو تواصل عبر الأحقاب الزمنية المختلفة، بما في ذلك الحقبة الحديثة والمعاصرة التي تشمل القرنين الأخيرين.

يهدف هذا المشروع - فيما يهدف - إلى تكوين مكتبة متكاملة ومتنوعة، تضم مختارات من أهم الأعمال الفكرية لرواد الإصلاح والتجديد الإسلامي خلال القرنين الهجريّين المذكورين. والمكتبة إذ تسعى لإتاحة هذه المختارات على أوسع نطاق ممكن، عبر إعادة إصدارها في طبعة ورقية جديدة، وعبر النشر الإلكتروني أيضاً على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)؛ فإنها تستهدف في المقام الأول إتاحة هذه المختارات للشباب وللأجيال الجديدة بصفة خاصة.

ويسبق كلّ كتاب تقديمٌ أعده أحد الباحثين المتميزين، وفق منهجية منضبطة، جمعت بين التعريف بأولئك الرواد واجتهاداتهم من جهة، والتعريف بالسياق التاريخي / الاجتماعي الذي ظهرت فيه تلك الاجتهادات من جهة أخرى؛ بما كان فيه من تحديات وقضايا نهضوية كبرى، مع التأكيد أساساً على آراء المؤلف واجتهاداته والأصداء التي تركها الكتاب. وللتأكد من توافر أعلى معايير الدقة، فإن التقديمات التي كتبها الباحثون قد راجعتها واعتمدها لجنة من كبار الأساتذة المتخصصين، وذلك بعد مناقشات مستفيضة، وحوارات علمية رصينة، استغرقت جلسات متتالية لكل تقديم، شارك فيها كاتب التقديم ونظراؤه من فريق الباحثين الذين شاركوا في هذا المشروع الكبير. كما قامت مجموعة من المتخصصين على تدقيق نصوص الكتب ومراجعتها بما يوافق الطبعة الأصلية للكتاب.

هذا، وتقوم المكتبة أيضاً - في إطار هذا المشروع - بترجمة تلك المختارات إلى الإنجليزية ثم الفرنسية؛ مستهدفة أبناء المسلمين الناطقين بغير العربية، كما ستتيحها لمراكز البحث والجامعات ومؤسسات صناعة الرأي في مختلف أنحاء العالم. وتأمل المكتبة أن يساعد ذلك على تنقية صورة الإسلام من التشويهات التي يلصقها البعض به زوراً وبهتاناً، وبيان زيف كثير من الاتهامات الباطلة التي يُّتهم بها المسلمون في جملتهم، خاصة من قِبَل الجهات المناوئة في الغرب.

إن قسماً كبيراً من كتابات رواد التنوير والإصلاح في الفكر الإسلامي خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، لا يزال بعيداً عن الأضواء، ومن ثم لا يزال محدود التأثير في مواجهة المشكلات التي تواجهها مجتمعاتنا. وربما كان غياب هذا القسم من التراث النهضوي الإسلامي سبباً من أسباب تكرار الأسئلة نفسها التي سبق أن أجاب عنها أولئك الرواد في سياق واقعهم الذي عاصروه. وربما كان هذا الغياب أيضاً سبباً من أسباب تفاقم الأزمات الفكرية والعقائدية التي يتعرض لها أبنائنا من الأجيال الجديدة داخل مجتمعاتنا العربية والإسلامية وخارجها. ويكفي أن نشير إلى أن أعمال أمثال: محمد عبده، والأفغاني، والكواكبي، ومحمد إقبال، وخير الدين التونسي، وسعيد النورسي، ومالك بن نبي، وعلال الفاسي، والطاهر ابن عاشور، ومصطفى المراغي، ومحمود شلتوت، وعلي شريعتي، وعلي عزت بيجوفتش، وأحمد جودت باشا - وغيرهم - لا تزال بمنأى عن أيدي الأجيال الجديدة من الشباب في أغلبية البلدان العربية

والإسلامية، فضلاً عن الشباب المسلم الذي يعيش في مجتمعات أوروبية أو أمريكية؛ الأمر الذي يلقي على المكتبة عبئاً مضاعفاً من أجل ترجمة هذه الأعمال، وليس فقط إعادة نشرها بالعربية وتيسير الحصول عليها (ورقياً وإلكترونياً).

إن هذا المشروع يسعى للجمع بين الإحياء، والتجديد، والإبداع، والتواصل مع الآخر. وليس اهتمامنا بهذا التراث إشارة إلى رفض الجديد الوافد علينا، بل علينا أن نتفاعل معه، ونختار منه ما يناسبنا، فتزداد حياتنا الثقافية ثراءً، وتتجدد أفكارنا بهذا التفاعل البناء بين القديم والجديد، بين الموروث والوافد، فتنتج الأجيال الجديدة عطاءها الجديد، إسهاماً في التراث الإنساني المشترك، بكل ما فيه من تنوع الهويات وتعددتها.

وأملنا هو أن نسهم في إتاحة مصادر معرفية أصيلة وثرية لطلاب العلم والثقافة داخل أوطاننا وخارجها، وأن تستنهض هذه الإسهامات همم الأجيال الجديدة كي تقدم اجتهاداتها في مواجهة التحديات التي تعيشها الأمة؛ مستلهمة المنهج العلمي الدقيق الذي سار عليه أولئك الرواد الذين عاشوا خلال القرنين الهجريين الأخيرين، وتفاعلوا مع قضايا أمتهم، وبذلوا قصارى جهدهم واجتهدوا في تقديم الإجابات عن تحديات عصرهم من أجل نهضتها وتقديمها.

لقد وجدنا أن من أوجب مهماتنا ومن أولى مسؤولياتنا في مكتبة الإسكندرية، أن نسهم في توعية الأجيال الجديدة من الشباب في مصر، وفي غيرها من البلدان العربية والإسلامية، وغيرهم من الشباب المسلم في البلاد غير الإسلامية بالعطاء الحضاري للعلماء المسلمين في العصر الحديث، خلال القرنين المشار إليهما على وجه التحديد؛ حتى لا يترسّخ الانطباع السائد الخاطيء، الذي سبق أن أشرنا إليه؛ فليس صحيحًا أن جهود العطاء الحضاري والإبداع الفكري للمسلمين قد توقفت عند فترات زمنية مضت عليها عدة قرون، والصحيح هو أنهم أضافوا الجديد في زمانهم، والمفيد لأمتهم وللإنسانية من أجل التقدم والحث على السعي لتحسين نوعية الحياة لبني البشر جميعًا.

وإذا كان العلم حصاد التفكير وإعمال العقل والتنقيب المنظم عن المعرفة، فإن الكتب هي آلة توارثه في الزمن؛ كي يتداوله الناس عبر الأجيال وفيما بين الأمم.

إسماعيل سراج الدين

مدير مكتبة الإسكندرية

والمشرف العام على المشروع

تقديم



نصر الدين شريف باعطوة

إن الثقافة النقدية الجادة تؤثر إيجاباً في تطوير الوعي، والثقافة المغلقة تُفضي إلى واقع سلبي يُغيّب الوعي ويعتم الرؤية. وقد تنبه المنتفعون من بقاء الأوضاع على ما هي عليه إلى **خطورة الوعي**؛ ومن ثمَّ سارعوا إلى إغلاق نوافذه بوسائل شتى، وحينما أدركوا دور الدين في حياة الناس استظلوا به، لا لتحقيق مصالح الناس، وإنما لتحقيق مآربهم؛ فصيروا النقد جريمة لا تغتفر، وفسروا محاولات التجديد بدلالة سلبية تستبطن التمرد والخروج على المألوف من الشعائر الدينية والتراث والسلف وغيرها. فالباحث الذي يملك رؤية تجديدية يصبح في الواقع عاجزاً عن إبداء رأيه إلا من خلال أساليب صعبة، وتحت رقابة مشددة، ولا تجد أفكاره صدى إلا إذا حالفها التوفيق وتحولت إلى تيار.

إن الأمة بحاجة ماسة إلى **وعي حضاري** تتجاوز به أزمته، ولن يتحقق لها ذلك إلا بإعادة تشكيل وعيها داخل فضاء معرفي يستظل بمرجعيات لا تني عن تجديد فهمها للنص باستمرار في ظل مستجدات حياتية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بظروف الزمان والمكان. فضلاً عن العودة السريعة إلى العقل لمحكمة الأنساق

التجديدية المتهمة في نواياها، والتعامل معها بدرجة عالية من الدقة والالتزان، مستندة إلى القرآن كمصدر موجه ومعيار حاكم.

كما ينبغي قراءة التراث بعد التوفر على أدوات فهمه من أجل تبديد سلطته على العقل، والسماح للأخير باستشراف واقعي للمستقبل لا ينقطع عن جذره وتراثه، وفي الوقت ذاته لا يخضع لسلطته على أنه مقدس لا يمكن تجاوزه، وإنما تستثمر عناصره الصالحة للبقاء، وتبقى القضايا الأخرى دون أن نتخذ منها موقفاً سلبياً، بل نحتفظ باحترامنا لها ما دامت تمثل مُنجزاً بشرياً، وتجربة اجتهدت أن تقدم قراءة للدين لا تنفك عن ظروفها الزمانية والمكانية الماضية.

وعلينا نحن أن نبادر إلى قراءة معاصرة تنسجم مع واقعنا، وتستجيب لحاجات العصر، وإلا فإن المصير سيكون الدوران في حلقة مفرغة لا تنظر إلى الواقع، وإنما تففز فوق مشكلاته وتحدياته؛ ومن ثم نصل إلى حالة تقتل الإبداع.

إن مسألة المقدس وغير المقدس كثيراً ما تسببت في خلق أجواء قلقية يغلب عليها التربُّص، ويتحول فيها الحوار إلى تراشق بالألفاظ، وتتحوّل الفتاوى إلى سيوف مشرعة تُقطع بها رؤوس الرأي الآخر.

إن توالد المقدسات بطريقة غير منضبطة قد عطّل الممارسات النقدية التي يتوقف عليها التطور الفكري والحضاري للأمم، إلى حدّ تعذر فيه على المصلحين نقد أي ظاهرة سلبية رغم افتقارها إلى الشرعية؛ تجنباً لإثارة مشاعر العامة؛ واضطر

من يروم التعبير عن قناعاته بشأنها أن يعتمد أسلوباً ملتويّاً يتخلص به من التُّهم والرَّيب.

والمؤسف أن الأمر لا يقف عند حدٍّ معين؛ بل نرى كل يوم مشهداً مأزوماً مثقلاً بإرث الانسياق وراء اللامعقول، تغذيه دائماً ثقافة ملتبسة غير واعية أو مزورة، إننا في حاجة إلى قدر عالٍ من الشجاعة كي نعلن عن المنهج في تمييز الإلهي عن البشري، وتمييز المقدس من غير المقدس.

والحق أن التجديد عملية شاقة تحفُّها مخاطر محاكمة الواقع ودراسة مشكلاته بغية تقويمها، كما تُحدِّق بها التبعات المترتبة على نقد الأنساق الفكرية والثقافية لإعادة صياغة بنية الفرد المعرفية، وفقاً لمتطلبات الحاضر وضرورات المستقبل، وفي إطار الثابت والمتغير من الدين، ويبقى هم التجديد بنفسه- وإن لم يغير الواقع الراهن- فعلاً إيجابياً يحرك دواعي النقد والمراجعة، ورصدًا متواصلًا للواقع ربما يتحول إلى تيار جارف، أو على الأقل نقطة انطلاق في اتجاه عملية الإصلاح؛ ومن هنا تأتي ضرورة تفعيل الهم النهضوي وتنشيطه في ضمير الأمة.

ومنشأ الحاجة إلى التجديد هو التطور الحضاري المتصاعد، واكتشافنا نحن المسلمين للفارق الحضاري بيننا وبين الآخر، وليس أمامنا من سبيل إلا الانكباب بحثاً عن أسباب التراجع الكبير من أجل ردم الهوة الواسعة، ولن يتأتى ذلك إلا عبر مراجعة حقيقية للواقع ومكوناته الفكرية والثقافية.

لقد انقسم الشرق بشكل عام، والمسلمون بشكل خاص، أمام النهوض الحضاري المفاجئ إلى اتجاهات ثلاثة: أولها المستغربون، وهم صنف انبهر بالغرب إلى حد التخلي عن كل ما يُمثّل إلى الأمة بصلة، داعياً إلى نبذ التراث، وإنشاء قطعة معرفية من خلال تبني مفاهيم جديدة تكونت في فضاءات ثقافية غريبة عن بيئتنا، تطمس هوية الأمة وتفقدتها انتماءها وأصالتها.

وثاني هذه الاتجاهات ارتد سلفياً، رافضاً لمعطيات الحضارة الحديثة، منكباً على التراث لا يعرف غيره ولا يرى سواه، ومُصرّاً على تكرار النموذج الحضاري الإسلامي حرفياً رغم تاريخيته.

أما الاتجاه الثالث، فقد عاد إلى التراث، ولكنها عودة محسوبة، فهو يستنطقه، ويبحث فيه عن مصادر قوته؛ ليؤسس من عناصره القدرة على البقاء قاعدة تستوعب معطيات الحضارة الحديثة في إطار الإسلام وقيمه ومبادئه، فهو لا يقف عند التراث غير متزحزح عنه، وفي الوقت ذاته لا يرفضه، وإنما ينقده ويقومه ليستلهم منه منهجه الخاص في الرقي الحضاري، ثم لا يرتمي في أحضان الغرب ولا يرفض معطياته الحضارية؛ لأن جزءاً كبيراً منها يعتبر نتاجاً إنسانياً يمكن لأي حضارة أن تستوعبه ضمن أطرها الدينية والحضارية^(١).

(١) انظر: ماجد الغرابوي، إشكاليات التجديد (سلسلة قضايا إسلامية معاصرة) دار الهادي، بيروت، د.ت.

والشيخ محمد الغزالي من هذا الصنف الأخير، إنه امتداد لهذا النبع الثري الذي يحفره المصلحون بجهدهم وعرقهم ومعاناتهم الفكرية، يساندهم البرهان العقلي المتين وعطر القرآن الكريم الذي يستشقونه في كل لحظاتهم البحثية، ويؤسفنني وأنا أكتب مقدمة لكتابه المهم «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» أن أقول إن هذا الاتجاه على أهميته لم يتغلغل بعد في أعماق المجتمع؛ وإنما لا يزال همًّا محدود التأثير، يتعهده رواد التجديد الواحد تلو الآخر، ولم يتحول بعد إلى تيار عارم يهز ضمير الأمة ويوقظ شعورها بالمسئولية تجاه مستقبلها؛ لهذا ظلت الدعوة الجادة إلى المراجعة والنقد والإصلاح على دراسة الواقع ومكوناته الفكرية والثقافية دعوة مريبة تستفز مشاعر فئة من المتطفلين على الدين، ممن يخدمهم انشغال الناس بالخرافات والطقوس الخالية من أي محتوى ديني، ويزعجهم الوعي واكتشاف التزوير والانتحال والبدع المختلطة بالدين.

إن البحث في الحديث النبوي الشريف من أهم وأعقد الأمور في الدين الإسلامي، وهو أمر شائك يتطلب جرأة مدعومة بالعلم والحجة والبينة؛ إذ السبيل محفوفة بالمخاطر، ولكن النية الصادقة المترافقة مع الجهد المخلص وموضوعية البحث العلمي الرصين كفيلة بتذليل تلك المصاعب والمتاعب.

لقد اجتهد علماؤنا القدامى في وضع منهج معتبر للرواية في التاريخ من أجل ضمان صحتها، والذي كان أحد مصادر نشأة علم النقد التاريخي في الغرب، كما اعترف بذلك إسبينوزا ورينان وغيرهما، ولكن ذلك كله لا يعني

ألبتة أن القدماء أبدعوا كل شيء؛ بل يمكن تطوير مناهجهم النقدية من الداخل والبناء عليها بدلاً من تجاهلها وإسقاطها.

والشيخ محمد الغزالي في كتابه «السنة النبوية» ينطلق من داخل علم الحديث نفسه لا من خارجه، ويولي اهتماماً خاصاً لمعايير نقد المتن، والتي يمكن من خلالها إزالة كثير من التناقضات التي رانت على رواية الحديث النبوي الشريف - وهذه المعايير قد أهملت طويلاً إذ أبدى علماء الحديث اهتماماً واسعاً بمعايير نقد السند ولم يهتموا كثيراً بمعايير نقد المتن - محاولاً في إخلاص ودأب الاستفادة القصوى من الآليات القديمة وتطويرها؛ إذ يستحيل في رأيه التجديد دون الحفر في القديم.

والحق أن المؤلف لا يتخذ موقفاً كلياً بقبول الحديث أو رفضه؛ بل توجد حالات جزئية وأحاديث معينة مختلف في درجة صحتها، يُدرس كل منها على حدة، فوجود حديث موضوع لا يؤدي إلى الحكم على مجمل الحديث النبوي بأنه كذلك وإنما يقتضي ذلك استبعاد هذا الحديث كمصدر للتشريع، إذ الرفض هنا ليس موقفاً مبدئياً انفعالياً، وإلا كان موقفاً مجانياً الغاية منه الشهرة والإثارة، وخلاصة القول أن الشيخ يتغياً مُخلصاً تطوير القواعد القديمة، وجعلها أكثر إحكاماً.

إن الله - تبارك وتعالى - قد علل إرسال الرسل بألا تكون للناس حجة فقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء / ١٦٥]، وحين يقول الخالق العظيم هذا فإن ذلك يعني أن الله تباركت أسماؤه أودع في الإنسان قابلية الاحتجاج وفطرة طلب الدليل، وأذن له أن يطلب ذلك منه سبحانه قبل غيره، ثم من أنبيائه ورسله، فما بالناس غيرهم، ولكن الكثيرين من طلبة العلم لا يملكون إلا التقليد والمتابعة بعقل مُلغى ونفس ساكنة؛ ولذلك عرف دعاة الباطل كيف يستخفونهم فيطيعونهم.

وقد اتصلت السبل بالشيخ الغزالي مع مجموعة هائلة من التراكمات المعرفية التي حفل بها تراثنا النقلي والعقلي، وبدأت تتضح له رؤية في مسائل حديثة كثيرة قد قال فيها بعض الأولين أقوالهم وظنوا أنهم قد فرغوا منها ونفضوا أيديهم من تفاصيلها، وأصبح اللاحقون يتناقلونها وقد لا يبذلون جهداً إلا في تحقيقها وإشاعتها وتناقلها، وشعارهم في ذلك «ما ترك الأول للآخر شيئاً»، إن الاجتهاد - كمفهوم لغوي مستنبط من بذل الجهد لاكتشاف الحكم - يمثل الطاقة المحركة للمجتمع، التي لا يمكن أن تكتفي بما طُرح في السابق بدعوى الاكتفاء بما توصل له علماء الإسلام من قبل؛ لذلك تحرك المجتهدون لإكمال هذه السبيل كإنجاز متواصل مع جهد من سبق، وهذا يستدعي في العقل الاجتهادي سعة الأفق والتمكن المعرفي والجراءة في إبداء الرأي، مع الاطلاع

على شؤون المجتمع المعاصر وإشكالياته، ولكن بسبب الظروف التي مرّت بها الأمة حدث نوع من الانكماش المعرفي والانكفاء على الذات في الأوساط العلمية، مع نظرة الانبهار والتقديس لجهد السابقين؛ فشاعت مقولة «ما ترك الأول للأخر شيئاً!»، إن التشابه في تفكيرنا وتعبيرنا خلال المائتي سنة الأخيرة على الأقل أمر مروع، إننا لم نتجاوز كثيراً في طموحنا حتى الآن الأفكار التي طرحها محمد عبده والأفغاني والكواكبي، إننا نطرح الأسئلة نفسها، ولم نستطع أن نستنبط خلال قرن كامل أي سؤال جديد، والإسلام يتحمل تبعات ذلك كله، ويدفع الثمن غالباً بتمرد كثير من أبنائه عليه، وتجاوزه إلى غيره من متهافت الأفكار وبقايا الأيديولوجيات وفضلات المبادئ.

إن اعتماد علمائنا الطاغي على علم الجرح والتعديل وحده في الحكم على الحديث النبوي الشريف يثير كثيراً من الاختلاف الذي يضر الإسلام ولا ينفعه، والحكم على الرجال يشوبه غير قليل من الاضطراب الذي يثير الأسي والدهشة في آن، وهو أمر شرحه يطول.

التعريف بالمؤلف

ولد الشيخ محمد الغزالي أحمد السقافي (٥ من ذي الحجة ١٣٣٥هـ / ٢٢ من سبتمبر ١٩١٧م)، في قرية «نكلا العنب» التابعة لمحافظة البحيرة بمصر، وسمّاه والده بـ «محمد الغزالي» تيمناً بالعالم الكبير أبو حامد الغزالي

(ت جمادى الآخرة ٥٠٥هـ / ديسمبر ١١١١م). ونشأ في أسرة كريمة ذات دين، وله خمسة إخوة، فأتم حفظ القرآن الكريم بكتاب القرية في العاشرة، والتحق بعد ذلك بمعهد الإسكندرية الديني الابتدائي، وظل بالمعهد حتى حصل منه على شهادة الكفاءة، ثم الشهادة الثانوية الأزهرية، ثم انتقل بعد ذلك إلى القاهرة سنة (١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م)، وقد تلقى الشيخ العلم عن الشيخ عبد العظيم الزرقاني صاحب كتاب «مناهل العرفان في علوم القرآن»، وكان مدرساً بكلية أصول الدين، والإمام الأكبر محمود شلتوت، شيخ الأزهر الأسبق، والشيخ محمد أبو زهرة، والدكتور محمد يوسف موسى، وغيرهم من علماء الأزهر الشريف^(١).

والتحق بكلية أصول الدين بالأزهر الشريف سنة (١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م)، وتخرّج فيها بعد أربع سنوات في سنة (١٣٦٠هـ / ١٩٤١م)، وتخصص بعدها في الدعوة والإرشاد حتى حصل على درجة العالمية سنة (١٣٦٢هـ / ١٩٤٣م) وعمره ست وعشرون سنة، وبدأت بعدها رحلته في الدعوة من خلال مساجد القاهرة، وعاش لها وبها حياة حافلة منذ اختياره عام ١٩٤٣ إماماً وخطيباً بمسجد العتبة الخضراء بالقاهرة، مروراً بعمله مديراً للدعوة والإرشاد في (٩ من جمادى الأولى ١٣٩١هـ / ٢ من يوليو ١٩٧١م). ثم وكيلاً لوزارة الأوقاف لشئون الدعوة الإسلامية في (٣ من جمادى الأولى ١٤٠١هـ / ٨ من مارس ١٩٨١م).

(١) انظر: محمد عمارة، الشيخ محمد الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩، ص ٢٩-٣١.

وفي أثناء دراسته بالقاهرة اتصل بالأستاذ **حسن البنا** مرشد جماعة الإخوان المسلمين، وتوثقت علاقته به، وأصبح من المقربين إليه، فبات يكتب في **مجلة الجماعة** بانتظام إلى أن صدر قرار بحلها في عام (١٣٦٧هـ/١٩٤٨م)، واعتقل عدد كبير من أعضائها كان من بينهم الشيخ **الغزالي**، ففضى في المعتقل عامًا كاملاً وخرج منه عام (١٣٦٨هـ/١٩٤٩م)، ثم شبّ نزاع بينه وبين المرشد الجديد للجماعة الأستاذ **حسن الهضيبي** انتهى بفصل الغزالي من الجماعة وخروجه من عضويتها.

ولم يتوقف جهاده الدعوي والعلمي على العمل بمصر؛ وإنما اتسع جهاده على طول رقعة العالم العربي، فعمل رئيسًا للتكية المصرية بمكة المكرمة (١٣٧١-١٣٧٢هـ/١٩٥٢-١٩٥٣م)، وعمل أستاذًا ومديرًا في الجامعة الجزائرية من عام (١٤٠٤-١٤٠٩هـ/١٩٨٤-١٩٨٩م)، وحصل الشيخ على عدد من الأوسمة والجوائز من بلدان إسلامية متنوعة، مما يدل على ما لقيه من تقدير واسع، فقد حصل على جائزة الدولة التقديرية من مصر، وحصل على جائزة **الملك فيصل** في مجال خدمة الإسلام، وحصل على أرفع وسام في موريتانيا، وحصل على أرفع وسام في الجزائر، وكرمته المملكة العربية السعودية، وقطر، والسودان، وفي العام (١٤١٠هـ/١٩٩٠م) حصل على جائزة دولية من باكستان تقديرًا لجهوده في الدعوة، ثم أخيرًا وفي العام (١٤١٧هـ/١٩٩٦م) منحته ماليزيا وسامها الأول.

ألف كُتُبًا عديدة في مجالات الدعوة والفكر الإسلامي فاقت الخمسين كتابًا، منها: «الإسلام والأوضاع الاقتصادية»، و«الإسلام والاستبداد السياسي»، و«من هنا نعلم»، و«فقه السيرة»، و«ليس من الإسلام»، و«كيف نفهم الإسلام»، و«هذا ديننا»، و«دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين»، و«دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين»، و«هموم داعية»، و«علل وأدوية»، و«كيف نتعامل مع القرآن»، و«نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم»، و«السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث»، و«قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة»، و«تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل»، وقد تُرجمت كتبه إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والأردية.

وبعد جهاد مرير بين عجز الداخل وكيد الخارج، تَرَجَّلَ الفارس عن جواده، وانتقل إلى رحمة الله في (١٩ من شوال ١٤١٦هـ / ٩ من مارس ١٩٩٦م).

بين يدي الكتاب

لعل كتاب الشيخ محمد الغزالي «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث»، الذي ظهر في بداية عام (١٩٨٩م / ١٤٠٩هـ)، من أهم الكتب التي ظهرت تجديدًا للوعي في ميدان الفكر الإسلامي، ويتألف الكتاب من مقدمة وعدد من المواضيع تُعد نماذج تطبيقية لما جاء في المقدمة، ففي المقدمة يذكر الشيخ الغزالي الأسباب الداعية إلى تأليف الكتاب، فيذكر من هذه الأسباب

قلقه من الجوفكري الذي يسود ميدان الصحوة الإسلامية؛ وذلك لأن الحقائق الرئيسية في المنهاج الإسلامي لا تحتل المساحة العقلية المقررة لها، وأن القضايا الثانوية هي التي تسيطر على الأفكار، إضافة إلى شيوع الأقوال الضعيفة، والمذاهب العسرة، حتى ظن الناس أن الإسلام إذا حكم، عاد إلى الدنيا التزمت والجمود، فيقول - رحمه الله - بأسى بالغ: «لقد نجح بعض الفتيان في قلب شجرة التعاليم الإسلامية، فجعلوا الفروع الخفيفة جذوعاً أو جذوراً، وجعلوا الأصول المهمة أوراقاً تتساقط مع الرياح!»^(١).

وما فتى الشيخ يكرر تأكيده على فهم القرآن الكريم أولاً، وأنه لا يمكن فهم السنة فهماً سليماً إلا بمعرفة القرآن، وأن هؤلاء الذين اكتفوا بالسنة دون عرضها على القرآن وقعوا في أخطاء منهجية كبيرة.

ويوجه الشيخ النظر إلى أن كثيراً من التقاليد الموروثة قد اختلقت بالسنة الشريفة، ومع تراخي الأيام بدت هذه التقاليد وكأنها من موارث السماء، فيقول - رحمه الله: «قد أتت على المسلمين عصور ماتت فيها السنة الصحيحة لحساب التقاليد الاجتماعية، ولا تزال هذه المأساة باقية تتعصب لها بيئات لا تعرف إلا المرويات المتروكة والمنكرة»^(٢).

(١) محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، الطبعة الحالية، ص: ٧.

(٢) السابق، ص: ٨١.

إن هذا الكتاب محاولة لرحضة العقل الإسلامي عن الدائرة التي تخنط فيها، وإذكاء فاعليته للعمل على تجسير العلاقة بين مستلزمات الواقع ومتطلبات الدين، ورصد البؤر والمستجدات الفكرية والثقافية المعاصرة، بعقلية مفتوحة لا تتعامل مع الواقع بلغة التعالي والتهويمات الأيديولوجية، بل بوعي ومرونة ودينامية قادرة على استجلاء مضمون العقيدة السماوية، لا الجمود على عتبة التراث، والتمسك بالقشور والظواهر التي لا تمثل أي بُعد عقلائي في منظومة المفاهيم الدينية.

وتأتي أهمية هذا الكتاب في تناوله لأهم قضيتين في الفكر الإسلامي، هما:

١- إن أحاديث الأحاد ظنية الثبوت، ولا حجية للحديث النبوي إذا تعارض مع القرآن الكريم، أو خالف المحسوس، أو تنافى مع العقل السليم، أو العلم المقطوع به.

٢- لا سُنَّة من غير فقه، بمعنى أن عمل الفقيه يتم عمل المحدث، فلا يستغني المحدث عن الفقه.

والشيخ الغزالي في كتابه هذا لم يطرح قواعد جديدة ولم يبتدعها من عنده، وإنما أراد إحياء مجموعة من القواعد العلمية في الحكم على الحديث، وحاول مُخْلِصًا دفعها إلى حيز البحث العلمي الرصين.

والحق أن نفرًا من روادنا الأوائل كانت لهم بصيرة هادية في سبر أغوار الأحاديث النبوية الشريفة، قبولاً أو رداً من خلال موافقتها أو اختلافها مع القرآن الكريم، ولكن الأمة الإسلامية من خلال الجمود الذي اعترها قد أهالت التراب على هذه الدرر الثمينة واستبدلت بها ذهباً مغشوشاً.

فهذا أبو حنيفة رحمه الله يقول: «ولو خالف النبي ﷺ القرآن وتَقَوَّل على الله غير الحق لم يدعه حتى يأخذه باليمين ويقطع منه الوتين كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ نَقَوْلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقْوَابِلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة / ٤٤-٤٧] ونبي الله لا يخالف كتاب الله، ومخالف كتاب الله لا يكون نبي الله... فرد كل رجل يُحدث عن النبي ﷺ بخلاف القرآن ليس رداً على النبي ﷺ ولا تكذيباً له، ولكن ردّ على مَنْ يحدث عن النبي ﷺ بالباطل، والتهمة دخلت عليه وليست على نبي الله ﷺ»^(١).

وقد رفض أبو حنيفة حديث «لا يُقتل مسلم في كافر» مع صحة سنده؛ لأن المتن معلول بمخالفته للنص القرآني ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة / ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿وَأَن أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة / ٤٩]، ويعلق الشيخ الغزالي على ذلك بقوله: «وعند التأمل نرى الفقه الحنفي أدنى إلى العدالة وإلى موثيق

(١) الإمام الأعظم أبو حنيفة، رسالة العالم والمعلم، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٠م،

حقوق الإنسان، وإلى احترام النفس البشرية دون نظر إلى البياض والسواد أو الحرية والعبودية أو الكفر والإيمان»^(١).

وحتى نتبين مدى التأثير الكبير لهذا الحديث المعلوم نسوق هذا الحادثة التي ذكرها الشيخ **الغزالي**، إذ يقول: «وقد بلغني أن بدويًا قتل مهندسًا أمريكيًا في إحدى دول الخليج، وقال أهل الحديث: لا يجوز القصاص! وشعرت الحكومة بالخرج، ولكن تم الخروج من المأزق بقتل المجرم من باب السياسة الشرعية»^(٢).

فأهل الحديث - كما يزعمون - يتمسكون بحديث أحاد يخالف القرآن الكريم مخالفة واضحة.

وهذا **مالك بن أنس** - رحمه الله - قد ردَّ بعضًا من الأحاديث لمخالفتها ظاهر القرآن، منها ما هو في **البخاري** و**مسلم**، مثل ما روي من حديث **أبي هريرة** عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا شرب الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعًا»^(٣).

ويرى مالك أن هذا الحديث يخالف ظاهر قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة / ٤] فقال رحمه الله تعالى: «يُؤكل صيده بنص القرآن فكيف

(١) محمد الغزالي، السُّنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، مرجع سابق، ص ٢٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩.

(٣) صحيح البخاري، رقم ١٧٢، كتاب الوضوء، باب إذا شرب الكلب من إناء أحدكم، صحيح مسلم رقم ٢٧٩ كتاب الطهارة، باب حكم ولوغ الكلب.

يُكره لعبه»^(١) وقد رد السرخسي أيضاً حديثاً أخرجه الشيخان في صحيحيهما^(٢).

والحق أن هذه القاعدة العظيمة أول من طبقها عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ ورد حديث فاطمة بنت قيس الذي رواه مسلم في صحيحه أن الشعبي كان جالساً في المسجد الأعظم وفيه الأسود بن يزيد، فحدث الشعبي «بحديث فاطمة بنت قيس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجعل لها سكنى ولا نفقة، وكانت قد طلقت ثلاثاً، فأخذ الأسود كفاً من حصى فحصبه به، ثم قال: ويلك تحدث بمثل هذا؟ قال عمر: لا نترك كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لا ندري حفظت أم نسيت، لها السكنى والنفقة، قال تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرِجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ [الطلاق / ١]»^(٣).

ونلاحظ هنا أن عمر رضي الله عنه قد جعل ظاهر القرآن هو السنة التي تتبع. وقد أكثرت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها استخدام هذه القاعدة، فقد ردت كثيراً من الأحاديث لتعارضها مع ظاهر القرآن الكريم، مثل حديث عمر ابن الخطاب وحديث عبد الله بن عمر، فقد روى عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه»^(٤).

(١) الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٩م، ٣ / ٢١.

(٢) انظر السرخسي، أصول السرخسي، دار المعرفة، بيروت، ١ / ٣٦٤.

(٣) النووي، شرح صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٢، ١٣٩٢هـ، ١٠ / ١٠٣-١٠٤، كتاب الطلاق.

(٤) صحيح البخاري، رقم ١٢٨٧، كتاب الجنائز، صحيح مسلم، رقم ٩٢٧، كتاب الجنائز.

وحديث عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال: «إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه»^(١). فحينما ذكر لها هذان الحديثان قالت عن الأول: «رحم الله عمر! والله ما حدث رسول الله ﷺ «إن الله ليعذب المؤمن ببكاء أهله عليه»، ولكن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه»، وقالت: حسبكم القرآن ﴿وَلَا نَزْرُورَ وَإِزْرَةٌ وَلَا يَزْرُورُ﴾ [الإسراء / ١٥]»^(٢) وقالت عن حديث ابن عمر: «رحم الله أبا عبد الرحمن! سمع شيئاً فلم يحفظه، إنما مرّت على رسول الله ﷺ جنازة يهودي وهم يبكون عليه فقال: أنتم تبكون عليه وإنه ليعذب»^(٣).

إذن الخطأ غير مستبعد على راو ولو كان في قدر ابن عمر رضي الله عنهما، إن أم المؤمنين هنا ترد ما يخالف القرآن بجرأة وثقة، ومع ذلك فإن هذا الحديث المرفوض من عائشة ما يزال مثبتاً في الصحاح، بل إن ابن سعد في طبقاته الكبرى كرهه غير مرة^(٤).

وقد علق الشيخ محمد الغزالي على نقد عائشة فقال: «وعندي أن ذلك المسلك الذي سلكته أم المؤمنين أساس لمحاكمة الصحاح إلى نصوص الكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه»^(٥).

(١) صحيح البخاري، رقم ١٢٨٦، كتاب الجنائز، صحيح مسلم، رقم ٩٢٨، كتاب الجنائز.

(٢) صحيح البخاري، رقم ١٢٨٨، كتاب الجنائز، صحيح مسلم، رقم ٩٢٩، كتاب الجنائز.

(٣) صحيح مسلم، رقم ٩٣١، كتاب الجنائز.

(٤) انظر ابن سعد، الطبقات الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٠م، ٣/ ٢٦٣ - ٢٦٤، وانظر محمد

الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، مرجع سابق، ص ٢٤.

(٥) المرجع السابق، ص ٢٦.

وقد أكثرت السيدة عائشة من استخدام هذه القاعدة العظيمة إلى حد أن الزركشي قد جمع استدراكاتها على الصحابة، وردّها لكثير من الأحاديث في كتاب سماه «الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة».

كما أن هناك قواعد أخرى يجب الانتباه لها عند قبول الحديث أو رده، يقول ابن الجوزي: «فكل حديث رأيت يخالف العقول أو يناقض الأصول؛ فاعلم أنه موضوع فلا تتكلف اعتباره»^(١). ويضيف السخاوي قاعدة أخرى فيقول عن علامات الحديث الموضوع: «أن يتضمن الإفراط بالوعد الشديد على الأمر اليسير، أو بالوعد العظيم على الفعل اليسير»^(٢).

والشيخ محمد الغزالي (رحمه الله) لم يشذ عما قاله هؤلاء العلماء؛ فهو يرى «أن السنة لا تكون إلا بياناً للقرآن، بياناً يتسق مع دلالته القريبة والبعيدة، ويستحيل أن تتضمن معنى أو حكماً يخالف القرآن الكريم»^(٣).

ويضرب الغزالي على ذلك أمثلة لبيان أثر الأحاديث الموهومة في حياة الناس، ولنبدأ بالحديث الذي رواه أنس بن مالك عن النبي ﷺ «أن رجلاً كان يُتهم بأم ولد رسول الله ﷺ؛ فقال رسول الله ﷺ لعليّ: اذهب فاضرب عنقه.

(١) ابن الجوزي، الموضوعات، المكتبة السلفية، ط ١، ١٩٦٦، ١/١٥١.

(٢) السخاوي، فتح المغيث، مكتبة السنة، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٢م، ١/٤٧٣.

(٣) محمد الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، دار الشروق، القاهرة، ط ٣، ١٩٩٢م، ص ١٨٢.

فأناه **عليٌّ** فإذا هو في ركيّ يتبرد فيها، فقال له **علي**: اخرج. فناوله يده فأخرجه فإذا هو محبوب ليس له ذكر! فكفّ **علي** عنه، ثم أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنه لمحبوب ليس له ذكر»^(١) ويعلق الشيخ **الغزالي** على هذا الحديث فيقول: «يستحيل أن يحكم **علي** رجل بالقتل في تهمة لم تتحقق، فلم يواجه بها المتهم، ولم يسمع له دفاعاً عنه، بل كشفت الأيام عن كذبها»^(٢). والمدّهُش والمؤسّف في أنّ مثل هذه الأحاديث تجد من يدافعون عنها في حرارة، ويلوون من أجلها عنق الحقائق، محاولين تفنيد الشبهات الموجهة إليها، فلا يزيدون تلك الشبهات إلا قوة، وهو أمر ليس جديداً، فحديث أنس المذكور نجد أن عالماً في قامة **الحافظ النووي** يدافع عنه في إلحاح لا يخلو من غرابة؛ استرعى انتباه الشيخ **الغزالي** فعلق قائلاً: «وقد حاول **النووي** - غفر الله لنا وله - تسويغ هذا الحكم بقوله: لعل الرجل كان منافقاً مستحقاً للقتل لسبب آخر! ونقول: متى أمر **رسول الله** بقتل المنافقين؟ ما وقع ذلك منه، بل لقد نهى عنه»^(٣)، ولا يعدم الحديث منافحاً آخر أزعجه أن يكون الرسول عادلاً ورحيماً فلا يقتل الناس بالظن أو الشبهة فيقول: «لعله من باب التعزير؟ وهذا تفكير مستنكر! هل الإسلام أعطى ولي الأمر حق قتل الناس لشبهة أو شائعة؟ بأسم التعزير تستباح الدماء على نحو طائش؟ إننا نقتل ديننا بهذا الفهم، ونُعَرِّضُ سيرة نبينا للقليل والقال. وظاهر من السياق أن

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، ١٧/ ١١٨-١١٩، كتاب التوبة.

(٢) محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، مرجع سابق، ص ٤٧.

(٣) السابق، ص ٤٧.

الرجل نجا من القتل بعدما تبين من العاهة التي به استحالة توجيه الاتهام إليه، أفلو كان سليماً أبيع دمه؟ هذا أمر تأباه أصول الإسلام وفروعه كلها»^(١).

وقد يتساءل البعض في استنكار: وهل خفي هذا على العلماء المحققين فلم ينتبهوا إليه؟ ولنا أن نقول لمثل هؤلاء مجيبين على سؤالهم بسؤال: أيُّ الأمرين أولى بالترجيح؟ الطعن في بلاغة القرآن وبيانه وحمله على كلام الفقهاء والمحدثين، أم تجويز الخطأ على الفقهاء والمحدثين؛ لأنهم لم يأخذوا بما دلّ عليه القرآن الكريم من غير تكلف؟!

إننا نرفض أن يكون المرء عابر سبيل أمام آيات الله، فإذا وجد بعض الأخبار أطال الوقوف أمامها. وقد وجدنا كلمات مزعجة في هذا المجال! قال بعضهم: حاجة الكتاب إلى السنة أشد من حاجة السنة إلى الكتاب، وقال آخر: السنة قاضية على الكتاب وليس الكتاب قاضياً على السنة^(٢).

إن الوهم والخطأ أمر لا يفلت منه إنسان، فعلماء الحديث ورواته ليسوا أنبياء ولا ملائكة؛ وإنما هم بشر يصيبون ويخطئون، فهذا الحافظ ابن حجر على جلالته قوى حديث «الغرانيق» في كتابه فتح الباري، وهو حديث يدخل الشرك على الإسلام، ويصيب الدين في مقتل، يقول الشيخ الغزالي عن ذلك: «إن الرجل

(١) المرجع السابق، ص ٤٧.

(٢) انظر: الخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، د.ت، ص ١٤.

على صدارته في علوم السنة قوى حديث الغرائق، وأعطاه إشارة خضراء؛ فمر بين الناس يفسد الدين والدنيا، والحديث المذكور من وضع الزنادقة يدرك ذلك العلماء الراسخون! وقد انخدع به الشيخ محمد بن عبد الوهاب... ثم جاء الوغد الهندي سلمان رشدي فاعتمد على هذا الحديث المكذوب في تسمية روايته آيات شيطانية^(١).

ويبدو أن الحافظ ابن حجر هنا قد اعتمد على السند فقط؛ فأدى به إلى هذا المزلق الخطير، وفي عصرنا الحديث نجد الشيخ ناصر الدين الألباني قد صحح حديث «لحم البقر داء» في حين أن كل متدبر للقرآن الكريم يدرك أن الحديث لا قيمة له مهما كان سنده! إن المولى تباركت أسماؤه أباح لحم البقر في موضعين من كتابه الكريم، بل إنه سبحانه وتعالى امتنَّ به على الناس، وعدَّه نعمة عظيمة تستوجب الحمد والشكران، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاتٌ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾، ثم يفصل ما أباح أكله فيقول: ﴿ثَمَنِيَّةَ أَرْوَجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾، ثم يقول: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام / ١٤٢-١٤٤].

ويقول في سورة الحج: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبَهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا

(١) محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، مرجع سابق، ص ٢٢.

الْقَانِعِ وَالْمُعْتَرِّ كَذَلِكَ سَخَرْنَهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ [الحج / ٣٦].

والبُدن هي الإبل والبقر والجاموس، فأين الداء فيها؟ ألا يحق لنا بعد ذلك كله أن نحارب هذا القذى وأن نكون حراساً صاحين للسنة الصحيحة؟ ولعل ذلك يفرض علينا أن نحاول استنباط منهج أكثر وثوقاً وأهدى سبيلاً.

إننا نقول مع الشيخ الغزالي - رحمه الله - نحن نؤمن بالكتاب والسنة معاً، ونؤمن بأن السنة فرع، والكتاب أصل، ونؤمن بالاستيقان من أن الرسول ﷺ قال، وأن هذا الاستيقان لا يتم إلا بوزن السند والمتن جميعاً، وهذا منهج العلماء الراسخين والرجال الثقات، إن العلم الإسلامي استبحر وساند حضارة عظيمة يوم قام على الحقائق، ولما خالطته الخرافات والأوهام هوى وهوت الأمة كلها معه^(١).

إن إعمال العقل والتخلص من أوهام النقل ومحاربة الجهل والخرافة هو ما يسعى إليه المصلحون، ومنهم الشيخ الغزالي، باحثين في إخلاص وتعمق؛ سعياً لإبراز فكر يرسو على عقلنة متميزة، لا تفصل المسلم عن مغرسه الروحي والنفسي والإنساني، ومحاولين المشاركة في بناء معرفة حيوية تسليخ عنها ثوب الخرافة والجهل، وتسترجع حلتها العقلية البهية المنسجمة مع بهاء الإسلام العظيم، لتواجه ثقافة الانحدار التي غيبتنا وألقت بنا خارج التاريخ.

(١) محمد الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، مرجع سابق، ص ١٨١.

والشيخ يقول عن نفسه: «إنني طالب علم وناشد حق وحسب»، إنه يهدف أولاً وأخيراً إلى تفعيل معايير نقد المتن التي وضعها علماؤنا القدامى، ومحاولة تطويرها والبناء عليها، وتنقية السنة النبوية الشريفة مما دُسَّ عليها وليس منها، مع محاولة الوصول إلى منهجٍ أكثر إحكاماً في الحكم على صحة الحديث النبوي الشريف.

وفي عصرنا ظهر فتيان سوء يتناولون على أئمة الفقه باسم الدفاع عن الحديث النبوي، مع أن الفقهاء ما حادوا عن السنة، ولا استهانوا بحديث صَحَّتْ نسبته وسَلِمَ مَتْنُهُ. وكل ما فعلوه أنهم اكتشفوا عللاً في بعض المرويات فردَّوها، وفق المنهج العلمي المدروس، وأرشدوا الأمة إلى ما هو أصدق قيلاً وأهدى سبيلاً...^(١).

منهج الشيخ الغزالي في قبول روايات الحديث وردّها

ويوضح الشيخ الغزالي منهجه في قبول روايات الحديث النبوي، وأنه قد يقبل رواية يضعف علماء الحديث سندها، ولكنها تتواءم مع دلالات القرآن الكريم القريبة والبعيدة، في حين أنه يرفض ويردّ روايات أخرى، قد تكون صحيحة السند، ولكنها تخالف دلالات القرآن أو العقل، أو لا تنسجم مع قواعد الإسلام العامة، فيقول في كتابه «فقه السيرة»: «وعندما شرعت أكتب

(١) محمد الغزالي، السُّنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، مرجع سابق، ص ٢٤.

سيرة لسيدي رسول الله ﷺ اجتهدت أن ألزم المنهج السوي، وأن أعتد على المصادر المحترمة، وأظني بلغت في هذا المجال مبلغاً حسناً، واستجمعت من الأخبار ما تطمئن إليه نفس العالم البصير. لكن القارئ سيرى في تعقيبات الشيخ ناصر الدين ما يبعث ريبته في هذا الظن، وهنا أراني مكلفاً بشرح المنهج الذي سرت عليه. قد يختلف علماء السنة في تصحيح حديث أو تضعيفه، قد يكون الحديث ضعيفاً عند جمهرة المحدثين، لكني أنا قد أنظر لمتن الحديث فأجد معناه متفقاً كل الاتفاق مع آية من كتاب الله أو أثر من سنة صحيحة فلا أرى حرجاً من روايته، ولا أخشى ضميراً من كتابته، وأراني في ذلك متسقاً مع المنهج العلمي المقرر، إذ هو لم يأت بجديد في ميدان الأحكام والفضائل والأخلاق، ولم يزد على أن يكون شرحاً لما تقرر من قبل في الأصول المتيقنة»^(١).

ثم يذكر الشيخ أمثلة تطبيقية ليزداد الأمر وضوحاً في ذهن القارئ فيقول: «خذ مثلاً أول حديث حكم الأستاذ بتضعيفه «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة، وأحبوني بحب الله».. قد يرى الأستاذ المحدث أن تحسين الترمذي وتصحيح الحاكم لا تعويل عليهما في قبول هذا الحديث، وله ذلك. بيد أنني لم أجد في المطالبة بحب الله ورسوله ما يحملني على التوقف فيه؛ ولذلك أثبتته وأنا مطمئن.

(١) محمد الغزالي، فقه السيرة، دار الكتب الإسلامية، ط ٨، ١٩٨٢م، ص ٩-١٠.

وفي الوقت الذي فسحت فيه مكاناً لهذا الأثر على ما به؛ صددت عن إثبات رواية البخاري ومسلم مثلاً للطريقة التي تمت بها غزوة بني المصطلق. فإن رواية الصحيحين تشعر بأن الرسول ﷺ باغت القوم وهم غارون، ما عرضت عليهم دعوة الإسلام، ولا بدا من جانبهم نكوص، ولا عرف من أحوالهم ما يقلق. وقاتل يبدؤه المسلمون على هذا النحو مستنكر في منطلق الإسلام، مستبعد في سيرة رسوله؛ ومن ثم رفضت الاقتناع بأن الحرب قامت وانتهت على هذا النحو، وسكنت نفسي إلى السياق الذي رواه ابن جرير؛ فهو على ضعفه الذي كشفه الأستاذ الشيخ ناصر يتفق مع قواعد الإسلام المتيقنة، أنه لا عدوان إلا على الظالمين، أما الغارون الوادعون فإن اجتياحهم لا مساغ له، وحديث الصحيحين في هذا لا موضع له»^(١).

ويؤكد الشيخ ما سبق أن بيناه من أنه ليس مبتدعاً لهذا المنهج؛ وإنما سبقه في ذلك معظم العلماء فيقول: «ولست بدعاً في تلك الخطة التي اخترتها؛ فإن أغلب العلماء جرى على مثلها في مواجهة المرويات الضعيفة والصحيحة على السواء، وقرروا أن الحديث الضعيف يُعمل به ما دام مُلتئماً مع الأصول العامة والقواعد الجامعة، وهذه الأصول والقواعد مستفادة بداهة من الكتاب والسنة... ذلك بالنسبة للأحاديث الضعاف. أما الصحاح فإن في تفاوت دلالتها مجالاً

(١) المرجع السابق، ص ١٠-١١.

رحباً للترجيح والرد كما يعلم أستاذ الحديث، وما من إمام فقيه إلا رد بعض ما صح إيثاراً لما ظهر منه أنه أصح»^(١).

ثم يؤكد الشيخ على موقفه الأصيل من السنة، وأنها منه محل تقدير لا يقبل الشك، ولكن المسألة هي في ثبوت الرواية عن النبي عليه الصلاة والسلام وعدم ثبوتها، فيقول: «ومعاذ الله أن نشغب على السنة فهي الأصل الثاني للإسلام يقيناً، بيد أنني إذا تتبعت السنن فعرفت أنها في جملتها تتفق مع القرآن الكريم في أنه لا حرب إلا بعد دعوة وإعذار وتعريف مشرق لا تبقى معه شائبة غموض فكيف أقبل ما يوهم بغير هذا؟ الله جل شأنه يأمر نبيه في قرآنه الكريم: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ هَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء / ١٠٨-١٠٩]، بعد هذا الإعلام الذي يستوي في الإحاطة به الداعون والمدعوون، وبعد أن سار النبي عليه الصلاة والسلام في مغازيه، وسار الخلفاء في معاركهم على هذا النحو من توضيح للدعوة وإتاحة الفرصة للناس كي يقبلوا أو يرفضوا، بعد هذا لا أرى أن يلزمني أحد بقبول ما رواه الشيخان... وكما تجاوزت عن هذا الحديث تجاوزت عن مثله أن الرسول ﷺ خطب أصحابه وأعلمهم بالفتن

(١) المرجع السابق، ص ١١.

وأصحابها إلى قيام الساعة، فقد صح من كتاب الله وسنة رسوله أنه لا يعلم الغيوب على هذا النحو المفصل الشامل العجيب»^(١).

ثم يُجَمِّلُ الشيخ ما فَصَّلَهُ من منهجه المتبع في الحكم على المرويات فيقول: «أثرت هذا المنهج في كتابة السيرة، فقبلت الأثر الذي يستقيم متنه مع ما صح من قواعد وأحكام وإن وَهَى سنده. وأعرضت عن أحاديث أخرى تُوصَفُ بالصحة؛ لأنها في فهمي لدين الله وسياسة الدعوة لم تنسجم مع السياق العام»^(٢).

إن أهم قضيتين تَعَرَّضَ لهما الشيخ الغزالي في كتابه، وأثار منتقدوه كثيراً من الغبار حولهما، هما:

* ظنية أحاديث الأحاد.

* لا حجية للحديث النبوي إذا تعارض مع القرآن الكريم.

فهل كان الشيخ في هذا دَعِيًّا أو من الغالين؟ دعونا نَطْفُ بين أقوال السابقين من العلماء في هاتين القضيتين، هؤلاء العلماء الذين ينظر إليهم في الفكر الإسلامي بكثير من التقدير الذي يلامس القداسة، والحكم بعدها متروك لفظنة القارئ، فظنية أحاديث الأحاد يكاد ينعقد الإجماع عليها، وكذلك منهج عرض الحديث على القرآن، ونورد فيما يلي أدلتنا العلمية على ذلك.

(١) المرجع السابق، ص ١٢.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣.

فهذه نصوص بعض العلماء من أصحاب المذاهب الأربعة تؤكد أن أحاديث الأحاد تفيد الظن دون اليقين؛ مما يُثبِتُ أصالة ما ذهب إليه الشيخ الغزالي:

• الأحناف

ونبدأ بما نُسب إلى أبي حنيفة - رحمه الله - في ذلك: فقد روى الحسن عن أبي حنيفة - رحمهما الله تعالى - أنه لا كفارة عليه وإن بلغه الخبر؛ لأن خبر الواحد لا يوجب علم اليقين، وإنما يوجب العمل تحسیناً للظن بالراوي، فلا تنتفي الشبهة به.

وما اشتهر عن أبي حنيفة أنه كان يرد خبر الواحد إذا تعارض مع القياس، أو كان مما عمّت به البلوى.

وقرر الكمال بن الهمام: «أن خبر الواحد لا يوجب اليقين، بل الظن»^(١). وقال أبو البركات النسفي: «وأما دعوى علم اليقين به فباطل؛ لأننا قد بينّا أن المشهور لا يوجب علم»^(٢).

(١) الكمال بن الهمام، فتح القدير، دار الفكر، القاهرة، د.ت، ٣/ ١٥٩.

(٢) النسفي، كشف الأسرار على المنار، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ٢/ ١٩.

قال البزدوي: «أما دعوى علم اليقين - يريد في أحاديث الأحاد - فباطلة بلا شبهة؛ لأن العيان يردده، وهذا لأن خبر الواحد محتمل لا محالة، ولا يقين مع الاحتمال، ومن أنكر هذا فقد سفه نفسه وأضل عقله»^(١).

قال السرخسي: «بعدما ذُكِرَ قول من قال إن خبر الواحد يُوجب العلم، وذكر بعض ما يستدلون به: قال ما نصه: «ولكننا نقول هذا القائل كأنه خفي عليه الفرق بين سكون النفس وطمأنينة القلب وبين علم اليقين، فإن بقاء احتمال الكذب في خبر غير المعصوم معاين لا يمكن إنكاره، ومع الشبهة والاحتمال لا يثبت اليقين، وإنما يثبت سكون النفس وطمأنينة القلب بترجح جانب الصدق ببعض الأسباب، وقد بينا فيما سبق أن علم اليقين لا يثبت بالمشهور من الأخبار بهذا المعنى، فكيف يثبت بخبر الواحد»^(٢).

قال الجصاص: «قال أبو بكر: وقد علمنا يقيناً أنه لا يقع العلم بخبر الواحد والاثنين ونحوهما إذا لم تقم الدلالة على صدقهم من غير جهة خبرهم؛ لأننا لما امتحنا أحوال الناس لم نر العدد القليل يوجب خبرهم العلم، والكثير يوجب خبره إذا كان بالوصف الذي ذكرنا»^(٣).

(١) علاء الدين الحنفي، كشف الأسرار شرح أصول البزدوي، دار الكتاب الإسلامي، د.ت، ١٠/٣.

(٢) السرخسي، أصول السرخسي، مرجع سابق، ص ٣٢٩.

(٣) أبو بكر الجصاص، الفصول في الأصول، وزارة الأوقاف الكويتية، الكويت، ط ٢، ١٩٩٤م، ٥٣/٣.

ثم قال في نفس الصفحة في معرض الرد: «فأما إذا قلنا يقبل خبر الواحد المخبر غيره عن النبي ﷺ في لزوم العمل به، دون وقوع العلم بصحته والقطع على عينه، وقلنا: إن خبر النبي ﷺ لما اقتضى وقوع العلم بصحة خبره، وما دعى إليه احتاج إلى الدلائل الموجبة لصدقه؛ فلم نجعل المخبر عن النبي ﷺ أعلى منزلة منه ﷺ في خبره»^(١).

وقال نظام الدين الأنصاري: «الأكثر من أهل الأصول ومنهم الأئمة الثلاثة على أن خبر الواحد إن لم يكن هذا الواحد المخبر معصوماً نبياً لا يفيد العلم مطلقاً سواء احتفى بالقرائن أو لا»^(٢).

• المالكية

ونبدأ بما نسب إلى مالك بن أنس رحمه الله في هذا الموضوع. قال أبو الوليد الباجي: «ومذهب مالك رحمه الله قبول خبر الواحد العدل، وأنه يوجب العمل دون القطع على عينه، وبه قال جميع الفقهاء»^(٣).

وقال أيضاً: «والنُّطقي على قسمين: قطعي وظني، فالقطعي منه هو المشاهد أو المنقول بالتواتر، والظني هو المنقول بخبر الأحاد الصحيح، وهو حجة

(١) المرجع السابق، ص ٥٣/٣.

(٢) ابن نظام الدين الأنصاري، فواتح الرحموت، شرح مسلم الثبوت كما في حاشية المستصفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٣م، ٢/١٢١.

(٣) الباجي، الإشارة في أصول الفقه، دار البشائر، د.ت، ص ٢٠٣.

ظنية، والقطعي حجة قطعية»^(١)، وما يدل على أن خبر الأحاد لا يفيد العلم عند مالك أنه كان يردده إذا تعارض مع عمل أهل المدينة.

وقال الشاطبي: «رتبة السنة التأخر عن الكتاب في الاعتبار، والدليل على ذلك أمور: أحدها: أن الكتاب مقطوع به، والسنة مظنونة، والقطع فيها إنما يصح في الجملة لا في التفصيل، بخلاف الكتاب فإنه مقطوع به في الجملة والتفصيل، والمقطوع به مقدم على المظنون»^(٢).

وقال أبو العباس القرافي (باب في خبر الواحد): وهو خبر العدل الواحد أو العدول المفيد للظن. ثم ذكر كلاماً، وقال: وخبر الواحد لا يفيد إلا الظن. وقال أيضاً: وخبر الواحد مظنون^(٣). وقال أبو بكر بن العربي متحدثاً عن خبر الواحد: «وقال قوم: إنه يوجب العلم والعمل كالخبر المتواتر، وهذا إنما صاروا إليه بشبهتين دخلتا عليهما، إما جهلهم بالعلم، وإما جهلهم بخبر الواحد، فإنا بالضرورة نعلم امتناع حصول العلم بخبر الواحد وجواز تطرق الكذب والسهو عليه»^(٤)، قال أبو بكر بن عاصم الغرناطي: «ومذهب الجمهور أن خبر الأحاد لا يفيد العلم ولو اختلطت به القرائن وكان راويه عدلاً»^(٥).

(١) الولاتي، إيصال السالك في أصول الإمام مالك، المكتبة العلمية، تونس، ١٩٢٨م، ص ١٧.

(٢) الشاطبي، الموافقات، مرجع سابق، ٧ / ٤.

(٣) القرافي، شرح تنقيح الفصول، شركة الطباعة الفنية المتحدة، ط ١، ١٩٧٣م، ص ٣٥٦-٣٥٨.

(٤) ابن العربي، المحصول، دار البيارق، عمان، ط ١، ١٩٩٩م، ص ١١٥.

(٥) الولاتي، نيل السؤل على مرتقى الوصول، المطبعة المولوية، فاس، ط ١، ١٣٢٧هـ، ص ٥٧.

وقال القاسم محمد بن أحمد بن جزى الكلبي: «وأما نقل الأحاد فهو خبر الواحد أو الجماعة الذين لا يبلغون حد التواتر، وهو لا يفيد العلم وإنما يفيد الظن»^(١).

• الشافعية

ونبدأ بما نُسب إلى الشافعي رحمه الله، فقد قال أبو بكر الصيرفي: «خبر الواحد يوجب العمل دون العلم، ونقله عن جمهور العلماء منهم الشافعي»^(٢).

قال النووي: «وذهب بعض المحدثين إلى أن الأحاد التي في صحيح البخاري أو صحيح مسلم تفيد العلم دون غيرها من الأحاد، وقد قدمنا هذا القول وإبطاله في الفصول، وهذه الأقاويل كلها سوى قول الجمهور باطلة». إلى أن قال: «وأما مَنْ قال يوجب العلم فهو مكابر للحس، وكيف يحصل العلم واحتمال الغلط والوهم والكذب وغير ذلك متطرق إليه؟»^(٣).

وقال ابن حجر العسقلاني عند كلامه عن المتواتر: «فكله مقبول لإفادته القطع بصدق مخبره بخلاف غيره من أخبار الأحاد»^(٤). وقال الزركشي: «إن

(١) ابن جزى الكلبي، تقريب الوصول إلى علم الأصول، طبعة ليدن، ١٤٢٣هـ، ص ٨١.

(٢) السمعاني، قواطع الأدلة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م، ١/٣٦٦.

(٣) النووي، شرح صحيح مسلم، مرجع سابق، ١/١٣١.

(٤) ابن حجر، نخبة الفكر في مصطلحات أهل الأثر، دار الحديث، ط ٥، ١٩٩٧م، ص ٣٨.

خبر الواحد لا يفيد العلم وهو قول أكثر أهل الحديث وأهل الرأي والفقهاء^(١).
وقال الإسنيوي: «وأما السنة فالأحد منها لا يفيد إلا الظن»^(٢).

قال إمام الحرمين الجويني: «ذهبت الحشوية من الخنابلة وكتبة الحديث إلى أن خبر الواحد العدل يوجب العلم، وهذا خزي لا يخفى مدركه على ذي لب، فنقول لهؤلاء: أتجوزون أن يزل العدل الذي وصفتموه ويخطئ؟ فإن قالوا: لا؛ كان بهتاً وهتكاً وخرقاً لحجاب الهيبة، ولا حاجة إلى مزيد البيان فيه. والقول القريب فيه أنه قد زلَّ من الرواة الأثبات جمع لا يعدون كثرة، ولو لم يكن الغلط متصوراً لما رجع راوٍ عن روايته، والأمر بخلاف ما تخيلوه، فإذا تبين إمكان الخطأ فالتقطع بالصدق مع ذلك محال، ثم هذا في العدل في علم الله تعالى، ونحن لا نقطع بعدالة واحد، بل يجوز أن يضمم خلاف ما يظهر، ولا متعلق لهم إلا ظنهم أن خبر الواحد يوجب العمل، وقد تكلمنا عليه بما فيه مقنع»^(٣).

(١) الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، دار الكتبي، ط ١، ١٩٩٤م، ٤/ ٢٦٢.

(٢) الإسنيوي، نهاية السؤل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٩م، ١/ ٤١.

(٣) الجويني، البرهان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ١/ ٦٠٦، [الحشوية وصف يطلق ويقصد به غالباً بعض الخنابلة، وذلك كموقف من معارضيتهم للتعبير عن عدم تعمق هذا القسم من الخنابلة في فهم المراد من النصوص، والابتعاد عن المنهج العلمي في الاستدلال على العقائد، والاكتفاء فقط بظاهر النصوص. وهو مصطلح يقابله رفض من الخنابلة، ويعتبرونه تعدياً من مخالفيتهم لأنهم اتبعوا الحق].

قال أبو حامد الغزالي: «اعلم أنا نريد بخبر الواحد في هذا المقام ما لا ينتهي من الأخبار إلى حدّ التواتر المفيد للعلم، فما نقله جماعة من خمسة أو ستة مثلاً فهو خبر الواحد». إلى أن قال: «وإذا عرفت هذا، فنقول خبر الواحد لا يفيد العلم، وهو معلوم بالضرورة، فإننا لا نصدق بكل ما نسمع، ولو صدقنا وقدرنا تعارض خبرين، فكيف نصدق بالضدين»^(١).

قال الخطيب البغدادي: «خبر الواحد لا يقبل في شيء من أبواب الدين المأخوذ على المكلفين العلم بها والقطع عليها؛ والعلة في ذلك أنه إذا لم يعلم أن الخبر قول رسول الله ﷺ كان أبعد من العلم بمضمونه»^(٢).

قال الفخر الرازي: «اعلم أن المراد في أصول الفقه بخبر الواحد الخبر الذي لا يفيد العلم واليقين»، وقال أيضاً: «والعجب من الحشوية أنهم يقولون: الاشتغال بتأويل الآيات المتشابهة غير جائز؛ لأن تعيين ذلك التأويل مظنون، والقول بالظن في القرآن لا يجوز، ثم إنهم يتكلمون في ذات الله تعالى وصفاته بأخبار الأحاد مع أنها في غاية البعد عن القطع واليقين، وإذا لم يجوزوا تفسير ألفاظ القرآن بالطريق المظنون فلأن يمتنعوا عن الكلام في ذات الحق تعالى وفي صفاته بمجرد الروايات الضعيفة أولى»^(٣).

(١) أبو حامد الغزالي، المستصفى، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٣م، ١/١٤٥.

(٢) الخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية، مرجع سابق، ص ٤٣٢.

(٣) الرازي، أساس التقديس، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ٢١٦.

قال ابن برهان: «خبر الواحد لا يفيد العلم، خلافاً لبعض أصحاب الحديث، فإنهم زعموا أن ما رواه مسلم والبخاري مقطوع بصحته، وعمدنا أن العلم لو حصل بذلك لحصل بكافة الناس كالعلم بالأخبار المتواترة، ولأن البخاري ليس معصوماً عن الخطأ، فلا نقطع بقول؛ ولأن أهل الحديث وأهل العلم غلطوا مسلماً والبخاري وأثبتوا أوهامهما، ولو كان قولهما مقطوعاً به لاستحال عليهما ذلك، ولأن الرواية كالشهادة ولا خلاف أن شهادة البخاري ومسلم لا يقطع بصحتها، ولو انفرد الواحد منهم بالشهادة لا يثبت الحق به، فدل على أن قوله ليس مقطوعاً به، وإن أبدوا في ذلك منعاً كان خلاف إجماع الصحابة فإن أصحاب رسول الله ﷺ ما كانوا يقضون بإثبات إلا بشهادة شاهدين»^(١).

قال ابن السبكي: «والنص قسمان: أحاد لا يفيد إلا الظن...»^(٢).

• الحنبلة

ونبدأ بما نسب إلى أحمد بن حنبل - رحمه الله - في ذلك لتكتمل حلقة المذاهب الأربعة: فقد روي عنه روايتان إحداهما أن خبر الأحاد لا يفيد العلم، والثانية أنه يفيد، والأول هو الراجح عند فقهاء مذهبه.

(١) ابن برهان، الوصول إلى الأصول، مكتبة المعارف، الرياض، ط ١، ١٩٨٤م، ٢/١٧٢-١٧٤.

(٢) السبكي، الإبهاج شرح المنهاج، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م، ١/٣٨.

قال أبو الخطاب الحنبلي: «خبر الواحد لا يقتضي العلم. قال - أي أحمد - في رواية الأثرم: (إذا جاء الحديث عن النبي ﷺ بإسناد صحيح، فيه حكم، أو فرض، عملت به وددت الله تعالى به، ولا أشهد أن النبي قال ذلك)، فقد نص على أنه لا يقطع به، وبه قال جمهور العلماء»^(١).

قال صفى الدين البغدادي الحنبلي: «والأحاد ما لم يتواتر، والعلم لا يحصل به في إحدى الروايتين، وهو قول الأكثرين ومتأخري أصحابنا»^(٢).

قال ابن قدامة الحنبلي: «القسم الثاني: أخبار الآحاد، وهي ما عدا المتواتر، اختلفت الرواية عن إمامنا في حصول العلم بخبر الواحد، فروي أنه لا يحصل به، وهو قول الأكثرين، والمتأخرين من أصحابنا؛ لأننا نعلم ضرورة أنا لا نصدق كل خبر نسمعه، ولو كان مفيداً للعلم لما صح ورود خبرين متعارضين، لاستحالة اجتماع الضدين، ولجاز نسخ القرآن والأخبار المتواترة به، لكونه بمنزلة ما في إفادة العلم، ولوجب الحكم بالشاهد الواحد، ولا يستوي في ذلك العدل والفاسق كما في التواتر»^(٣).

(١) أبو الخطاب الكلوزاني الحنبلي، التمهيد، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، ط١، ١٩٨٥م، ٣/٧٨.

(٢) صفى الدين البغدادي، قواعد الأصول، مرجع سابق، ص ١٦.

(٣) ابن قدامة المقدسي، روضة الناظر وجنة المناظر، مؤسسة الريان، ط٢، ٢٠٠٢م، ١/٢٦٠.

وقال ابن بدران في تعليقه على روضة الناظر: «إسناد القول الثاني إلى الإمام من غير تقييد فيه نظر، وكذلك ما نسبته إليه ابن الحاجب والواسطي وغيرهما من أنه قال يحصل العلم في كل وقت بخبر كل عدل، وإن لم يكن ثم قرينة فإنه غير صحيح أصلاً، وكيف يليق بمثل إمام السنة أن يدعي هذه الدعوى، وفي أي كتاب رويت عنه رواية صحيحة، ورواياته ﷺ كلها مدونة معروفة عند الجهابذة من أصحابه»^(١).

قال نجم الدين الطوفي: «... الثاني: الأحاد، وهو ما عدم شروط التواتر أو بعضها، عن أحمد في حصول العلم به قولان: الأظهر لا، وهو قول الأكثرين، ثم ذكر القول الثاني، ثم ذكر دليل القول الأول وهو الراجح عنده، فقال الأولون: لو أفاد العلم لصدقنا كل خبر نسمعه، ولما تعارض خبران، ولجاز الحكم بشاهد واحد، ولاستوى العدل والفاسق كالتواتر، واللوازم باطلة»^(٢).

مشروعية منهج الشيخ الغزالي في عرض الحديث على القرآن

يمكن الاحتجاج لهذا المنهج بأدلة تؤيد صحته، بل تجعله أكثر سلامة في قبول ورد الأحاديث المروية عن النبي ﷺ، وسنعرضها على النحو الآتي:

(١) ابن بدران، نزهة خاطر على روضة الناظر، دار الحديث، بيروت، ط١، ١٩٩١م، ١/ ٢٦١.

(٢) الطوفي، شرح المختصر في أصول الفقه على مذهب أحمد بن حنبل، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، ٢/ ١٠٨ (شرح مختصر الروضة).

الدليل العقلي

إننا نعلم أن الكتاب والسنة لهما هدف واحد، وعلى هذا الأساس يقضي العقل بعدم اختلافهما وبتوافقهما ولو في الإطار العام، وبما أن ثبوت القرآن قطعي، قد وصل إلينا بالتواتر، وثبوت أحاديث الأحاد الواردة عن النبي ﷺ ظنية كما بيّننا سابقاً، فيمكن فيها السهو والخطأ، فالعقل يحكم بأن نقيم ما ورد عن طريق الظن على ضوء ما قطع بثبوتيه.

الدليل من القرآن

أخبرنا الله تعالى في القرآن الكريم أنه أرسل إلى الأمم السابقة رسلاً وأنزل كتباً، لإرشادهم إلى المنهج الأمثل الذي يُعرف الحق من خلاله، ويحسم أي اختلاف يطراً وفق نظامه، فقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة / ٢١٣]. وأنكر على المعارضين عن ذلك المنهج، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْا فَرِيقًا مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران / ٢٣].

وعندما تجاهلت بعض الأمم ذلك المنهج، انحرفت مسيرتها، وأخذت تغرق في خصومة وجدل عقيم، أدى إلى إقدام كل طرف على مُصادرة حق الآخر في الانتماء إلى الفكر المشترك بينهم.. وبنو إسرائيل أوضح مثال على ذلك، فقد

حكى لنا الله تعالى خلاصة حالهم بقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۗ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة/ ١١٣]. فأخبر أنهم كانوا ﴿يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، لينبه بذلك على أنه كان بإمكانهم الخروج من الخلاف بالعودة إلى كتاب ربهم الذي هو محل احترامهم جميعاً، ولكنهم بتجاهلهم صاروا مثلاً للذين لا يعلمون، فقالوا مثل قولهم.

وعلى نفس النسق أكد الله تعالى لهذه الأمة من خلال القرآن الكريم أن الرجوع إلى كتابه عند الاختلاف، هو منهج معتبر وسبيل مأمونة؛ فهو مصدر الهداية الذي يمكن للأمة الاعتماد عليه، قال تعالى: ﴿وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ ۗ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى / ١٠]. وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء / ٩].

وفي ذلك دلالة كافية على أن القرآن الكريم أمان لهذه الأمة من الانحراف والتفرق، إن اجتمعت عليه وعملت وفق توجيهاته، وهذا لا يعني إلغاء دور السنة بوصفها مصدراً من مصادر الهداية، وإنما المراد أن نجعل القرآن أصل الأصول ومرجع المراجع.

الدليل من السنة

روى ابن عساكر في «تاريخ دمشق»، من طريق أبي كريب، عن أبي بكر بن عياش، عن عاصم بن أبي النجود، عن زر بن حبيش عن علي بن أبي طالب، قال، قال رسول الله ﷺ: «إنها تكون بعدي رواة يروون عني الحديث، فاعرضوا حديثهم على القرآن، فما وافق القرآن فخذوا به، وما لم يوافق القرآن فلا تأخذوا به»^(١).

وهذا حديث صحيح الإسناد حسب قواعد المحدثين، فرجاله من الحفاظ الثقات، الذين اعتمد روايتهم أصحاب الصحاح وغيرهم، فأبو كريب هو محمد ابن العلاء الهمداني شيخ البخاري ومسلم، له في الصحاح الست حوالي ألف حديث، في الصحيحين منها خمسمائة حديث^(٢)، وأبو بكر ابن عياش هو الأسدي الكوفي المقرئ، له في الصحاح حوالي مائة وخمسين حديثاً في البخاري منها عشرون حديثاً^(٣)، وعاصم بن أبي النجود هو أبو بكر المقرئ، له في الصحاح حوالي مائة وعشرين حديثاً، خمسة منها في الصحيحين^(٤)، وزر بن حبيش صحابي له في الصحاح زهاء سبعين حديثاً، منها ثلاثة عشر في الصحيحين. فهذه الرواية وحدها كافية لتصحيح الحديث حسب قواعد المحدثين.

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق الكبير، دار الفكر، ١٩٩٥م، ٧٧/٥٥.

(٢) انظر ابن حجر، تقريب التهذيب، دار الرشيد، سوريا، ط١، ١٩٨٦م، ١/٥٠٠.

(٣) المرجع السابق، ١/٦٢٤.

(٤) المرجع السابق، ١/٢٨٥.

ولقد عمل المسلمون طوال تاريخهم العلمي - وبشكل تلقائي - بمبدأ عرض السنة على القرآن الكريم، بحثاً منهم عن الطمأنينة بصحة ما يروى عن النبي ﷺ، ومن صور ذلك:

عمل الصحابة بهذا المنهج

كان الصحابة الذين هم الأقرب إلى النبي ﷺ يجعلون القرآن نصب أعينهم، وينطلقون من خلاله، ويسترشدون به في كل ما التبس عليهم، رغم أن مشكلتهم في التحقق من عدالة الرواة تكاد تكون معدومة، بل كانوا يتركون روايات الأحاد العدول عندهم إذا خالفت ظاهر القرآن الكريم، وهذه شواهد مما ورد في ذلك:

- روي عن عائشة أنها قالت لمسروق: «أين أنت من ثلاث؟ من حدثكهن فقد كذب:

من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام / ١٠٣]. ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذنيه مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ [الشورى / ٥١].

ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب! ثم قرأت ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا

وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿﴾ [لقمان / ٣٤].

ومن حدثك أن محمداً كتم أمراً فقد كذب، ثم قرأت ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة / ٦٧]...» أخرجه البخاري ومسلم^(١).

• وردت حديث عمر بن الخطاب وابنه عبد الله: «إن الميت يعذب ببكاء أهله» بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء / ١٥]. رواه البخاري ومسلم^(٢)، وهو ما بيناه سابقاً.

• وروى عن علي بن أبي طالب أنه قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعني الله به ما شاء أن ينفعني، وإذا حدثني غيري عنه استحلفتة، فإذا حلف لي صدقته، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر، قال: قال رسول الله ﷺ: ما من عبد مؤمن يذنب ذنباً فيتوضأ فيحسن الطهور ثم يصلي ركعتين فيستغفر الله تعالى إلا غفر الله له، ثم تلا: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران / ١٣٥]. أخرجه أحمد^(٣). فنلاحظ

(١) انظر: صحيح البخاري، ٦٠٦ / ٨ «فتح»، ومسلم، ١٥٩ / ١ برقم (٢٨٧).

(٢) انظر صحيح البخاري، ١٥١ / ٣ «فتح»، وصحيح مسلم، ٦٣٨ / ٢ - ٦٤٢.

(٣) أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، مؤسسة الرسالة، ط ١، ٢٠٠١م، ١ / ١٠.

أن علياً لم يلجأ إلى استحلاف أبي بكر كما هي عادته حين وجد للحديث شاهداً من القرآن الكريم.

• وروي عن ابن مسعود أنه قال: إذا حدثتكم بحديث أنبأتكم بتصديق ذلك من كتاب الله تبارك وتعالى، إن العبد إذا قال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وتبارك الله، أخذهن مَلَكٌ فجعلهن تحت جناحه ثم صَعَدَ بهنَّ فلا يمر على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن. ثم قرأ عبد الله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر / ١٠] (١).

• وَرَدَّ عمر بن الخطاب حديث فاطمة بنت قيس حين جاءت إليه تروي أن زوجها طلقها على عهد رسول الله ﷺ فبَتَّ طلاقها، ولم يجعل لها رسول الله ﷺ نفقة ولا سكنى، وقال لها: «اعتدي في بيت ابن أم مكتوم فإنه رجل أعمى»، فرد عمر كلامها، وقال: لا نترك كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لا ندري لعلها حفظت أم نسيت، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرِجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ [الطلاق / ١]. أخرج مسلم (٢).

(١) البوصيري، إتحاف الخيرة المهرة، دار الوطن، الرياض، ط ١، ١٩٩٩م، ٤٢٧/٦.

(٢) انظر: صحيح مسلم، ١١١٨/٢.

• وعرض أبو هريرة حديث: «من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر كله». فقال: قد صمت ثلاثة أيام من كل شهر فلي الشهر كله، ووجدت تصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام / ١٦٠]. أخرجه أبو يعلى^(١).

• وعن ابن عباس قال: «إذا حدثتكم بحديث عن رسول الله ﷺ فلم تجدوا تصديقه في الكتاب، أو هو حسن في أخلاق الناس، فأنا به كاذب»^(٢).

فقهاء المسلمين والعمل بهذا المنهج

يكاد منهج عرض رواية الحديث على القرآن أن يكون ضرورة ماسّة في النقد العلمي للحديث، ومعرفة الوجهة العامة للتشريع، بغض النظر عن الأدلة التي قدمناها؛ ولذلك لم يزل يتحرك عبر الزمن على أيدي علماء الأمة وفقهائها، مساهمًا في تقويم الأفكار وتصويب الأخطاء، ففي الصدر الأول طبّق الصحابة هذا المنهج كما قدمنا، وفي العصور المتتابعة كان العمل به سائدًا عند أئمة العلم فقهاء ومحدثين، وروى عبد الرزاق عن الزهري أنه ردّ بعض الروايات لمخالفتها القرآن وقال: إن خير الأمور ما عرض على كتاب الله^(٣).

(١) انظر: أبو يعلى، مسند أبي يعلى، دار المأمون للتراث، دمشق، ط ١، ١٩٨٤م، ٥/١٢.

(٢) انظر: السيوطي، مفتاح الجنة، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط ٣، ١٩٨٩م، ٢٦/١.

(٣) عبد الرزاق، مصنف عبد الرزاق، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٣هـ، ٩٦/١٠.

أما فقهاء الأحناف، فعن أبي حنيفة أنه اشترط لصحة الحديث ألا يخالف عمومات الكتاب أو ظواهره، فإن الكتاب قطعي الثبوت وظواهره وعموماته قطعية الدلالة، والقطعي يُقَدَّم على الظني، أما إذا لم يخالف الخبر عاماً أو ظاهراً في الكتاب، بل كان بياناً لمجمل؛ فإنه يؤخذ به حيث لا دلالة فيه بدون بيان^(١).

وقد رفض الإمام أبو حنيفة حديث «لا يُقتل مسلم في كافر» مع صحة سنده؛ لأن المتن معلول بمخالفته للنص القرآني ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة / ٤٥] وقوله تعالى: ﴿وَأَنِ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ يَمَّا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة / ٤٩]^(٢).

اشتهر عن عيسى بن أبان أنه يوجب عرض خبر الواحد على القرآن حتى وإن كملت شروط صحته، واحتج بحديث عرض الرواية على القرآن^(٣).

واحتج السرخسي، بحديث عرض الرواية على القرآن أيضاً، وقال: «إذا كان الحديث مخالفاً لكتاب الله تعالى، فإنه لا يكون مقبولاً ولا حجة للعمل به». وأضاف: «إن الكتاب متيقن به، وفي اتصال الخبر الواحد برسول الله شبهة، فعند تعذر الأخذ بهما لا بد من أن يؤخذ بالمتيقن ويترك ما فيه شبهة»^(٤).

(١) محمد أبو زهو، الحديث والمحدثون، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٧٨ هـ، ص ١٨١.

(٢) محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، مرجع سابق، ص ٢٨.

(٣) الرازي، المحصول، مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٩٩٧ م، ٤ / ٦٢٩.

(٤) السرخسي، أصول السرخسي، مرجع سابق، ١ / ٣٦٥، ٢ / ٦٨.

ويرى السرخسي «مخالفة الخبر للقرآن دليلاً ظاهراً على الزيادة»^(١)، ويبرز البزدوي رأي الأحناف في أنه لا يجوز ترجيح خبر واحد على ظاهر القرآن، ولا تخصيص عمومته به؛ لأنه ترجيح للأضعف على الأقوى منه «لأن الكتاب ثابت بيقين فلا يترك بما فيه شبهة، ويستوي في ذلك الخاص والعام والنص الظاهر، حتى إن العام من الكتاب لا يخصص بخبر الواحد عندنا خلافاً للشافعي...»

ولا يترك الظاهر من الكتاب ولا ينسخ بخبر الواحد وإن كان نصاً؛ لأن المتن أصل والمعنى فرع له، والمتن من الكتاب فوق المتن من السنة لثبوته بلا شبهة؛ فوجب الترجيح به قبل المصير إلى المعنى»^(٢).

فإن كان خبر الواحد مخالفاً لنص القرآن الكريم فإنه يرد؛ لأن الكتاب قطعي الثبوت وخبر الواحد ظني الثبوت، ولا تعارض بين القطعي والظني بوجه، بل الظني يسقط بمقابلة القطعي^(٣).

وقال السمعاني «ذهب جماعة من أصحاب أبي حنيفة إلى أنه يجب عرض خبر الأحاد على الكتاب، فإن لم يكن في الكتاب ما يدل على خلافه قبل وإلا فيرد، وذهب إلى هذا كثير من المتكلمين»^(٤).

(١) المرجع السابق ١ / ٣٦٥ .

(٢) البزدوي، أصول البزدوي مع شرح كشف الأسرار، مرجع سابق، ٣ / ٨ .

(٣) انظر علاء الدين الحنفي، كشف الأسرار، مرجع سابق، ٣ / ٩ .

(٤) السمعاني، قواطع الأدلة، مرجع سابق، ١ / ٣٦٥ .

وقال أبو المحاسن الحنفي: «والحاصل أن الحديث المروي إذا وافق الشرع وصدقه القرآن وجب تصديقه»^(١).

أما فقهاء المالكية، وعلى رأسهم مالك بن أنس فالمعروف من مذهبهم تقديم عمل أهل المدينة على الصحيح من حديث الأحاد، كما نص على ذلك الدسوقي^(٢)، والزرقاني^(٣)، وابن عبد البر^(٤). فبالأولى ترك ما خالف القرآن الكريم. وقد رد مالك بن أنس بعضاً من الأحاديث لمخالفتها ظاهر القرآن منها ما هو في البخاري ومسلم مثل ما روي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا شرب الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً»^(٥).

ويرى الإمام مالك أن هذا الحديث يخالف ظاهر قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة / ٤] فقال رحمه الله تعالى: «يؤكل صيده بنص القرآن فكيف يُكره لعبه»^(٦).

(١) أبو المحاسن الحنفي، المعتصر من المختصر، عالم الكتب، بيروت، د.ت، ٢/ ٣٨٤.

(٢) الدسوقي، حاشية الدسوقي، دار الفكر، د.ت، ٣/ ٩١.

(٣) الزرقاني، شرح الموطأ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٣م، ٣/ ١٢٢.

(٤) ابن عبد البر، التمهيد، وزارة عموم الأوقاف المغربية، المغرب، ١٣٨٧هـ، ٦/ ٣٤٤.

(٥) صحيح البخاري رقم ١٧٢ كتاب الوضوء باب إذا شرب الكلب من إناء أحدكم، صحيح مسلم، رقم ٢٧٩،

كتاب الطهارة، باب حكم ولوغ الكلب.

(٦) الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، مرجع سابق، ٣/ ٢١.

وأما فقهاء الشافعية، فقد قال الشيرازي: إذا روى الخبر ثقة رد بأمور ذكر منها: «أن يخالف نص كتاب أو سنة متواترة فيعلم أنه لا أصل له أو منسوخ»^(١).

واحتج الأمدى بحديث العرض، واعتبر كل حديث مخالف للقرآن مردوداً، ورد على أساس هذه القاعدة جملة من الأحاديث^(٢).

وقال الشاشي: «شرط العمل بخبر الواحد ألا يكون مخالفاً للكتاب والسنة المشهورة»^(٣).

وقال النووي: «ومتى خالف خبر الأحاد نص القرآن أو إجماعاً وجب ترك ظاهره»^(٤).

وذكر الخطيب البغدادي: أنه يُرد خبر الثقة المأمون إذا خالف نص الكتاب أو السنة المتواترة^(٥).

وقال ابن جماعة: «قد يعلم كذب الخبر قطعاً كاخبر المخالف لخبر الله تعالى»^(٦).

(١) الشيرازي، اللمع في أصول الفقه، دار الكتب العلمية، ط ٢، ٢٠٠٣م، ١/ ٨٢.

(٢) الأمدى، الإحكام في أصول الأحكام، المكتب الإسلامي، بيروت، ٢/ ٣٤٦.

(٣) الشاشي، الأصول، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت، ١/ ٢٨٠.

(٤) النووي، المجموع، دار الفكر، د.ت، ٤/ ٢٨٥.

(٥) الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، دار ابن الجوزي، ط ٢، ١٤٢١هـ، ١/ ١٣٢.

(٦) ابن جماعة، المنهل الروي في علوم الحديث النبوي، دار الفكر، دمشق، ط ٢، ١٤٠٦هـ، ١/ ٣١.

وحكى السمعاني عن أبي زيد - لعله المروزي الشافعي - أنه قال: خبر الواحد ينتقد من وجوه أربعة، وجعل أولها العرض على كتاب الله تعالى. ثم انتقد من يعتمد على أخبار الأحاد بلا عرض له على الكتاب والسنة الثابتة، ثم يتأول الكتاب لموافقة خبر الواحد، وجعل المتبوع تبعاً، ويبني دينه على ما لا يوجب العلم يقيناً، ثم قال: «القول الوسط العدل أن يجعل كتاب الله تعالى أصلاً فهو الثابت يقيناً، وخبر الواحد مرتباً عليه يعمل به على موافقته ويرد إذا خالفه»^(١).

وأما فقهاء الحنابلة، فإن أبا الفرج ابن الجوزي طبق فعلياً منهج عرض رواية الحديث على القرآن، في كثير من كتبه، ومن ذلك رده لحديث: «لا يدخل الجنة ولد زنا»^(٢) لمعارضته لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُزْرُ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء / ١٥]^(٣).

وكذلك فعل ابن القيم بحيث لم يتردد في اعتبار حديث خلق السماوات والأرض في سبعة أيام الذي رواه مسلم في صحيحه، غير صحيح لمخالفته القرآن. ولفظه: «عن أبي هريرة، قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فقال: خلق الله عز وجل التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب

(١) السمعاني، قواطع الأدلة في الأصول، مرجع سابق، ١ / ٣٦٥.

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى، ٩ / ٢٧٦.

(٣) انظر: ابن الجوزي، الموضوعات ٣ / ١١٠-١١١، وحكاه عنه العجلوني في كشف الخفاء، ٢ / ٥٠١.

يوم الخميس، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة، في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل^(١). وهذا يعني أن الله خلق السماوات والأرض في سبعة أيام، وهذا مخالف لنص القرآن الكريم حين يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف / ٥٤].

وقد اعتبرها ابن تيمية^(٢) مردودةً بالقرآن، وكذلك ابن القيم^(٣).

والفرق بين القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة: أن القرآن محفوظ من التحريف والتبديل، ودوره يتمثل في إرساء الأسس العامة للدين، ووضع الخطوط العريضة للشرع الشريف. أما السنة النبوية فلسنا متعبدين بتلاوتها، ولا موعودين من الله تعالى بحفظها وحراستها كالقرآن، ودورها يتمثل في تفصيل المجمل، وشرح الغامض، فهي تتحرك في الإطار العام للقرآن الكريم.

وبناء على ما تقدم فآيات القرآن الكريم، وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم كما يرى الشيخ الغزالي بحق مختلفة الأدوار متحدة الهدف، وذلك ما يلبي حاجة البشرية

(١) صحيح مسلم، ٤/ ٢١٤٩.

(٢) ابن تيمية، بغية المرئاد، مكتبة العلوم، المدينة المنورة، ط ٣، ١٩٩٥م، ٣٠٧. وانظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ٢/ ٤٤٣.

(٣) ابن القيم، بدائع الفوائد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٩٨٦م، ١/ ٨٥.

ويصلح شأنها، إذ يقول - رحمه الله - «السنة لا تكون إلا بياناً للقرآن، بياناً يتسق مع دلالاته القريبة والبعيدة، ويستحيل أن تتضمن معنى أو حكماً يخالف القرآن الكريم»^(١)، ويؤكد أن القرآن هو الحكم الذي يحكم به على كل دليل، والميزان الذي يُوزن به كل مصدر «فالمؤمن بالقرآن يستحيل أن يرجح على دلالاته دلالة، أو أن يشرك مع توجيهه هدياً، ذلك أن القرآن يعلو ولا يُعلَى عليه، وأنه يحكم على سائر الأدلة الأخرى ولا يحكم شيء منها عليه»^(٢).

ويقول في موضع آخر «لقد كنت عندما أحب الاستشهاد بالكتاب والسنة في موضوع ما، ألاحظ هذه الحقيقة، وأجد طائفة كبيرة من الأحاديث تطابق في معانيها وأهدافها ما تضمن القرآن الكريم من معان وأهداف، وأن هذه الأحاديث قد تقرر المعنى نفسه، الذي احتوته الآية، أو تقرر معنى آخر يدور في فلكه وينتظم معه في اتجاه واحد»^(٣).

ويوضح الشيخ الغزالي أن تقديم القرآن على السنة ثابت بإجماع، وأن ذلك دعت إليه جملة من الأسباب الموضوعية، تآبى أن تقبل سنة بمعزل عن فهم كتاب الله أولاً، من ذلك أن القرآن كله قطعي الثبوت بخلاف السنة فمنها الظني وهو الغالب ومنها القطعي، والقرآن حفظ بكامله لم يخرم منه حرف بخلاف

(١) محمد الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، مرجع سابق، ص: ١٨٢.

(٢) محمد الغزالي، ليس من الإسلام، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٦، ١٩٩١م، ص ٣٠.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٤.

السنة تأخر تدوينها ودخل فيها ما ليس منها، يقول: «وقد أجمع المسلمون على أن الكتاب هو الأصل الأول في التشريع، وأن السنة تحيي من بعده في المرتبة... ثم إن القرآن يقيني الثبوت، فهو متواتر جملة وتفصيلاً، أما السنة فإن منها المتواتر، وأكثرها أخبار آحاد، وروايات الآحاد تفيد الظن العلمي لا القطع الجازم، والأحكام الشرعية المهمة تعتمد على اليقينيات لا الظنيات»^(١).

ويقرّر الشيخ بهذه القاعدة بطلان أيّ حديث يخالف القرآن نصّاً ومعنى، والحكم ببطلانه أنّ من كون السنّة لا تأتي إلا بما يوافق القرآن، فكيف يقبل حديث يعارض القرآن؟ فإذا تحققت المعارضة وجب ترك الحديث؛ لأنّ المظنون لا يقوى على معارضة المقطوع، ولأنّ الحديث قد يكون معلول المتن ولو كان صحيح السند، يقول: «إن أيّ حديث يخالف روح القرآن أو نصّه فهو باطل من تلقاء نفسه»^(٢).

إن إثارة الشيخ لمثل هذه القضايا المهمة أهاجت عليه أتباع الفكر السندي - الذي يقدر السند في الحكم على صحة الحديث دون أدنى اعتبار لفحص المتن - فأشهبوا في وجهه سيوفاً صدئة، ورموه بسهام طائشة، فكانت معركة في غير ميدان، وجعجعة بغير طحين، إذ إنها اعتمدت على السب والشتم والتجريح

(١) محمد الغزالي، نظرات في القرآن، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ط ٦، ١٩٨٦م، ص: ١٥١-١٥٢.

(٢) محمد الغزالي، هذا ديننا، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ط ٣، ١٩٧٥م، ص ١٩١.

والتكفير، وخلت من قواعد البحث العلمي الرصين، مما جعل الشيخ يتأسف لوصول الفكر إلى هذا الحضيض فقال - في الطبعة العاشرة من كتابه - «ولكن ناسًا في عصرنا ما كادوا يقرؤون ما كتبت حتى انبروا لمهاجمتي والنيل مني، وليس هذا بضائري! وإنما لفت نظري أن القضية العلمية لفها ضباب مفتعل، فلم تبحث، ولم يذكر حكم الله فيها حتى لخليل إليّ أن التجهيل في الحكم مقصود! والصياح الذي طال حبله هو:

أتعترض على نافع يا... أتشكك في السلسلة الذهبية يا... أتكذب السنة النبوية يا... إلخ، وتحول الاعتراض إلى عواء يسمع صدهاء من قريب ومن بعيد، فذكرت قول الشاعر:

كريم أصابته ذئاب كثيرة فلم يدر حتى جئن من كل مذهب!

قلت: لا بد من إنصاف الحقيقة العلمية التي كادت تختفي مع هذا العواء، ليعرف الرجال والنساء أن ما حكاه نافع باطل، وأن إفساد الدين لا يستطيعه بعض المتحمسين العميان من عبید الأسماء»^(١).

ويلح الشيخ الغزالي إلحاحًا شديدًا في كل محطاته الفكرية على معادلة (الوحي - الواقع)، وهي رؤية تكاملية لقراءة الوحي وقراءة الواقع.. أو قل قراءة

(١) محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، مرجع سابق، ص ٢٥٧، ٢٥٨.

القرآن وقراءة الوجود بكل أبعاده.. إنه يفسر الظواهر الوجودية بأدوات الوحي والسماء، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف / ٥٤]. «وهذا ينشئ المقياس الذي سيحاكم به الشيخ كل نتاج فكري، سواء من المسلمين أو من غير المسلمين، سواء أكان قديماً أو حديثاً؛ فالإسلام يأمر بالقراءتين حيث تفسر كل قراءة الأخرى، وحيث التطابق التام لوحدة المصدر وهو رب العالمين، فلا تناقض بين الكتابين: كتاب الله المسطور، وكتاب الله المنظور»^(١). والغزالي لا يرى أي فاصل بين كتاب الخلق وكتاب الخالق، وعلى ذلك فإنه يقرر أن العلاقة بين الكون والإسلام هي ذات العلاقة بين العلم والدين.. وهي العلاقة ذاتها بين النظرية والتطبيق.. إنه يعبر عن الوجود (بالآيات الصامتة)، وعن القرآن (بالآيات الناطقة)^(٢)، فالذي خلق الحياة مغلفة بأسرار كثيفة أبي أن يجعلها لغزاً معضلاً للإنسان، فجعل الدين مفتاح الإغلاق، وجعل القرآن مصدر الدين. وإن التطابق بين حقائق القرآن ومعارف الكون مفروض ابتداء، فإن منزل الكتاب هو مجري السحاب^(٣).

(١) علي جمعة، الغزالي ورؤيته المنهجية، من أبحاث مؤتمر العطاء الفكري للشيخ الغزالي، الأردن، ١٩٩٦م، ص ٣٤.

(٢) محمد الغزالي، نظرات في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ١٢.

(٣) المرجع السابق، ص ١٣.

ويعتقد الغزالي أن الانغلاق والانكفاء على قراءة النص القرآني باعتباره مصدرًا تشريعيًا بصورة تجزيئية هو «خطر عظيم»، وسير بالأمر على إحدى رجليه دون الأخرى، ولا بدَّ من توفّر قراءة شاملة الأبعاد مترابطة الوشائج تختزن الرؤية التوحيدية في نظرتها للكون والحياة؛ ومن هنا جاءت دعوته إلى التفسير الموضوعي، وتجاوز التفسير الموضوعي الذي شاع عبر التاريخ الثقافي الإسلامي^(١).

وتقريرًا للواقع الإسلامي يؤكد الغزالي أن الهوة المتسعة بين الأمة والإسلام جعلت الفوضى والارتباك يسودان كل شيء، وأضحى الإسلام الحق لا يكاد يبين بين زحمة الموروثات التافهة والعوج المطرد، ويا له من اعتراف خطير يجعل مسؤولية المصلحين كبيرة، ويؤكد دورهم في عملية العطاء الأنبي والمستقبلي، في وقت يظل فيه الفقراء إلى الحقيقة يبحثون عن الإسلام، وتدمى أظافرهم في التنقيب عنه، فلا يجدون إلا ثقافة مغشوشة أو أمًا إسلامية لا تدري الكثير عن دينها، وربما كانت زاهدة في الموارث التي خصها القدر بها^(٢)!، وأول خطى الإصلاح التي يؤمن بها الغزالي هي: جعل الفقه - باعتباره أداة تحويل الشريعة ونظمها إلى واقع - لا يتعدى إطار القرآن والسنة الصحيحة. مؤكدًا أن السنة الصحيحة هي ليست تلك الأحاديث الصحيحة السند فحسب، وإنما صحيحة

(١) علي جمعة، الغزالي ورؤيته المنهجية، مرجع سابق، ص ٣٤.

(٢) محمد الغزالي، مستقبل الإسلام خارج أرضه كيف نفكر فيه؟ دار الصحوة، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٦م، ص ١١.

المتن بما ينسجم مع ما ثبت يقيناً من حقائق الدين الأخرى، «فإن السلف قد اهتموا بالأسانيد وحبسوا نشاطهم في رجالها، ولم يهتموا بالمتون. وهذا خطأ لأن الاهتمام بالسند لم يقصد لذاته، وإنما قصد منه الحكم على المتن نفسه، ثم إن صحة الحديث لا تجيء من عدالة رواته فحسب، بل تجيء أيضاً من انسجامه مع ما ثبت يقيناً من حقائق الدين الأخرى، فأى شذوذ فيه أو علة قاذحة يخرج منه نطاق الحديث الصحيح»^(١).

مرتكزات المشروع الفكري للشيخ الغزالي

إن المشروع الفكري للشيخ الغزالي والذي تشي به كتبه ومقالاته وخطبه ومحاضراته يرتكز على عدة عناصر، منها:

تزكية النفس وإصلاحها في ضوء هداية الوحي، والدعوة إلى العدل الاجتماعي، والانتصار للطبقات المسحوقة، ومقاومة الاستبداد السياسي، وتحرير المرأة من التقاليد الموروثة الدخيلة، ونقد الذات الإسلامية، ومحاربة التدين المغلوط والتطرف الممقوت في فهم الدين، والرجوع به إلى اليسر والاعتدال، بعيداً عن غلو الغالين، وتفريط المفرطين، ومواجهة الجمود الفكري والحرفية النصوبية، والدعوة إلى التقدم الحضاري ومقاومة التخلف، وتنقية الثقافة الإسلامية مما علق

(١) محمد الغزالي، ليس من الإسلام، مرجع سابق، ص ٤٠.

بها من أخلاط وزوائد خلال العصور، ومطاردة الأباطيل والأوهام التي أدخلت على العالم الإسلامي، وهي دخيلة عليه غريبة عنه^(١).

وسنكتفي لطبيعة هذه المقدمة بمرتكات أربعة هي الأكثر بروزاً في مشروعه الفكري؛ إذ لا يكاد يخلو كتاب له من التطرق إليها، وهي:

١ - العدالة الاجتماعية

لقد كان «الظلم الاجتماعي» أول ما استلفت نظر الشيخ الغزالي، وشغل قلبه وفكره. فقد نشأ في بيئة رأى فيها آثار هذا الظلم صارخة، حيث الإقطاعيات، وتفاتيش الخاصة الملكية، تتحكم في الفلاحين الكادحين، وتحكم السادة في العبيد. وشاهد الكروش المنتفخة، وهي تسمن وتسمن على لحوم المهزولين المتعبين.

كان الغزالي بقلبه ومشاعره وعقله مع الطبقات الكادحة. إنها أحب الطبقات إلى الله، وأحقها بالحياة الكريمة، وأجدرها بالمستقبل الباسم.. احتفى بها الإسلام، وعمل على توسيع دائرتها، حتى تشمل الناس قاطبة. فلا يبقى فيهم عاطل. وعد الأنبياء عمالاً يأكلون من كسب أيديهم، وجعل شرار الناس أولئك القاعدين من غير عمل، والطاعمين من غير جهد، الناعمين من غير حق، المشتغلين بالثرثرة لتضييع الفراغ.

(١) يوسف القرضاوي، الشيخ الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن، دار الشروق، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٠م، ص ١٩٥ - ١٩٧.

لا عجب أن كان أول ما خط قلم الغزالي عن «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» و«الإسلام والمناهج الاشتراكية» و«الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين»^(١).

فتحت عنوان «حق الإنسان في المال» كتب الشيخ:

«لا يجوز أن يبقى رجل من غير دخل - قليل أو كثير - يكفل له المستوى الواجب لمعيشته، وعلى المجتمع الدين أن ينظم أموره تنظيمًا يؤدي إلى هذه النتيجة المحتومة، وإلا كان مجتمعًا لا دين له، وفي ذلك يقول الرسول: «أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعًا فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى». وقد أفتى ابن حزم وغيره من العلماء بأنه إذا مات رجل جوعًا في بلد عدّ أهله قتلة، وأخذت منهم دية القتل، وقد عدّ القرآن أنه من التكذيب بالدين أن تدعّ اليتيم، وألاً تحضّ على طعام المسكين، فكيف يكون رأي القرآن في بلاد لا تحض على طعام المسكين فقط بل هي تصنع الفقر والمسكنة، وتخرج إلى المجتمع الإنساني ألوف الفقراء والمساكين، فكأن أنظمتها الاقتصادية آلات جبارة تصوغ البؤس في قوالب من أبناء آدم. ثم ترمي بهم على أفاريز الطرق وفي خرائب الأبنية أو بين جدران السجون والملاجئ والمستشفيات! هل نسمي هذا إلا أنه كفر بالدين،

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٥.

وإنكار لنصوصه وقواعده ومبادئه؟ بلى وأصحاب هذه النظم هم أصحاب الميسرة في الدار الآخرة»^(١).

إن الإسلام من هذه الناحية قد قال كلمته، وأعلن دعوته، وأنصف الناس من أنفسهم.

ولعل من أقوى الفقرات التي كتبها في ذلك: ما قدم به كتابه «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» في طبعته الثانية، حين قال: «لم تستذل - في هذا العصر - شعوب كما استذلت شعوب الشرق، ولم يستغل شيء - في هضم حقوقها - كما استغل الدين، لقد أنطقوه حيث يجب عليه أن يسكت، وأخرسوه حيث يجب أن يرسل الصراخ العالي، كما يصرخ الحارس اليقظ إذا رأى جراءة اللصوص الوقحين! وبذلك أصبحت الأمة مُضَيَّعَةً بين استذلال عنيد واستغلال منافق، وأصبح الدين مُسَخَّرًا في ميادين شتى لتسويغ الحيف، والتقليل من خطره. فكان حقًا علينا - كمؤمنين - أن ننصف الدين من الأوضاع التي شانت حقيقته، وكان لزامًا علينا - كمواطنين - أن ننصف الوطن من الأنظمة التي ظلمت أهله، وأكلت ثروته، وكان من أجدر الحقائق بالإفصاح والإيضاح أن يعلم الناس علم اليقين أن الدين في خدمة الشعوب لا في خدمة فرد أو أفراد!»^(٢).

(١) محمد الغزالي، الإسلام والأوضاع الاقتصادية، دار الصحوة، القاهرة، ط ٧، ١٩٨٧م، ص ١٥٦-١٥٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٩.

ثم يختم مقدمة كتابه «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» بهذا النداء الثوري: «يا ضحايا الكبت والفاقة والحرمان، لقد نزل الدين إلى الميدان بجانبكم فضعوا أيديكم في يده. إن الشفاه التي تأمر بإذلالكم يجب أن تقص، والأوضاع التي تغتال حقوقكم يجب أن تقصى! والفراغ الذي خامر أفئدتكم تحت وطأة الاستعباد يجب أن تزاح غمته إلى الأبد»^(١).

ويرى الشيخ ببصيرته النافذة واستشرافه المشرق لمستقبل هذه الأمة أنها «تحتاج قبل أن تفهم الإسلام، وقبل أن ينتظر منها إعزاز الإسلام إلى جهود جبارة لرفع مستواها المادي والأدبي، أي إلى تصحيح إنسانيتها أولاً، أما جهود المصلحين - قبل اتخاذ هذه الخطوة - فهي أمواج من الماء، تتدفق على صحراء من الرمال، وهيهات أن يكون لها ثمر»^(٢).

ذلك أن للرزائل التي يحاربها الدين، والفضائل التي جاء الدين ليحلها محل الرذائل، لهذه وتلك أسباب اقتصادية، لا بد من معالجتها، إذا شئنا إقامة الدين الحق في هذه الحياة.

يقول الشيخ الغزالي: «لقد رأيت - بعد تجارب عدة - أنني لا أستطيع أن أجد بين الطبقات البائسة الجو الملائم لغرس العقائد العظيمة، والأعمال

(١) المرجع السابق، ص ١١.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٣.

الصالحة، والأخلاق الفاضلة! إنه من العسير جداً أن تملأ قلب إنسان بالهدى إذا كانت معدته خالية، أو أن تكسوه بلباس التقوى إذا كان جسده عارياً!.. إنه يجب أن يُؤمَّن على ضروراته التي تقيم أودَّه كإنسان، ثم ينتظر بعدئذ أن تستمسك في نفسه مبادئ الإيمان.. فلا بد من التمهيد الاقتصادي الواسع، والإصلاح العمراني الشامل، إذا كنا مخلصين حقاً في محاربة الرذائل والمعاصي والجرائم باسم الدين، أو راغبين حقاً في هداية الناس لرب العالمين»^(١).

لقد تبنَّى الشيخ وأبرز هذا المنهج الإسلامي الأصيل، الذي يرى أن صلاح أمر الدين مؤسَّس على صلاح أمور الدنيا، وليس العكس، كما يدرك أن استمرار آفات الظلم الاجتماعي هو أمر منخطَّط له، ومستهدَف، ومقصود!.. فالقلة التي تحتكر السلطان السياسي حريصة كي تدوم لها هذه الأثرة على عزل جماهير الأمة عن منازعتها هذا السلطان السياسي، وذلك بإبقائها أسيرة قيود الفقر والعوز التي تشل ما لديها من طاقات وإمكانات»^(٢).

٢- كشف عورات الفساد السياسي

ولم يتوقف جهاد الشيخ على الظلم الاجتماعي، وإنما قاوم قرينه أو توأمه وهو الاستبداد السياسي بكل ما أوتي من قوة، وكانت كتبه وخطبه صرخة مدوية

(١) المرجع السابق، ص ٦١-٦٢.

(٢) محمد عمارة، الشيخ محمد الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية، مرجع سابق، ص ١١٢.

تقض مضاجع المستبدين الذين اتخذوا عباد الله عطية، وشوكة في حلق وعظامهم الفاسدين الذين برروا لهم الظلم والطغيان تحت حماية مكذوبة من دين، لا يقوم في الأصل إلا على المساواة الكاملة والرحمة الشاملة، وقبل ذلك وبعده العدل والإحسان. إنه مناضل شرس في سبيل الحرية وتأصيل مبدأ الشورى، فهو يعدها فريضة لا فضيلة، وملزمة لا مجرد معلمة، بل إنه حمل بشدة على من عدها معلمة لا ملزمة، فقال «فقد رأيت منتسبين إلى الدعوة الإسلامية يصورون الحكم الإسلامي المنشود تصويراً يثير الاشمئزاز كله.. قالوا: إن للحاكم أن يأخذ برأي الكثرة أو رأي القلة، أو يجنح إلى رأي عنده وحده!». أهذه هي الشورى التي قررها الإسلام؟ فما الاستبداد إذن؟^(١).

ومن حفاوة الشيخ بالحرية، ومعرفته بقيمتها في الحياة إذا وجدت، وبأثرها إذا ضاعت، جعل ضياعها وغلبة الاستبداد عليها هو السر وراء تخلفنا^(٢). استمع إليه يقول: «بدأت صناعة الطيران في مصر والهند في سنة واحدة، كما بدأت بحوث الذرة تقريباً في السنة نفسها، وأكب علماء البلدين على القيام بأعمالهم، والاستفادة من التقدم الأوربي في هذا المجال. وبعد ربع قرن نجح الهنود في إنتاج طائرة هندية، كما نجحوا في صنع قنبلة ذرية! أما عندنا فقد توقف مصنع الطيران

(١) محمد الغزالي، هموم داعية، دار القلم، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٧م، ص ١٣٥.

(٢) يوسف القرضاوي، الشيخ الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن، مرجع سابق، ص ٢١٥.

بعد سنوات معدودة، وتجسد العمل في وكالة الطاقة الذرية، وإلى الآن لم نخطُ إلى
الأمم خطوة مقدورة!

ما سبب هذا الفشل؟ هل العقل الهندي أذكى من العقل المصري؟ لم
يقُل ذلك أحد من المعاصرين أو الغابرين!

السبب أن استقرار الحريات في الهند أتاح لكل ذي كفاءة أن يعمل، وأن
ينجح.. وأن النظام الديمقراطي السائد أقام سباقاً لا حواجز فيه بين أصحاب
المواهب، فانطلقوا بين عوامل التقرير والتشجيع يخدمون أمتهم، ويتبارون في
إعلاء شأنها.

والنظام الديمقراطي في الهند (المتخلفة) جعل الحكومة المستولية على
السلطة تجري الانتخابات، فتسقط فيها، وتأتي بالسيدة المعارضة أنديرا غاندي
لتحكم، وكذلك يتكرر الأمر مع السيدة نفسها فتضع مقاليد الحكم في أيدي
أخرى؛ لأن الأمة رأت ذلك. إن امرأة تحكم - ومعها جهاز شوري دقيق - أقرب
إلى الله، وأحنى على الناس، من مستبد يقف الغراب على شواربه، ويزعم أنه
أحاط بكل شيء علماً، وهو لا يدري شيئاً^(١).

(١) محمد الغزالي، علل وأدوية، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٤م، ص ١٧٨.

إن الإسلام يشن على الاستبداد حرباً لا هوادة فيها، وهي حرب متصلة الحلقات من خلال القرآن والسنة، وإذا كان علماء السلطة قد لعبوا دوراً كريهاً في التعمية عليها، فواجب المصلحين أن يعيدوا الاعتبار لهذه الموارث الثرة، وينفضوا التراب عن معدنها الثمين؛ لتثبيت ما أمر الله به من دعائم العدل والمرحمة.

«إني لا أعرف ديناً صب على المستبدين سوط عذاب، وأسقط اعتبارهم، وأغرى الجماهير بمناواتهم، والانتفاض عليهم كالإسلام. ولا أعرف مُصلِحاً أدب رؤساء الدول، وكبح جماحهم وقمع وساوس الكبرياء والاشتهاء في نفوسهم، كما فعل ذلك نبي الإسلام ﷺ. لقد كسر القيود وحرر العبيد. ووضع التعاليم التي تجعل الحاكم يتحرى العدل والمحكوم يكره الضيم»^(١).

ولا يكتفي الشيخ الغزالي بالمواجهة والتنديد وإنما يرسم للناس خريطة الكفاح لمناهضة الاستبداد والقهر والخوف، وذلك من خلال التلاحم والتناصر في وجه الظلم والظالمين، «وذلك من أقوى الدعائم التي وطد الإسلام بها الحريات، وأقر العدالة وحسم لوثات المستبدين. إن الغاشم ربما لا تردعه العقوبة المرجأة في الآخرة. وربما لا تصده الزواجر والحدود التي يقيمها القانون. ولكنه ينقمع ويتردد إذا أدرك أن ضحيته عزيزة المنال. وأنه دون الافتيات عليها قد يهلك هو نفسه.

(١) محمد الغزالي، الإسلام والاستبداد السياسي، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ط ٣، ١٩٨٤م، ص ٦٤.

أو تهلك رجال ورجال . ومن ثم شرع الإسلام مبدأ التناصر بين بنيه . فإذا رأيت رجلاً وقع في حرج وأوشك أن يهوي أو يصاب فحق عليك أن تهرع لنجده . وأن تسارع لمعونته وأن تشعره بأنه لن يكافح جور المعتدين وحده؛ بل إنك إلى جانبه تشاطره الحلو والمر حتى ينتصف لنفسه، ويخرج من ورطته، موفور المال والعرض والدم والكرامة والإباء . تلك هي سنة الإسلام .. لا يجوز أبداً أن يبقى المظلوم فريداً يلتفت إلى الأعوان فلا يلقي صريخاً^(١) .

ففي ظل الاستبداد لا ينخف صوت الحق والعدل فحسب؛ وإنما يتقلص المعنى الحقيقي للإيمان نفسه، ليقصر على التدين الشكلي الفارغ من المضمون، ويتم التركيز التدريجي على المظهر الطقوسي للعبادات والفضائل الفردية الخاوية من الروح على أنها هي الدين كله، ويزداد التعلق بالغيبيات، ويتضخم الحديث عن النبوءات من خلال النصوص التي تحدثت عما يكون من فتن وأحداث؛ فراراً من الحديث عما كان وعما هو كائن من فساد وانحراف .

وهكذا يتحول أئمة الضلال ومحترفو التزوير الديني إلى قادة لمرحلة الضياع الفكري، مستخدمين علمهم المنحرف في تبرير الأوضاع، وخلط الحقائق؛ فيقع الناس في حيرة لا آخر لها، وتضيع الأمة بين عملة الأفزام وتفزيم العمالقة .

(١) المرجع السابق، ص ١٥١ .

ويرى الشيخ أن الدين ما جاء إلا للمقاومة الظلم وليس كما يروج له أولئك الأفاكون ويستخدمونه مخدراً للجماهير؛ حتى ترضى بالضميم، فليس عمل الدين بين الناس أن يصبر المظلوم على ما نزل به فهذه جريمة، بل يقول الإسلام للرجل المغصوب في ماله أو المنكوب في عرضه «من قُتِلَ دون ماله فهو شهيد، ومن قُتِلَ دون عرضه فهو شهيد»... لا تستسلم إن الدين في خدمتك يضع السلاح في يمينك، ويضع الأمل في قلبك، ويضع الإصرار في إرادتك، ويكلفك أن تستमित دون حَقِّك. إن الله لم يبعث أنبياءه ليستريح باسمهم نفر قلائل من حثالة الناس. إنما بعثوا ليستريح البشر كافة.

٣- نقد الذات الإسلامية

في نقد الذات الإسلامية التي تشوهت بالتخلف الموروث من جهة وبالاستلاب التغريبي من جهة أخرى، قدم الشيخ الغزالي العديد من الكتب التي سعت لتجديد هذه الذات، وبث النشاط في عروقها اليابسة، وذلك بمدها بالغذاء الإسلامي الصالح والصحيح؛ فيتجدد العقل وتصفو رؤيته، وينشط القلب وترق مشاعره، وصولاً إلى إقامة علاقة التكامل المأمولة بين عقل ذكي وقلب نقي.

وهذا الميدان هو أغنى ميادين المشروع الفكري للشيخ الغزالي بالكتب والدراسات، منها: «خلق المسلم»، و«عقيدة المسلم»، و«جدد حياتك»، و«في

موكب الدعوة»، و«التعصب والتسامح»، و«ليس من الإسلام»، و«فقه السيرة»، و«هذا ديننا»، و«من معالم الحق»، و«نظرات في القرآن»، و«كيف نفهم الإسلام؟»، و«مع الله.. دراسات في الدعوة والدعاة»، و«معركة المصحف»، و«كفاح دين»، و«الإسلام والطاقت المعطلة»، و«سر تأخر العرب والمسلمين»، و«الجانب العاطفي من الإسلام»، و«هموم داعية»، و«علل وأدوية»، وغيرها الكثير من الكتب التي استهدفت تزكية النفس الإسلامية، حتى تقوى على الوقوف صامدة شامخة في مواجهة التحديات^(١).

٤- مواجهة الجمود الفكري

لقد ختم الشيخ الغزالي حياته الفكرية الحافلة والثرية بمواجهة الجمود الفكري، الذي يمثله التيار النصوصي الذي يضع «العقل» في تضاد مع «النقل» عندما يعجز عن قراءة النص في سياقه التاريخي؛ مما يفيل عزم المسلمين في مواجهة التحديات المعاصرة، ويكرس للتخلف الموروث، والأبائية البغيضة التي تخالف في كثير من الأحيان كتاب الإسلام نفسه، وقد بدت هذه المواجهة جلية في كُتبه: «دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين»، و«تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل»، و«قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة»، و«علل وأدوية»، و«مستقبل الإسلام خارج أرضه»، و«الطريق من هنا»، و«الغزو الثقافي يمتد في

(١) محمد عمارة، الشيخ محمد الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية، مرجع سابق، ص ٤٤.

فراغنا»، و«الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر»، و«هموم داعية»، و«مشكلات في طريق الحياة الإسلامية»، و«الحق المر»... وإن بدت المواجهة أكثر عمقاً ووضوحاً في كتابه «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث»، وهو موضوع هذه المقدمة.

إنه كما يرى د. محمد عمارة وبحق مشروع فكري يستجيب به - استجابة إيجابية وفاعلة - للتحديات التي تواجه محاولات الأمة للنهوض والتقدم والانعقاد، وليس مجرد إسهام فكري تتناثر كتبه دون موقف واع ورؤية شاملة^(١).

ولا يخفى على أولي النهى ارتباط هذا المشروع بالواقع المعيش وتحديات اللحظة، إن الجمود الذي اعترى الفكر الإسلامي في السنوات الأخيرة قد ساهم مساهمة فعالة وحقيقية في تكريس الدكتاتورية والاستبداد، وعمل على إعداد المسلمين دينياً لقبول الظلم والاستبداد.. فالحاكم المسلم عند القراءات الحرفية المنغلقة - وهي للأسف المسيطرة على الواقع الإسلامي الآن - طاعته واجبة حتى لو ظلم الناس، ويظل الخروج عليه محرماً ما دام ينطق بالشهادتين ويؤدي الفرائض، وحتى لو أعلن الحاكم كفره على الملأ (وهذا افتراض خيالي) فإن الخروج عليه عندهم مرتبط بالقدرة على تغييره، وإلا فإن طاعته تظل واجبة حتى يغيره الله (!).. وهكذا ينزع الفكر النصوصي الحرفي عن الناس حقوقهم

(١) المرجع السابق، ص ٤٥.

السياسية تماماً، فيجعلهم قابلين للاستبداد، وأكثر استعداداً لقبول الظلم، مستندين إلى حديث أحاد رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن حذيفة ابن اليمان أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «يَكُونُ بَعْدِي أُمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ، وَلَا يَسْتَنُونَ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ، قَالَ حذيفة: قُلْتُ: كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟، قَالَ: تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرُكَ، وَأَخَذَ مَالَكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»^(١) إن هذه الرواية ومثلها كثير لا تكرر للظلم والاستبداد فحسب؛ بل تعطي مسوغاً شرعياً لسلخانات التعذيب، وهنيئاً للزبانية.

وبعد أن أفتى محمد عبده بأن الإسلام لا يحرم صناعة التماثيل وإنما يحرم عبادة الأصنام؛ انطلق الفن التشكيلي في مصر، وأنشئت كلية الفنون الجميلة عام ١٩٠٨، بل إن آلاف المصريين اكتتبوا من حر مالهم ليدفعوا تكلفة تمثال نهضة مصر الذي أبدعه النحات العظيم محمود مختار، وكشف الستار عن التمثال في احتفال كبير عام ١٩٢٨، ولم يدُر بأذهان المحتفلين أبداً أنهم يرتكبون حراماً، انتشر الفكر السندي- الذي يقدر السند في الحكم على صحة الحديث دون أدنى اعتبار لفحص المتن- لينادي بتحريم التماثيل، حتى اكتشفنا في العام الماضي أن قسم النحت في كلية الفنون الجميلة بالقاهرة قد التحق به طالب واحد فقط!.

(١) رواه البخاري (٧٠٨٤) ومسلم (١٨٤٧) باب (يصبر على أذاهم وتؤدى حقوقهم).

كما عاد بنا الفكر السندي إلى الوراثة فيما يخص المرأة، فبعد أن تحررت من قيود الحريم، واكتسبت حقها في التعليم والعمل؛ جاء هذا الفكر لينادي بعزلها عن المجتمع خلف النقاب باعتبارها مصدرًا للغواية، وأداة للمتعة، ومصنعةً لإنجاب الأطفال، وخادمة لزوجها، وهو يفترض أصلاً أن المرأة ضعيفة السيطرة على إرادتها وشهواتها، كل ذلك على الرغم من عدم وجود دليل واحد يعتد به على وجود النقاب في الإسلام لا سنة ولا فضيلة، لا لامرأة قبيحة ولا لامرأة جميلة.

إن تزلزلت الفكر السندي المنتشر الآن وخروجه جهلاً عن صحيح الإسلام أمسى حقيقة لا نخال أنها تحتاج إلى تأكيد، يكفي أن نعود إلى الفتاوى الشهيرة التي تؤكد تحريم قيادة المرأة للسيارة، وتحريم إهداء الورود إلى المرضى، وتحريم التصفيق، وتحريم جلوس المرأة على الإنترنت بدون محرم، وغيرها، بل إن إحدى الفتاوى الشهيرة للمرحوم ابن باز (عام ١٩٧٦) كانت تؤكد أن الأرض ليست كروية كما يزعم علماء الغرب؛ وإنما هي منبسطة ومسطحة! والمحزن أنه بدلاً من أن تنتشر القراءة الصحيحة المنفتحة للإسلام؛ فتساعد على تطوير الفكر الإسلامي فقد حدث العكس تماماً، وانتشر الفكر السندي المغلق ليصيب بلاد المسلمين برودة حضارية حقيقية، وما فتوى إرضاع الكبير، والتبرك بشرب بول الرسول، وغيرها من الترهات منا ببعيد، والشواهد هنا يضيق بها المجال، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق، إنها عملية تزييف كاملة للثقافة الإسلامية

تحتاج إلى مئات بل ألوف مثل محمد الغزالي، حتى يعيدوا إليها ألقها المتلائي
وخلصتها المصفاة، ولعل في ذلك بلاغاً لأولي الألباب.

قائمة ببليوجرافية بمؤلفات الشيخ الغزالي مرتبة وفق تاريخ صدورها

١ - الإسلام والأوضاع الاقتصادية

يقع في ٢١٤ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الصحوة، القاهرة، الطبعة السابعة، ١٩٨٨م، وهو أول مؤلفات الشيخ.

٢ - الإسلام والمناهج الاشتراكية

يقع في ٢٢٢ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٩٧م.

٣ - الإسلام والاستبداد السياسي

يقع في ٢٢٨ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ط ٣، ١٩٨٤م.

٤ - الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين

يقع في ٢٠٠ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار نهضة مصر، القاهرة، ط ١، ١٩٩٧م.

٥ - من هنا نعلم

يقع في ١٩٨ صفحة من القطع المتوسط، طبعة دار نهضة مصر، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٧م.

٦- تأملات في الدين والحياة

يقع في ٢٢٠ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ط ٤، ١٩٨٣ م.

٧- خلق المسلم

يقع في ٢٤٤ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الدعوة، القاهرة، ط ٣، ١٩٩٠ م.

٨- عقيدة المسلم

يقع في ٢٤٤ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ط ٤، ١٩٨٤ م.

٩- التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام

يقع في ٣٦٨ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الكتب الإسلامية، القاهرة، د.ت.

١٠- فقه السيرة

يقع في ٥٠٠ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ط ٨، ١٩٨٢ م.

١١- في موكب الدعوة

يقع في ٢٥٦ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار نهضة مصر، القاهرة، ط ١، ١٩٩٧م.

١٢- ظلام من الغرب

يقع في ٣٢٨ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الاعتصام، القاهرة، د.ت.

١٣- جدد حياتك

يقع في ٢٣٦ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الدعوة، القاهرة، ط ١، ١٩٨٩م.

١٤- ليس من الإسلام

يقع في ٢٦٤ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٦، ١٩٩١م.

١٥- من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث

يقع في ٢٠٠ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الاعتصام، القاهرة، د.ت.

١٦ - كيف نفهم الإسلام؟

يقع في ٢٢٠ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الدعوة، القاهرة، ط ١، ١٩٩١م.

١٧- الاستعمار أحقاد وأطماع

يقع في ٢٧٢ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ط ٣، ١٩٨٣م.

١٨- نظرات في القرآن

يقع في ٢٥٤ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ط ٦، ١٩٨٦م.

١٩- مع الله دراسات في الدعوة والدعاة

يقع في ٤٥٦ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ط ٦، ١٩٨٥م.

٢٠- معركة المصحف في العالم الإسلامي

يقع في ٤٢٦ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٩٧م.

٢١- كفاح دين

يقع في ٣٤٤ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ط ٤، ١٩٨٢م.

٢٢- الإسلام والطاقات المعطلة

يقع في ٢١٦ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ط ٤، ١٩٨٣م.

٢٣- حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة

يقع في ٢٥٦ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ط ٣، ١٩٨٤م.

٢٤- هذا ديننا

يقع في ٢٣٧ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ط ٣، ١٩٧٥م.

٢٥- الخديعة: حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي

يقع في ٢٧٢ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ط ٣، ١٩٧٧م.

٢٦- الجانب العاطفي في الإسلام.. بحث في الخلق والسلوك والتصوف

يقع في ٣٠٤ صفحات من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الدعوة، القاهرة، ط ١، ١٩٩٠م.

٢٧- دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين
يقع في ٢٦٤ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الكتب الإسلامية، القاهرة،
ط ٥، ١٩٨٨م.

٢٨- ركائز الإيمان بين العقل والقلب
يقع في ٢٨٨ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الاعتصام، القاهرة،
١٩٧٣م.

٢٩- حصاد الغرور
يقع في ٢١٦ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٤،
١٩٨٧م.

٣٠- الإسلام في وجه الزحف الأحمر
يقع في ٢٠٨ صفحات من القطع المتوسط، وفق طبعة مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٩،
١٩٩٠م.

٣١- قذائف الحق
يقع في ٢٢٩ صفحة من القطع المتوسط، وفق منشورات المكتبة العصرية، بيروت،
د.د.

٣٢- الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر
يقع في ٢١٢ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٣،
١٩٩٠ م.

٣٣- فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء
يقع في ١٦٠ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الاعتصام، القاهرة، د.ت.

٣٤- دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين
يقع في ٢٢٨ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الوفاء، القاهرة، ط ٢،
١٩٨٩ م.

٣٥- واقع العالم الإسلامي في مطلع القرن الخامس عشر
يقع في ٨٠ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار ثابت، القاهرة، ١٩٨٤ م.

٣٦- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية
يقع في ١٦٠ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار البشير، القاهرة، د.ت.

٣٧- هموم داعية
يقع في ١٦٧ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار القلم، القاهرة، ط ٢،
١٩٨٧ م.

٣٨- مائة سؤال عن الإسلام

يقع في ٥٥٥ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار ثابت، القاهرة، ط ٤،
١٩٨٩م.

٣٩- علل وأدوية

يقع في ٢٨٠ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الكتب الإسلامية، القاهرة،
ط ٢، ١٩٨٤م.

٤٠- مستقبل الإسلام خارج أرضه

يقع في ٢٠٧ صفحات من القطع الصغير، وفق طبعة دار الصحوة، القاهرة، ط ٢،
١٩٨٦م.

٤١- قصة حياة

مخطوطة بخط اليد، تتحدث عن حياة الشيخ محمد الغزالي، ومحطات حياته.

٤٢- سر تأخر العرب والمسلمين

يقع في ١٣٤ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الصحوة، القاهرة، ط ١،
١٩٨٥م.

٤٣- الطريق من هنا

يقع في ١٥٩ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الشروق، القاهرة، ط ٣،
١٩٩٢ م.

٤٤- جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج

يقع في ١٩٧ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الصحوة، القاهرة، د.ت.

٤٥- الحق المر

صدرت للمؤلف بهذا العنوان خمسة أجزاء عن دور نشر مختلفة وبطبعات
عديدة.

٤٦- الغزو الثقافي يمتد في فراغنا

يقع في ٢٢٤ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة مؤسسة الشرق، عمان، ط ٢،
١٩٨٥ م.

٤٧- المحاور الخمسة للقرآن الكريم

يقع في ٢٤٨ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الوفاء، القاهرة، ط ٣،
١٩٩٢ م.

٤٨- السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث

يقع في ٢٠٥ صفحات من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الشروق، القاهرة، ط ٦،
١٩٩٦ م.

٤٩- قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة

يقع في ٢٢٤ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الشروق، القاهرة، ط ٤،
١٩٩٢م.

٥٠- تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل

يقع في ٢٠٤ صفحات من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الشروق، القاهرة، ط ٣،
١٩٩٢م.

٥١- كيف نتعامل مع القرآن؟

يقع في ٢٤٠ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الوفاء، القاهرة، ط ٣،
١٩٩٢م.

٥٢- صيحة تحذير من دعاة التنصير

يقع في ١٦٠ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الصحوة، القاهرة، ط ١،
١٩٩١م.

٥٣- نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم

يقع في ٥٥٩ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار الشروق، القاهرة، ط ٣،
١٩٩٧م.

٥٤- كنوز من السنة

يقع في ٢٠١ صفحة من القطع المتوسط، وفق طبعة دار نهضة مصر، القاهرة،
ط ١، ١٩٩٧م.

السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ
بَيْنَ
أَهْلِ الْفَقْرِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ

تأليف

محمد الغزالي

طُبِعَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ عَامَ (١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م)

تمهيد

بيني وبين معهد الفكر الإسلامي بالولايات المتحدة صلة حميمة، وكثيراً ما أشارك في ملتقياته وبحوثه، والمعهد يقوم برسالة حضارية جليلة. فهو يصل ما انقطع من تيار الفكر الإسلامي بعد تنقية المنبع وضبط المسار، وهو ينظر إلى المعرفة الإنسانية المعاصرة نظرة إنصاف، فما كان منها نتاج فطرة سليمة قبله؛ لأن الإسلام دين الفطرة! ويستحيل أن يتنكر لصفته الأولى، وما كان وليد هوى وحجاج رفضه ولا كرامة! فليس لجديد وزن إذا خالف العقل والنقل.

وقد كلفتني أسرة المعهد أن أضع كتاباً أنصف به السنة النبوية، وأذود عنها جراءة القاصرين وذوي العقول الكليلة! والحق أنني رحبت بهذا التكليف، بل لعله وافق رغبة في نفسي. ومن ثم سارعت إلى التنفيذ.

ومع عمق الصداقة التي تشدني إلى الدكتور عبد الحميد أبي سليمان والدكتور طه جابر العلواني^(١) والقراية العقلية التي تجمعنا، فقد رأيت أن أتحمل وحدي مسؤولية الأحكام التي قررتها، وأن أواجه ما قد يثور من اعتراضات!

(١) رؤساء المعهد.

لذلك أعطيت دار الشروق الطَّبَعَةَ الأولى من هذا الكتاب. راجياً أن
أحمي ديننا الحنيف من الأصدقاء الجهلة، وأن يستبين الناس سعة الرحمة التي
بعث الله بها صاحب الرسالة الخاتمة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً
لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء / ١٠٧].

محمد الغزالي

مقدمة الطبعة السادسة



فوجئت بصدور خمس طبعات في خمسة شهور من هذا الكتاب، مما دل على ظمأ القارئ المسلم إلى العلم النافع والدراسة النزيهة.

وانتفتت مع الناشر على أن تصدر الطبعة الجديدة وبها زيادات ذات بال، انتفعت فيها من تصويبات أهل الذكر الذين حاورتهم أو كتبوا إليّ أو سمعت صوتهم من بعد.

وقد شتمني بعض الناس فوجدت الإعراض أولى! ومَنْ من الأنبياء لم يُشتم؟ فليتأس أتباعهم بهم في الصبر والتجاوز.

قالوا: الإله ذو ولد قالوا: الرسولُ قد كَهَنَّا

ما نَجَّ اللهُ والرَّسُولُ مَعًا من لسانِ الوري، فكيف أنا؟

لكن الشتم الذي أوجعني اتَّهام البعض لي: بأني أخاصمُ السَّنةَ النبويةَ. وأنا أعلنُ أنَّ اللهَ ورسولَهُ أحبُّ إليَّ مما سواهما، وأنَّ إخلاصي للإسلام يتجددُ ولا يتبددُ، وأنه أولى بأولئك المتحدثين أن يلزموا الفقه والأدب.

فغايتي تنقية السنة مما قد يشوبها، وغايتي كذلك حماية الثقافة الإسلامية من ناس قيل فيهم: إنهم يطلبون العلم يوم السبت، ويُدرِّسونه يوم الأحد، ويعملون أساتذة له يوم الاثنين. أما يوم الثلاثاء فيطاولون الأئمة الكبار ويقولون: نحن رجال وهم رجال.

وهكذا بين عَشِيَّةٍ وضحاها يقع زمام المسلمين الثقافي بين أذعياء ينظر إليهم أولو الألباب باستنكار ودهشة.

وإذا كان هؤلاء لم يُرزقوا شيوخاً يُربُّونهم، أو أساتذة يثقونهم فسوف تُربِّبهم الأيام والليالي، وما أحفلها بالعجائب!

وقد رأيت أن أدخل الإضافات الجديدة في مادة الكتاب نفسه، مشيراً في الهامش إلى أنها ردود على شبهات، أو إجابة على تساؤلات.

وأؤكد أنني مع جمهرة الفقهاء والمتحدثين عن الإسلام، ولست صاحب مذهب شاذ، بل إنني من صميم الجماعة ومن حماة أهدافها، وأولو العلم يعرفون ما أعني.

والخطورة تجيء من أنصاف متعلمين أو أنصاف متدينين يعلو الآن نقيقتهم^(١) في الليل المُخيم على العالم الإسلامي، ويعتمد أعداء الإسلام - في أوروبا وأمريكا - على ضحالة فكرهم في إخماد صحوة جديدة لديننا المكافح المتخن بالجراح^(٢).

(١) نقيقتهم: صوتهم. (هذا الهامش يشير إلى إضافة مراجعي مكتبة الإسكندرية للنص الأصلي للكتاب، وسوف يُستعمل الرمز (م) لاحقاً للإشارة إلى ذلك).

(٢) المتخن بالجراح: الكثير الجراح. (م).

إِنَّ الحضارة التي تحكم العالم مشحونة بالأخطاء والخطايا، بيد أنها ستبقى حاكمة ما دام لا يوجد بديل أفضل.

هل البديل الأفضل جلباب قصير ولحية كثة^(١)؟ أم عقل أذكى وقلب أنقى، وخلق أذكى وفطرة أسلم وسيرة أحكم؟

لقد نجح بعض الفتيان في قلب شجرة التعاليم الإسلامية، فجعلوا الفروع الخفيفة جذوعاً أو جذوراً، وجعلوا الأصول المهمة أوراقاً تتساقط مع الرياح.

وشرف الإسلام أنه يبني النفس على قاعدة ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس/ ٩- ١٠]، وأنه يربط الاستخلاف في الأرض بمبدأ ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج/ ٤١].

وأنا أتوجه إلى أمراء الجماعات الدينية الأكارم، وإلى الأوصياء الكبار على تراث السلف أن يراجعوا أنفسهم كي يهتموا بأمرين:

أولهما: زيادة التدبر لآيات القرآن الكريم.

وآخرهما: توثيق الروابط بين الأحاديث الشريفة ودلالات القرآن القريبة والبعيدة، فلن تقوم دراسة إسلامية مكتملة ومجدية إلا بالأميرين معاً.

(١) كثة: كثيفة. (م).

إِنَّ الصَّلْفَ^(١) مع العلم رذيلة، فكيف إذا كان الصلفُ مع عجز وقصور؟
وهذا الكتاب حصيلة تجارب كثيرة في ميدان الدعوة أردت به ترشيد الصحوة،
وشدَّ أزر العاملين المخلصين.

إِنْ أُريدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ ما استطعت، وما توفيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ
أُنِيبُ.

محمد الغزالي

(١) الصَّلْفُ: الادعاء ما فوق القدر إعجاباً وتكبراً. (م).

مقدمة الكتاب



قلبي مع شباب الصحوة الإسلامية الذين عملوا الكثير للإسلام، وينتظر منهم أن يعملوا الأكثر.

إنهم اشتبكوا مع الروس في أفغانستان فطلعوا عليهم بالردي، واضطروهم إلى الفرار. ولا يزالون مشتبكين مع فلول المرتدين والخنونة، والمعركة لا يؤذن ليؤها بصبح قريب، والمعاناة مستمرة.

وقد اشتبكوا من قبل مع الفرنسيين في الجزائر، وكانت تضحياتهم سيلاً مواراً^(١) بالدماء والأشلاء، حتى تأذن الله بالفرج، وانكسرت القيود، وعادت صيحات التكبير تنبعث من المساجد التي غلقت ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ، وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة / ١١٤].

(١) مواراً: مضطرباً مانجاً. (م).

وعندما كانت معركة فلسطين إسلامية القيادة والوجهة تضاعفت خسائر اليهود، واصطدمت أمانيتهم بأسوار من حديد. ولو ظلت المعركة على طبيعتها فترة أخرى لَوَلَّى اليهودُ الأدبارَ، وَرَجَعُوا من حيث جاءوا إلى شرق أوروبا أو غربها.

لكن المؤامرات العالمية سحبت الإسلام من المعركة وجعلت العرب يقاتلون بلا دينٍ فقامت إسرائيل، ونفخ أَوْدَاجَهَا^(١) الغرورُ.

ثُمَّ عاد الإسلامُ كَرَّةً أُخْرَى إلى الساحة فإذا انتفاضة جديدة تُشعل نار المقاومة. وتذكَّرُ العدوُّ والصدِّيقُ بأن الإسلام وحده هو النجاة.

إِنَّ قلبي ولُبِّي مع الصَّحوة الإسلامية التي تحاك لها المؤامرات العالمية، ويتعرض أبطالها إلى ظلم بعد ظلم وألم بعد ألم.

أريد أن أقول للشباب المكافح: إن تحرير الأرض من محتليها الأجانب هدف عظيم إلا أنه بعض ما نعمل له.

إِنَّ السَّيِّخَ في القارة الهندية يسعون لإقامة دولةٍ للسَّيِّخِ. فما دولة السَّيِّخِ؟ وما وزنها الإنساني في الأولين والآخرين؟ لا شيء.

(١) أَوْدَاجَهَا: مفردتها «وَدَج»، وهو عرق في العنق. (م).

إن دولة للعرب قد تقوم هنا أو هناك بعيدة عن الدين، فما قيمة ذلك وأثره؟ إننا طلائع الإسلام الذي يريد إعلاء الوحي الإلهي، وإنصاف الفطرة الإنسانية، وترشيد الحضارة كي ترتبط بربها وتسير على هداها.

إن تراثنا الذي قاد العالم دهرًا يجب أن ينهض من كبوته^(١)، ويستأنف رسالته، ويغسل الأرض من أدرانها^(٢).

لذلك أنظر باهتمام شديد إلى الجو الفكري الذي يسود ميدان الصحوة، وأتابع بقلق مده وجزره وخيره وشره، وخطأه وصوابه، معتقدًا أنه بقدر ما يقترب من الحق تسانده بركات السماء وخيرات الأرض.

وقد تدارست مع أولي الألباب هذا الجو الفكري السائد. واتفقت كلمتنا على ضرورة التعامل معه برفق، واقتياده إلى الطريق المستقيم بأناة.

لاحظنا أن الحقائق الرئيسية في المنهاج الإسلامي لا تحتل المساحة العقلية المقررة لها، وهذه الحقائق افتقدنا الكثير منها في مسيرتنا التاريخية لاسيما في القرون الأخيرة.

(١) كبوته: الكبوة: السقوط. (م).

(٢) أدران: أوساخ. (م).

فلو كانت أنظمة الحكم أهدى، وعناصر الحرية والعدالة أقوى، ما كنا نسقط في برائن الاستعمار^(١) الذي اجتاحتنا وكاد يحو وجودنا ورسالتنا.

ما قيمة نهضة لا تعرف أسباب هزائمها السابقة؟

إن السلطات المستبدّة قديماً وحديثاً تسرّها الخلافات العلمية التي لا تمسّها. هل الشك ينقض الموضوع أم لا؟ هل رؤية الله في الآخرة ممكنة أم ممتنعة؟ هل قراءة الإمام تكفي عن المصلين أم لا تكفي؟

إن حكام الجور يتمنون لو غرق الجمهور في هذه القضايا فلم يخرج، لكنه يشعر بضر بالغ عندما يقال: هل الدولة لخدمة فرد أم مبدأ؟ لماذا يكون المال دولة^(٢) بين بعض الناس؟ هل يعيش الناس - كما ولدوا - أحراراً أم تستعبدهم سياط الفراعنة حيناً ولقمة الخبز حيناً؟

إن البدوي الذي خاطب الفرس أيام الفتح الأول قال لهم: جئنا لنُخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد.

كان هذا البدوي بفطرته الصادقة يعلم ما هي الحقائق الكبرى في المنهاج الإسلامي فيفتح البصائر عليها.

(١) برائن الاستعمار: شراسته، أضراره. (م).

(٢) دولة: متداولاً. (م).

وقد أوجع فؤادي أَنَّ بعضَ الشبابِ كان يهتمُّ بهذه المسألة: هل لمسُ المرأةِ ينقضُ الوضوءَ أم لا؟

وكان اهتمامه أحدَّ وأشدَّ من إجراء انتخاباتٍ حرة أو مُزوَّرة.

إنَّ عدمَ سيطرةِ الحقائقِ الكبيرة على الوعي الإنساني لا يمكن التغاضي عنه.

وشيء آخر نريد الحديث عنه، ما هو المنطقُ الذي عوملت به القضايا الثانوية بعدما استحوذت على الأفكار؟

لقد شاعت الأقوالُ الضعيفةُ والمذاهبُ العسرةُ، ورجحت الآراءُ التي كانت مرجوحةً أيامَ الازدهارِ الثقافي الأول، حتى وهَلَ^(١) الناسُ أنَّ الإسلامَ إذا حكم عاد إلى الدنيا التَّزَّمت والجمودُ.

قال لي أحد الناس: ماذا كنت تفعل في «أسيوط» عندما تفاجأ بفرقة من المغنِّين تريد إحياء ليلة خليعة؟

قلت: سأذهب إلى قائد الفرقة وأقول له: نحن نريد سماع كلمات وألحانٍ مُعَيَّنة، فهل تُلبُّون رغباتنا؟ فإذا قال: ما تريدون؟ طلبت منه أغنية:

أخي جاوزَ الظالمونَ المدى
فحقَّ الجهادُ وحقَّ الفدا

(١) وهَلَ: فزع. (م).

أو أغنية: يا ظالم لك يوم...!!

أَمَّا أَنْ تَغْنِي لَنَا «لِيلَ خَمْرٍ..» فَسَوْفَ نَغْلِقُ فَمِكَ أَوْ نَحْشُوهُ بِالتَّرَابِ.

إِنَّ إِخْوَانَنَا يُقَتِّلُونَ فِي مِيَادِينٍ كَثِيرَةٍ، وَلَا نَرْحُبُ بِالسُّكْرِ وَالنَّشْوَةِ وَمِصَارِعِ
المجاهدين تتنامى حولنا.

إننا نكره الفنون الرقيقة ونطارذ الماجنين^(١) الذين يشيعون بين الناس
الخنوثة^(٢) والضعف.

ماذا لو شرحنا موقف الإسلام بهذا الأسلوب؟

إنّ ممثلين يعيشون في الأوحال صنعوا لأنفسهم بطولة على أساس أن
الإسلام يحارب الفنّ.

نحن الذين مكنا المهازيل من الدّعوى العريضة، وهم بفنونهم الرخيصة
لا يساؤون شيئاً.

وزاد الطين بلة أنّ قيل للشباب الساذج: نحن لا نريد أقوال الرجال، ولا
مذاهب الأئمة. نريد الاعتراف مباشرة من الكتاب والسنة.

(١) الماجنين: مفردهما «الماجن» وهو الذي قلّ حياؤه ولا يبالي ما صنع وما قيل له. (م).

(٢) الخنوثة: تكسّر وتثنّى ولين الذكور كفعل الإناث. (م).

وأنا أكره التعصب المذهبي وأراه قصور فقه، وقد يكون سوء خلق، لكن التقليد المذهبي أقل ضرراً من الاجتهاد الصبياني في فهم الأدلة. وبديهي أن تنشأ مشكلات ثقافية واجتماعية من هذا النهج، وأن تسمعَ حديثاً يقول: مالك لا يعرف حديث الاستفتاح، ولا سنة الاستعاذة، ولا يدرك خطورة البسملة، وهو يخرج من الصلاة دون أن يتم التسليمتين، فهو جاهل بالسنة النبوية.

وحدثاً آخر يقول: أبو حنيفة لا يرفع يديه قبل الركوع ولا بعده، ويوصي أتباعه ألا يقرؤوا حرفاً من القرآن وراء الإمام، وربما صلى بعد لمس المرأة، فهو يصلي بلا وضوء.

إنه هو الآخر جاهل بالإسلام.

وينظر المسلمون إلى مسالك هؤلاء الفتية فينكرونها ويلعنونها.

وقد كان علماء الأزهر القدامى أقدر الناس على علاج هذه الفتن، فهم يدرسون الإسلام دراسة تستوعب فكر السلف والخلف والأئمة الأربعة كما يدرسون ألوان التفسير والحديث وما تتضمن من أقوال وآراء.

لكن الأزهر من ثلاثين عاماً أو تزيد ينحدر من الناحية العلمية والتوجيهية. ولذلك خلا الطريق لكل ناعق^(١)، وشرع أنصاف وأعشار المتعلمين يتصدرون القافلة، ويشيرون الفتن بدل إطفائها.

(١) ناعق: متحدث. (م).

وانتشر الفقه البدوي، والتصور الطفولي للعقائد والشرائع.

وقد حاولت في كتابي «دستور الوحدة الثقافية» أن أقف هذا الانحدار، بيد أن الأمر يحتاج إلى جهود متضافرة وسياسة علمية محكمة.

وفي هذا الكتاب جرعة قد تكون مرةً للفتيان الذين يتناولون كتب الأحاديث النبوية ثم يحسبون أنهم أحاطوا بالإسلام علمًا بعد قراءة عابرة أو عميقة.

ولعلّ فيه درسًا لشيوخ يحاربون الفقه المذهبيّ لحساب سلفية مزعومة عرفت من الإسلام قُشورَه ونَسِيَتْ جذورَه؟

وأؤكد أولاً وأخراً أنني مع القافلة الكبرى للإسلام، هذه القافلة التي يحدوها الخلفاء الراشدون والأئمة المتبوعون والعلماء الموثقون، خلفاً بعد سلف، ولاحقاً يدعو لسابق.. يدعو الله بصدق قائلاً: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر / ١٠].

محمد الغزالي

نماذج للرأي . . والرواية

- صحة الحديث وشروطه - هل يُعذَّب الميت ببكاء أهله عليه؟ -
- دائرة القصاص - تحية المسجد - حديث دنا الجبار قَدَلَى -
- تحقيق لعائشة - فتوى رعناء - موسى وملك الموت -
- مُهَمَّ بَرِيء - هل نعي الموتى حرام؟ فضل الشام -
- نفقة المطلقة ثلاثاً - إكراه الفتاة على الزواج ممن تكره.

نماذج للرأي.. والرواية

توثيق الأخبار لوُن من إحقاق الحق وإبطال الباطل. وقد اهتم المسلمون اهتماماً شديداً بهذا الجانب من المعرفة والاستدلال، لاسيما إذا اتصل الأمر بسيرة نبيهم، وما ينسب إليه من قول أو عمل.

إنَّ هناك طريقاً واحداً لإرضاء الله ﷻ ونيل محبته هو اتباع محمد ﷺ واقتفاء آثاره والسير على سنَّته لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران / ٣١].

وأمتنا - من تاريخ بعيد - تصون التراث النبوي، وتحميه من الأوهام، وتعدُّ الكذب على صاحب الرسالة طريق الخلود في النار؛ لأنه تزوير للدين وافتراء على الله لقوله ﷻ: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبِ عَلَى أَحَدٍ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا^(١) مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

(١) يَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ: يتخذة. (م).

وقد وضع علماء السنة خمسة شروط لقبول الأحاديث النبوية: ثلاثة منها في السند، واثنان في المتن:

١- فلا بد في السند من راوٍ واعٍ يضبط ما يسمع، ويحكيه بعدئذ طبق الأصل.

٢- ومع هذا الوعي الذكي لا بد من خلقٍ متينٍ وضميرٍ يتقي الله ويرفض أيَّ تحريفٍ.

٣- وهاتان الصفتان يجب أن يطرّدا في سلسلة الرواة، فإذا اختلّتا في راوٍ أو اضطربت إحداهما فإن الحديث يسقط عن درجة الصحة.

وننظر بعد السند المقبول إلى المتن الذي جاء به، أي: إلى نصّ الحديث نفسه.

٤- فيجب ألا يكون شاذًّا.

٥- وألا تكون به علة قاذحة.

والشذوذ أن يخالف الراوي الثقة من هو أوثق منه.. والعلة القاذحة عيبٌ يبصره المحققون في الحديث فيردونه به.

وهذه الشروط ضمان كافٍ لدقة النقل وقبول الآثار، بل لا أعرف في تاريخ الثقافة الإنسانية نظيراً لهذا التأصيل والتوثيق. والمهم هو إحسان التطبيق.

وقد توفّر للسنة المحمدية علماء أولو غيرة وتقوى بلغوا بها المدى . وكانت غريبتهم للأسانيد مثار الثناء والإعجاب، ثم انضم إليهم الفقهاء في ملاحظة المتون، واستبعاد الشاذّ والمعلول .

ذلك أنّ الحكمَ بسلامة المتن يتطلب علماً بالقرآن الكريم، وإحاطة بدلالاته القريبة والبعيدة، وعلماً آخرَ بثتّى المرويات المنقولة؛ لإمكان الموازنة والترجيح بين بعضها والبعض الآخر .

والواقع أنّ عملَ الفقهاء مُتَمِّمٌ لعملِ المُحدِّثين، وحارس للسنة من أيّ خللٍ قد يتسلل إليها عن ذُهور أو تساهلٍ .

إن في السنة متواتراً له حكمُ القرآن الكريم، وفيها الصحيح المشهور الذي يفسر العمومَ والمطلق في كتاب الله، وفيها حشد كبير من أحكام الفروع التي اشتغلت بها المذاهب الفقهية بعدما اتفقت على أن السنة المصدرُ الثاني للأحكام .

وقد يصحّ الحديث سنداً ويضعف متناً بعد اكتشاف الفقهاء لعله كامنٌ فيه .

واكتشاف الشذوذ والعله في متن الحديث، ليس حكراً على علماء السنة، فإن علماء التفسير والأصول والكلام والفقهاء مسئولون عن ذلك، بل ربما ربّت مسئوليتهم على غيرهم .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ابْنِ حَجْرٍ شَارِحِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، فِي كِتَابِهِ الْجَلِيلِ «فَتْحِ الْبَارِيِّ» الَّذِي قَالَ فِيهِ الْعُلَمَاءُ بِحَقِّ: لَا هَجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ: إِنَّ الرَّجُلَ عَلَى صِدَارَتِهِ فِي عُلُومِ السَّنَةِ قَوَى حَدِيثَ الْغُرَانِيقِ^(١)، وَأَعْطَاهُ إِشَارَةَ خَضْرَاءَ فَمَرَّ بَيْنَ النَّاسِ يَفْسُدُ الدِّينَ وَالدُّنْيَا، وَالْحَدِيثَ الْمَذْكُورَ مِنْ وَضْعِ الزَّنَادِقَةِ، يَدْرِكُ ذَلِكَ الْعُلَمَاءُ الرَّاسِخُونَ.

وَقَدْ انْخَدَعَ بِهِ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ، فَجَعَلَهُ فِي السِّيَرَةِ الَّتِي كَتَبَهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالشَّيْخُ هُوَ مَنْ هُوَ غَيْرَ عَلَى عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ وَدِفَاعًا عَنْهَا.

ثُمَّ جَاءَ الْوَعْدُ^(٢) الْهِنْدِيُّ سَلْمَانَ رَشْدِي فَاعْتَمَدَ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ الْمَكْذُوبِ فِي تَسْمِيَةِ رِوَايَتِهِ «آيَاتِ شَيْطَانِيَّةٍ».

أَلَيْسَ مِنْ حَقِّ عُلَمَاءِ الْكَلَامِ وَالْفِقْهِ وَالتَّفْسِيرِ أَنْ يَحَارِبُوا هَذَا الْقَدَى؟ بَلْ إِنَّ حُرَّاسَ السَّنَةِ الصَّحِيحَةَ رَفَضُوا هَذَا الْحَدِيثَ الْمَحْقُورَ.

وَفِي هَذِهِ الْأَيَّامِ صَدَرَ تَصْحِيحٌ مِنَ الشَّيْخِ الْأَلْبَانِيِّ لِحَدِيثِ «لَحْمِ الْبَقْرِ دَاءٌ»، وَكُلُّ مُتَدَبِّرٍ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَدْرِكُ أَنَّ الْحَدِيثَ لَا قِيمَةَ لَهُ، مَهْمَا كَانَ سَنَدُهُ.

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فِي مَوْضِعِينَ مِنْ كِتَابِهِ أَبَاحَ لَحْمَ الْبَقْرِ، وَامْتَنَّ بِهِ عَلَى النَّاسِ، فَكَيْفَ يَكُونُ دَاءً؟

(١) الغرانيق: الأصنام. (م).

(٢) الوعد: الدنيء الرذل الصغير العقل. (م).

في سورة الأنعام يقول: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاءٌ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام / ١٤٢]، ثم يفصل ما أباح أكله فيقول: ﴿ثُمَّ نَبِيَّةٌ أَرْوَجُ مِنْ الْأَضْأَنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام / ١٤٣]، ثم يقول: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام / ١٤٤] فأين موضع الداء في هذه اللحوم المباحة على سواء؟

وفي سورة الحج يقول: ﴿وَالْبَدَنُ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعْتِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجِجَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج / ٣٦].

والبدن هي الإبل والبقر والجاموس، فأين الداء فيها؟

عيب بعض الذين يشتغلون بالحديث قصورهم في تدبر القرآن، وفقه أحكامه. فلم الغرور مع هذا القصور؟ ولماذا يستكثرون على غيرهم من رجال الفكر الإسلامي الرحب أن يكتشفوا علة هنا أو شذوذاً هناك؟

إن التعاون في ضبط التراث النبوي مطلوب، ومتن الحديث قد يتناول عقائد وعبادات ومعاملات يشتغل بها علماء المعقول والمنقول جميعاً، وقد يتناول الحديث شئون الدعوة والحرب والسلام، فلماذا يُحرم علماء هذه الآفاق المهمة من النظر في المتون الروية؟ وما قيمة حديث صحيح السند عليل المتن؟

على أن هناك آلافًا من الأحاديث الخالية من العلل والشذوذ تم تسجيلها في دواوين السنة، فإذا بقي نزر يسير يتعاون في ضبطه الفقهاء والمحدثون فذلك خير وأولى.

وفي عصرنا ظهر فتیان سوء، يتناولون على أئمة الفقه باسم الدفاع عن الحديث النبوي، مع أن الفقهاء ما حادوا عن السنة، ولا استهانوا بحديث صحّت نسبته وسلم متنه. وكل ما فعلوه أنهم اكتشفوا عللاً في بعض الرويات فردّوها - وفق المنهج العلمي المدروس - وأرشدوا الأمة إلى ما هو أصدق قبيلاً وأهدى سبيلاً.

وهم بهذا المنهج يتأسون بالصحابة والتابعين. انظر موقف عائشة - رضي الله عنها - عندما سمعت حديث «إِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبِكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ» لقد أنكرته، وحلفت أن الرسول ما قاله، وقالت - بياناً لرفضها إياه: «أين منكم قول الله سبحانه ﴿وَلَا نُزِرُ وَاِزْرَةً وَاِزْرَةً﴾ [الأنعام / ١٦٤].

إنها تردّ ما يخالف القرآن بجرأة وثقة، ومع ذلك فإن هذا الحديث المرفوض من عائشة ما يزال مثبتاً في الصحاح، بل إن ابن سعد في طبقاته الكبرى كرّره في بضعة أسانيد.

قال: أخبرنا ثابتٌ عن أنسِ بنِ مالكٍ أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ لما طعنَ عَوَّلَت (١) حفصةً، فقال: يا حفصةُ، أما سمعتَ النبي ﷺ يقول: «إنَّ المعوَّلَ عليه يعذبُ؟ قال: وعوَّلَ صهيبُ، فقال عمر: يا صهيبُ، أما علمتَ أنَّ المعوَّلَ عليه يُعذَّبُ؟ وقال: أخبرنا ابنُ عونٍ عن محمدٍ قال: لما أصيبَ عمرُ حملُ فأدخل، فقال صهيب: وا أخاه.

فقال عمر: ويحك يا صهيب، أما علمتَ أنَّ المعوَّلَ عليه يُعذَّبُ؟

وقال: أخبرنا أبو عقيلٍ قال: أخبرنا محمد بنُ سيرين قال: أتيتُ عمرَ بنَ الخطابِ بشرابٍ حين طعنَ فخرجَ من جِراحَتِهِ، فقال صهيبُ: وا عمراه وا أخاه، من لنا بعدك؟

فقال له عمر: مه يا أخي، أما شعرتَ أنه من يعوَّلُ عليه يُعذَّبُ؟

وقال: أخبرنا عبيدُ الله بنُ عمرو عن عبدِ الملكِ بنِ عميرٍ عن أبي بردة عن أبيه قال: «لما طعنَ عمرَ أقبلَ صهيبٌ يبكي رافعاً صوته، فقال عمر: أعليّ؟ قال: نعم، قال عمر: أما علمتَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ يُبَكِّ عليه يُعذَّبُ؟».

قال عبد الملك: فحدثني موسى بنُ طالبٍ عن عائشة أنها قالت: «أولئك الذين يعذبُ أمواتهم ببكاءِ أحيائهم، هم الكفار».

(١) عوَّلَت: رفعت صوتها بالبكاء والصياح. (م).

والذي تؤكدُه عائشة أن الرسول ﷺ قال: «إن الكافر يعذب ببكاء أهله عليه».

فعن ابن أبي مليكة قال: توفيت ابنة لعثمان رضي الله عنه بمكة، وجئنا لنشهدها وحضرها ابن عمر وابن عباس - رضي الله عنهما - وإني لجالسُ بينهما...

فقال عبد الله بن عمرو لعمر بن عثمان: ألا انتهى النساء عن البكاء؟ فإن رسول الله ﷺ قال: «إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه». قال ابن عباس: «قد كان عمر يقول بعض ذلك». فلما مات عمر ذكرت ذلك لعائشة، فقالت: «رحم الله عمر، والله ما حدث رسول الله ﷺ أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه، ولكن رسول الله قال: «إن الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه».

وقالت: حَسْبُكُمْ الْقُرْآنُ ﴿وَلَا نُزِرُ وَإِزْرَةٌ وَزَرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام / ١٦٤].

قال ابن عباس عند ذلك: «والله هو أضحك وأبكى - يعني أن بكاء الراحلين طبع لا حرج فيه ولا تثريب عليه». قال ابن أبي مليكة: «والله ما قال ابن عمر شيئاً».

وماذا يقول؟ إن الخطأ غير مستبعدٍ على راوٍ ولو كان في جلالته ابن عمر.

وعندي أن ذلك المسلك الذي سلكته أم المؤمنين أساس لمحاكمة الصحاح إلى نصوص الكتاب الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

من أجل ذلك، كان أئمة الفقه الإسلامي يقررون الأحكام وفق اجتهاد ربح، يعتمد على القرآن أولاً، فإذا وجدوا في ركाम المرويّات ما يتسق معه قبلوه، وإلا فالقرآن أولى بالاتباع.

ردّ البعض على هذا كله بأن معنى تعذيب الميت ببكاء أهله عليه أن الميت يتعذبُ أي يتألم، لا أن الله يعذبه، وهو تأويل لطيف، وإذا قبلناه لم يختلف الحديث مع الكتاب الكريم. ولكن دون هذا التأويل صعوبات منها: أن عائشة تحلف أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه»، ولم يذكر المؤمن.

وقد يقال: ولماذا يعذب الكافر بما لم يقترف^(١)؟ أليس ذلك ظلماً؟ والجواب في قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل / ٢٥]، وما يزداد في عذاب الكافر لأنه سبب في إضلال غيره.

والقول بأن المؤمن يتألم بعد موته لبكاء أهله مخالف للآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت / ٣٠]، روى ابن كثير أن ذلك عند الموت، ونقل عن زيد بن أسلم: «يبشرونه عند موته، وفي قبره،

(١) يقترف: يفعل. (م).

وحين يبعث»، وعلّق على ذلك: بأن هذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جداً، وهو الواقع، فأين يتعذب والحالة هذه؟ إن الله مطمئن على ما ترك، وما سيلقى.

وقد بشر الله الشهداء بأن من تركوهم سوف يلحقون بهم في خير ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران / ١٧٠].

إننا لا نحرص على تضعيف حديث يمكن تصحيحه، وإنما نحرص على أن يعمل الحديث داخل سياج^(١) من دلالات القرآن القريبة أو البعيدة.

وحديث الأحاد يفقد صحته بالشذوذ والعلة القادحة، وإن صحَّ سنده.

فأبو حنيفة يرى أن من قاتلنا من أفراد الكفار قاتلنا، فإن قتل فإلى حيث ألفت، أما من له ذمة وعهد فقاتله يقتص منه.

ومن ثم رفض حديث «لا يُقتل مسلمٌ في كافرٍ»، مع صحة سنده؛ لأنَّ المتن معلولٌ بمخالفته للنص القرآني ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة / ٤٥]. وقول الله بعد ذلك: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة / ٤٨]. وقوله ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِیَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة / ٥٠]؟

(١) سياج: سور، والمقصود حدود. (م).

وعند التأمل نرى الفقه الحنفي أدنى إلى العدالة، وإلى موثيق حقوق الإنسان، وإلى احترام النفس البشرية دون نظر إلى البياض والسواد، أو الحرية والعبودية، أو الكفر والإيمان.

لو قتل فيلسوفٌ كانسَ طريق، قُتل فيه، فالنفسُ بالنفس.

وقاعدة التعامل مع مخالفينا في الدين ومشاركيها في المجتمع أن لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، فكيف يهدر دم قتيْلهم؟

وقد بلغني أن بدويًا قتل مهندسًا أمريكيًّا في إحدى دول الخليج، وقال أهل الحديث: لا يجوز القصاص. وشعرت الحكومة بالحرج، ولكن تم الخروج من المأزق بقتل المجرم من باب السياسة الشرعية.

القصاص شريعة الله، وهو ظاهر القرآن الكريم، والأحناف يقدمون ظاهر القرآن على حديث الأحاد، والمالكيون يقدمون عمل أهل المدينة على حديث الأحاد، باعتبار أن عمل أهل المدينة أدلُّ على السنة النبوية من حديث راوٍ واحد.

وقد أمضى مالك القصاص للفرع من الأصل، إذا كان الأب القاتل قد أقدم على الجريمة عامدًا مصرًّا مغتالًا، وترك الحديث الوارد بمنع هذا القصاص مع صحة سنده.

وأهل الحديث يجعلون دية المرأة على النصف من دية الرجل، وهذه سؤاة فكرية وخلقية رفضها الفقهاء المحققون.

فالدية في القرآن واحدة للرجل والمرأة، والزعم بأن دم المرأة أرخص، وحقها أهون زعم كاذب مخالف لظاهر الكتاب.

إن الرجل يُقتل في المرأة كما تُقتل المرأة في الرجل، فدمهما سواء باتفاق، فما الذي يجعل دية دون دية؟

كنت في مجلس مع أستاذنا مصطفى الزرقا، فقال لي: إن الدية تعويض عن مفقود، وفي العوض يُلاحظ التكافؤ، ومقتل الرجل خسارة للأسرة أفدح من مقتل المرأة، والفقهاء لم يفكروا قط في إهانة المرأة مادياً أو أدبياً، وإنما نظروا في قيمة العوض المطلوب.

ثم قال: إن القوانين الغربية لم تُسوِّ بين المرأة والرجل في أجر العمل، ولم تُسوِّ بينهما في تصرفات مالية شتى، إنما سوَّت بينهما في فرص اللذة الحرام والحلال.

وقال الأستاذ معروف الدواليبي: إنه عندما كان يشارك في وضع القوانين في باكستان على أساس الشريعة الإسلامية سوَّى في الدية بين الرجل والمرأة، إيثاراً للرأي القائل بذلك، واستثناساً بمسلك عثمان بن عفان الذي أكمل دية الذمّي وكانت على النصف من دية المسلم.

قال: رأينا أن نسدَّ الطريق على من يتَّهمون الإسلام بانتقاص مكانة المرأة. وفي مسلك الخليفة الراشد الثالث ما يدل على إمكان التغيير إذا تغيرت الأوضاع، ويبدو أن أهل الذمَّة اندمجوا في المجتمع الإسلامي عن إخلاص، فرأى عثمان طمأننتهم على مكانتهم بتعزيز ديانتهم.

على أن الفقه الحنفيَّ يسوِّي في الدماء والديات بين الجميع.

وقد فكرت في السبب الذي جعل الأحناف والمالكية يكرهون تحية المسجد والإمام يخُطب مع ورود حديث بطلب هذه التحية.

وبعد تأمل يسير رأيت أن خطبة الجمعة شرعت بعد الهجرة، وظل المسلمون يُصلُّون الجُمعَ وراء النبي - عليه الصلاة والسلام - عشر سنين. أي أن هناك نحو خمسمائة خطبة أُلقيت خلال هذه المدة، فأين هي؟

إن المحدثين لم يهملوا تسجيل كلمة عابرة، أو فتوى خاصة، أو إجابة لسائل، فكيف تركوا هذه الخطب؟

كُلُّ ما دوَّنوه بضعُ خطبٍ لا تبلغ أصابع اليد.

الواقع أن النبي - عليه الصلاة والسلام - كان يخطب الناس بالقرآن الكريم، وعندما يكون على منبره أو في محرابه يتلو كتابه، فعلى الجميع الصمت والتدبُّر.

يستحيل أن ينشغل عنه أحد بقراءة أو بصلاة.

كذلك جاء التوجيه الإلهي ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف / ٢٠٤]. إن رب العالمين يستمع إلى نبيه وهو يقرأ كما جاء في الحديث الشريف: «ما أذن الله لشيءٍ أذنه لنبيٍّ يقرأ القرآن يتغنى به»، فكيف يتشاغل عنه الناس؟

كانت السنة إذن هي الاستماع للخطب، وما جاء في حديث الأمر بتحية المسجد كان حالة خاصة بالرجل المذكور، وظلت السنة العملية تمنع الكلام والصلاة في أثناء الخطبة، بل إن مالكا أبطل هذه الصلاة، وما أظن صاحب الموطأ يتهم بمعادة سنة ثابتة.

وندع قضية الخطب فيها سهل، إلى قضية علمية مهمة لها وزنها، ولا نحب أن نجعل منها قضية عقائدية.

من الذي نزل بالقرآن الكريم على صاحب الرسالة العظمى محمد بن عبد الله؟

يقول المسلمون خاصتهم وعامتهم: إنه أمين الوحي جبريل. وليس هذا القول وليد إشاعة لا يُدرى مصدرها، بل هو قول مستند إلى المتواتر من الكتاب والسنة جميعاً.

وأذكر هنا خمسة مواضع في القرآن الكريم تؤيد هذه الحقيقة:

١- ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ، عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة / ٩٧]، والآية واضحة الدلالة.

٢- ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل / ١٠٢]. وروح القدس هو جبريل، وهو عبد الله وليس إلهاً كما يتوهم البعض.

وفي هذه الآية والتي سبقتها نلاحظ أن الوحي الأعلى هدايةً وبُشْرَى، هداية للشعوب الحائرة، وبُشْرَى تورث الأفراح وتحقق الآمال لمن يرتبطون بهذا الوحي.

٣- ﴿وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ . وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء / ١٩٢ - ١٩٦]، وظاهر أن الذي نزل بالوحي هو الروح الأمين، وأن الرسول الكريم شرع يُعلمُ الناسَ ويدعوهم بعدما تلقى هذا الوحي المبارك، وأن رسالته تصديق وامتداد لرسالات النبيين الأولين في العقائد وحسن الخلق.

٤- وقد أقسم الله تبارك وتعالى على عظمة هذا القرآن فقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير / ١٩ - ٢١].

ونلاحظ هنا عدة أوصاف لأمين الوحي، فهو رسول كريم، وهو صاحب قوة، وهو صاحب مكانة عند ذي العرش، وهو مطاع في موضعه، وأمين.

وبين هذه الصفات وبين ما جاء في سورة النجم مشابهة، فلنتدبرها في الموضوع الأخير.

٥- ﴿إِنَّهُ هُوَ إِلَهًا وَحِيًّا يُوحِي . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى . ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى . وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى . فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ [النجم / ٤- ١٠].

القوي الذي علم الوحي، ونزل به إلى السماء الدنيا، وحلق به في جو الأرض، ثم اقترب به من الرسول العربي هو جبريل بداهة. ولا يتحمل السياق إلا هذا، ولا تتحمل آيات القرآن كلها في غير هذا الموضوع إلا هذا.

ومع ذلك، فقد جاءت في الأحاديث المنقولة بطريق الأحاد رواية مستغربة، أن الذي دنا فتدلى هو الله.

والرواية تخالف المتواتر المقطوع به في الكتاب والسنة، ومن هنا لم يكثر^(١) بها المحققون بل جمّدت في مكانها حتى جاء ضعفاء الفقه فاستحيوها دون وعي.

وقد ضقت ذرعاً بأناس قليلي الفقه في القرآن، كثيري النظر في الأحاديث، يصدرون الأحكام، ويرسلون الفتاوى فيزيدون الأمة بلبلةً وحيرة.

(١) لم يكثر: لم يعبأ، لم يبال. (م).

ولازلت أحدى الأمة من أقوام بصرهم بالقرآن كليل^(١)، وحديثهم عن الإسلام جريء. واعتمادهم كله على مرويات لا يعرفون مكانها من الكيان الإسلامي المستوعب لشئون الحياة.

وقد جاء الإمام مسلم - رحمه الله - فعلق على رواية إمامه البخاري - رحمه الله، فبين ما بها من عطب^(٢)، وذكر أن الخطأ جاء من شريك عن أنس بن مالك الذي ذكر الحديث، فزاد ونقص وقدم وأخر.

إن مسلماً مضى على منهج المحدثين، فناقش عمل شريك - الراوي عن أنس - ثم رفض المتن. وحسنًا فعل.

إن الخطأ في تفسير آية «النجم»، والزعم بأن المعنى «دنا الجبار رب العزة فتدلى» كانا مثار استنكار السيدة عائشة - رضي الله عنها، فلما سألها مسروق: «يا أمه هل رأى محمد ربه؟» قالت: «لقد قف شعراً رأسي^(٣) مما قلت. أين أنت من ثلاث؟ من حدثكهن فقد كذب».

من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام / ١٠٣]،

(١) كليل: ضعيف. (م).

(٢) عطب: فساد. (م).

(٣) قف شعراً رأسي: قام دُعراً. (م).

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ [الشورى / ٥١].

ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان / ٣٤].

ومن حدثك أن محمداً كتم أمراً فقد كذب، ثم قرأت ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة / ٦٧]، ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين.

وأم المؤمنين عائشة فقيهة محدثة أدبية، وهي وقافة عند نصوص القرآن، ترفض أدنى تجاوز لها. وعندما سمعت أن النبي ﷺ وقف على حافة البئر التي دفن المشركون بها يناديهم بأسمائهم، كان لها تعليقٌ جدير بالتدبر.

والرواية في هذا أن النبي ﷺ مشى واتبعه أصحابه حتى قام على شفة الركي^(١)، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «أيسرُّكم أنكم أطعمتم الله ورسوله، فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟».

فقال عمر: «يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟» فقال: «والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم».

أنكرت عائشة عبارة «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» مستدلةً بالآية الشريفة ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر / ٢٢]، وصححت الرواية: «ما أنتم بأعلم لما أقول منهم».

(١) الركي: البئر. (م).

قال قتادة مُبَيِّنًا الرواية الأولى ومدافعًا عنها: «أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توييحًا وتصغيرًا».

والذي أراه أن الرواية الأولى لا تحتاج إلى هذا الدفاع، فالموتى لم يَفْنَوْا، وصوت النبوة يبلغهم وهم في سِجِّين^(١). ولكن عائشة - رضي الله عنها - لا تقبل ما يعارض - في ظاهره - لفظ القرآن، فالموتى عادة لا يكلمون ولا يسمعون، وإنما يُعلمهم الله بما يشاء، فإذا عَلِمُوا فَكَأَنَّهُمْ سَمِعُوا، والعبارة مقبولة على طريق المجاز. كل ما نحرص نحن عليه شدُّ الانتباه إلى ألفاظ القرآن ومعانيه، فجملة غفيرة من أهل الحديث محجوبون عنها، مستغرقون في شئون أخرى تعجزهم عن تَشْرِبِ الوحي.

والفقهاء المحققون إذا أرادوا بحث قضية ما، جمعوا كل ما جاء في شأنها من الكتاب والسنة، وحاكموا المظنون إلى المقطوع، وأحسنوا التنسيق بين شتَّى الأدلَّة.

أما اختطاف الحكم من حديث عابر، والإعراض عما ورد في الموضوع من آثار أخرى، فليس عمل العلماء.

(١) سِجِّين: وادٍ في جهنم. (م).

وقد كان الفقهاء على امتداد تاريخنا العلمي هم القادة الموثقون للأمة، الذين أسلمت لهم زمامها عن رضا وطمأنينة. وقنع أهل الحديث بتقديم ما يتناقلون من آثار، كما تُقدّم مواد البناء للمهندس الذي يبني الدار، ويرفعُ الشرفات.

والواقع أن كلا الفريقين يحتاج إلى الآخر، فلا فقه بلا سنة، ولا سنة بلا فقه، وعظمة الإسلام تتم بهذا التعاون.

والمحنة تقع في اغترار أحدهما بما عنده، وتزداد مع الإصرار وضعف البصيرة.

وقد ظهرت في الجزائر فتوى لواحد من أهل الحديث، حاربتها بقوة قبل أن تصيب الإسلام وأهله بضرٍ شديد.

إن على التجار في بضائعهم زكاةً يتقربون إلى الله بأدائها، والتجار في الدنيا ملوكُ المال. وقد افتتح الإنجليز القارة الهندية بشركة تجارية، ولا يزال الاستعمار الاقتصادي يهيمن على ميادين التجارة حتى يمتلك أعناق الشعوب.

كيف يزعم زاعم أن عروض التجارة لا زكاة فيها؟ وأين نذهب بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَّ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ﴾ [البقرة / ٢٥٤]. وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة / ٣]. وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِّن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [البقرة / ٢٦٧].

لكن الشاب المشتغل بالحديث النبوي نادى في الناس ألا زكاة في عروض التجارة؛ إذ لا أصل لها فيما قرأ.

وضمَّ إلى ذلك أن الزكاة في الزراعة لا تخرج إلا من القمح والشعير والتمر والزبيب، كأن الكرة الأرضية هي نجد وتهامة والحجاز.

والمفتي القاصر يهبط بحصيلة الزكاة إلى العشر ما دام جمهور التجار والفلاحين قد أعفِيَ من إيتاء الزكاة، وسقط عنهم ركن الإسلام.

ومتى يقع هذا؟ في أيام جندت الكنيسة خلالها ثروات التجار والفلاحين لتنصير العالم الإسلامي المُبتلى بجذب الأرض وجذب العقول.

لماذا لا نتدبر القرآن أولاً حتى نعرف أبعاد التكاليف التي ناطها^(١) الإسلام بأعناقنا، وأوعية المال التي نخرج منها زكواتنا؟

ولماذا لا نعرف طبيعة الدنيا التي نعيش فيها، والأساليب التي يتبعها خصومنا لكسب معاركهم ضدنا؟

إنه لا فقه مع العجز عن فهم الكتاب، ومع العجز عن فهم الحياة نفسها.

وبعض المشتغلين بالحديث يستوعر^(٢) تدبر القرآن، ودراسة دلالاته القريبة والبعيدة، ويستسهل سماع حديث ما، ثم يختطف الحكم منه فيشقي البلاد والعباد.

(١) ناطها: علّقها. (م).

(٢) يستوعر: يستصعب. (م).

قلنا: إنه لا خلاف بين المسلمين في العمل بما صحت نسبته لرسول الله ﷺ وفق أصول الاستدلال التي وضعها الأئمة، وانتهت إليها الأمة.

إنما ينشأ الخلاف حول صدق هذه النسبة أو بطلانها، وهو خلاف لا بد من حسمه، ولا بد من رفض الافتعال أو التكلف فيه.

فإذا استجمع الخبر المرويُّ شروط الصحة المقررة بين العلماء فلا معنى لرفضه. وإذا وقع خلاف محترم في توفر هذه الشروط أصبح في الأمر سعة، وأمكن وجود وجهات نظر شتى. ولا علاقة للخلاف هنا بكفر ولا إيمان، ولا بطاعة أو عصيان.

وقد وقع لي وأنا بالجزائر أن طالباً سألني: أصحيح أن موسى عليه السلام فقاً عين ملك الموت عندما جاء لقبض روحه، بعدما استوفى أجله؟ فقلت للطالب وأنا ضائق الصدر: وماذا يفيدك هذا الحديث؟ إنه لا يتصل بعقيدة، ولا يرتبط به عمل. والأمة الإسلامية اليوم تدور عليها الرّحى، وخصومها طامعون في إخماد أنفاسها. اشتغل بما هو أهم وأجدى.

قال الطالب: أحببت أن أعرف هل الحديث صحيح أم لا؟ فقلت له متبرماً^(١): الحديث مرويٌّ عن أبي هريرة، وقد جادل البعض في صحته.

(١) متبرماً: متضجراً. (م).

وعدتُ لنفسي أفكر: إن الحديث صحيحُ السند، لكن متنه يثير الريبة؛ إذ يفيد أن موسى يكره الموت، ولا يحب لقاء الله بعدما انتهَى أجله، وهذا المعنى مرفوض بالنسبة إلى الصالحين من عباد الله كما جاء في الحديث الآخر: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ». فكيف بأنبياء الله؟ وكيف بواحدٍ من أولي العزم؟ إن كراهيته للموت بعدما جاء ملكه أمر مستغرب. ثم هل الملائكة تعرض لهم العاهات التي تعرض للبشر من عمى أو عور؟ ذاك بعيد.

قلت: لعل متن الحديث معلول، وأياً ما كان الأمر، فليس لدي ما يدفني إلى إطالة الفكر فيه.

فلما رجعتُ إلى الحديث في أحد مصادره ساءني أن الشارح جعل ردَّ الحديث إلخاً. وشرع يفنّد الشبهات الموجهة إليه فلم يزدّها إلا قوةً. وهاك الحديث أولاً:

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام فقال له: أجب ربك، قال: فلطم موسى عليه السلام عين ملك الموت، ففقاها، قال: فرجع الملك إلى الله تعالى، فقال: إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت، وقد فقا عيني، قال: فردَّ الله إليه عينه، وقال: أرجع إلى عبدي فقل له: أحياء تريد؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور، فما وارت يدك من شعرة فإنك تعيش بها سنة، قال: ثم مه؟ قال: ثم تموت، قال: فالآن من قريب، رب أمّتي من الأرض المقدسة رمية بحجر».

قال رسول الله ﷺ: «والله لو أنني عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر»^(١).

قال المازري:

وقد أنكر بعض الملاحدة هذا الحديث وأنكر تصوّره، قالوا: كيف يجوز على موسى فقه عين ملك الموت؟

قال: وأجاب العلماء عن هذه الشبهة بأجوبة:

أحدها: أنه لا يمتنع أن يكون موسى عليه السلام قد أذن الله تعالى له في هذه اللطمة، ويكون ذلك امتحاناً للملطوم، والله سبحانه وتعالى يفعل في خلقه ما شاء، ويمتحنهم بما أراد.

والثاني: أن هذا على المجاز، والمراد أن موسى ناظره وحاجّه فغلبه بالحجة، ويقال: فقاً فلانٌ عين فلانٍ إذا غالبه بالحجة، ويقال: عورت الشيء إذا أدخلت فيه نقصاً.

وعلق المازري على الرأي الثاني بقوله:

وفي هذا ضعف لقوله ﷺ، فرد الله عينه، فإن قيل: أراد حجته، كان بعيداً.

(١) أجب ربك: استعد للموت. متن الثور: ظهره. مه: استفهام معناه ثم ماذا يكون؟ حياة أم موت؟. رمية حجر:

قدر ما يبلغه. الكثيب: كوم الرمال.

والثالث: أن موسى عليه السلام لم يعلم أنه ملك من عند الله، وظن أنه رجل قصده يريد نفسه (أي يريد قتله) فدافعه عنها، فأدت المدافعة إلى فقء عينه، لا أنه قصدها بالفقء، وهذا جواب الإمام أبي بكر بن خزيمة وغيره من المتقدمين. واختاره المازري والقاضي عياض.

قالوا: وليس في الحديث تصريح بأنه تعمد فقء عينه، فإن قيل: فقد اعترف موسى حين جاءه ثانياً بأنه ملك الموت.

فالجواب: أنه أتاه في المرة الثانية بعلامة علم بها أنه ملك الموت فاستسلم بخلاف المرة الأولى.

نقول نحن: هذا الدفاع كله خفيف الوزن، وهو دفاع تافه لا يساغ.

وَمَنْ وَصَمَ مُنْكَرَ الْحَدِيثِ بِالْإِلْحَادِ فَهُوَ يَسْتِطِيلُ فِي أَعْرَاضِ الْمُسْلِمِينَ. وَالْحَقُّ: أَنْ فِي مَتْنِهِ عِلَّةٌ قَادِحَةٌ تَنْزِلُ بِهِ عَنِ مَرْتَبَةِ الصَّحَّةِ.

ورفضه أو قبوله خلاف فكري، وليس خلافاً عقائدياً.

والعلة في المتن يبصرها المحققون، وتَحْفَى عَلَى أَصْحَابِ الْفِكْرِ السُّطْحِيِّ. سَمِعْتُ كَلَامًا حَادًّا مِنْ يَرُونَ أَنَّ مُوسَى فَقَأَ عَيْنَ مَلِكِ الْمَوْتِ حَقًّا، وَأَنَّ هَذَا غَيْرُ مُسْتَعْرَبٍ.

وقبل أن أذكر ما عندي أثبتُ هنا حديثَ أحمدَ عن أنسٍ، قال رسول الله ﷺ: «من أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ الله لقاءَه، ومن كرهَ لقاءَ الله كرهَ الله لقاءَه»، قلنا: «يا رسول الله كلنا نكره الموت»، فقال رسول الله: «ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حُضِرَ - احتُضِرَ - جاءهُ البشيرُ من الله تعالى بما هو صائر إليه، فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله تعالى فأحبَّ لقاءَ الله». قال: «وإن الفاجر أو الكافر إذا حُضِرَ - احتُضِرَ - جاءهُ «الندير» بما هو صائر إليه من الشر أو ما يلقى من الشر فكره لقاءَ الله فكره الله لقاءَه».

والحديث المذكور يتجاوز أحوال الصِّحَّة المعتادة، وانغماس الناس في معاشهم يزرعون ويصنعون ويتجرون، فإن إقبالهم على الحياة لا نُكر فيه، ونزول الموت هنا قد يوصف بأنه مصيبة. وما تقوم الدنيا وينشأ عُمرانها إلا من هذا الشعور بالحياة وحبِّها.

على أن المؤمن قد يَنبذُ الحياة الدنيا في ساعة فداء ينصُر بها دينه ويلقى بها ربَّه، فهو وإن انغمسَ في شئون الدنيا لا ينسى أبداً دينه، ولا يَنكُصُ^(١) عن لقاء ربِّه.

(١) لا ينكص: لا يرجع. (م).

وحديث أحمد بن حنبل يتجاوز هذه الظروف كلها؛ ليشرح اللحظات الأخيرة من عمر المتوفى وهو في فراش المرض، أو وهو على أبواب الآخرة، وقد شرع ملك الموت يستردُّ الرُّوحَ ليعود بها إلى بارئها.

في هذه الأوقات الحرجة تحييء البشري التي يطير بها المؤمن فرحاً، أو الأبناء التي ينوء^(١) بها الفاجر كمدًا^(٢).

فلننظر على ضوء هذه الحقائق إلى حديث فقهاء موسى لعين ملك الموت. إن الملك قال لموسى: أجب ربك؛ يعني أن عمرك انتهى، فاستعد لتسليم رُوحك والعودة إلى ربك.

أفي هذه العودة ما يضايق موسى؟ قال المدافعون عن الحديث: موسى كسائر البشر يكره الموت. ونقول: كراهية الموت مفهومة في الأحوال العادية للناس العاديين، ولا معنى لها بعد انتهاء الأجل، ومجيء الملك ليستردَّ وديعته.

ما الذي يكرهه موسى من اللقاء الحتم؟ إن هذا الكره تحوّل إلى جزع وغضب جعلاً موسى يَفْقأ عين الملك كما يقال.

(١) ينوء: يُثقل بالحمل فيسقط. (م).

(٢) كمدًا: حزنًا شديدًا. (م).

يقول المدافعون عن الحديث: إن موسى فقاً الصورة التي تتَّهَّلَّ بها الملك؛ لأنه جاء في صورة بشر. ويردُّ ذلك ما جاء في الحديث أَنَّ اللَّهَ رَدَّ إِلَيْهِ عَيْنَهُ، أَفَكَانَ مُوسَى عَاجِزًا عَنِ إِصْلَاحِ الْعَوْرِ فِي الْهَيْئَةِ الَّتِي تَشْكَلُ فِيهَا؟

وقد طلب موسى أن يدفن على مَرْمَى حِجْرٍ مِنْ حُدُودِ فِلَسْطِينَ الَّتِي جَبُنَ قَوْمُهُ عَنْ دُخُولِهَا، فَهَلْ هَذَا الطَّلَبُ تَفْسِيرٌ لِحِرْصِ الْيَهُودِ الْآنَ عَلَى نَقْلِ مَوْتَاهُمْ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ؟

وسمعت من قال: إن الحديث من الابتلاء بالغيب والإيمان بالغيوب حق، إذا كانت مستيقنة المصدر. أمَّا السِّياقُ الغامِضُ والأسلوبُ المضطربُ فهما موضع بحث الفقهاء؛ ليتعرفوا الحقيقة من خبر آحاد، يتعرض للدرس والفحص سندًا وامتتًا.

وأخيرًا، فهذا الحديث وأمثاله مما لا صلة له بعقيدة أو سلوك، قارٌّ في مكانه، تعدوه العين إلى المهم من تعاليم الإسلام العملية، فمن نبش التراب عنه، وشغل الناس به، ونسب إلى الإلحاد من يتوقف فيه؟ إنَّ أعداءَ الصحوة الإسلامية من وراء هذا الحراك الطائش.

وقد رفض الأئمة أحاديث صحَّ سندُها واعتلَّ متنها، فلم تستكمل بهذا الخلل شروطَ الصحة.

ومن أجل ذلك، استغربنا ما رواه ثابتٌ عن أنسٍ أنَّ رجلاً كان يتهم بأمر ولد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لعلِّي: «أذهب فاضرب عنقه، فأتاه عليٌّ فإذا هو في ركيٍّ يتبرد فيها، فقال له عليٌّ: أُخْرِجْ. فناوله يده فأخرجه، فإذا هو محبوب ليس له ذَكَرٌ، فكفَّ عليٌّ عنه، ثم أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنه لمحبوب ما له ذَكَرٌ».

يستحيل أن يحكم على رجل بالقتل في تهمة لم تحقق، ولم يواجه بها المتهم، ولم يُسَمَّع له دفاعٌ عنها، بل كشفت الأيام عن كذبها.

وقد حاول النووي - غفر الله لنا وله - تسويغَ هذا الحكم، بقوله: «لعلَّ الرجلَ كان منافقاً مستحقاً للقتل لسببٍ آخر! ونقول: متى أمر رسول الله بقتل المنافقين؟ ما وقع ذلك منه، بل لقد نهى عنه.

وظاهرٌ من السياق أن الرجل نجا من القتل بعدما تبين من العاهة التي به استحالةٌ توجيه الاتهام إليه، أفلو كان سليماً أبيح دمه؟ هذا أمر تأباه أصول الإسلام وفروعه كُلُّها.

إن بالحديث علةٌ قاذحة، وهي كافية في سلب وصف الصحة عنه، وأهل الفقه لا أهل الحديث، هم الذين يردون هذه المرويات.

قال مدافع عن هذا الخبر: لَعَلَّه من باب التعزير^(١)؟ وهذا تفكير مستنكر. هل الإسلام أَعْطَى وليَّ الأمر حَقَّ قتلِ الناسِ لشبهةٍ أو شائعةٍ؟ أباسم التعزير تستباحُ الدماءُ على نحو طائشٍ؟ إننا نقتل ديننا بهذا الفهم، ونُعَرِّضُ سيرة نبينا للقليل والقال.

ومما يحتاج إلى الفقه السليم تحريمُ نعي الموتى، ورفض ما تنشره الصحف الآن من إعلانات عن وفاة فلان وفلانة. وقد جاءني بعضُ الطلاب يقولون: إنهم قرؤوا أحاديثَ تفيد ذلك، ومن ثمَّ فهم يستنكرون الإيذانَ بأخبار الموتى.

قلت: إن النعي المكروه ما كان استعراضاً للمآثر والمفاخر، وتنويهاً بالأفراد والأسر، أما ما عدا ذلك فلا شائبةَ فيه، بل لا بد منه.

قالوا: ما رواه الترمذي وابنُ ماجة غيرُ ما تقول! عن حذيفة رضي الله عنه قال عندما احتُضِر: «إذا أنا متُّ فلا يؤذَن عليَّ أحد، إني أخاف أن يكون نعيًا، وإني سمعت رسول الله ينهَى عن النعي».

هكذا رَوَى الترمذي، وأكد ابن ماجة الرواية إلاَّ أنه قال: «كان حذيفة إذا مات له الميت قال: «لا تؤذَنوا به أحدًا، إني أخاف أن يكون نعيًا، إني سمعت رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأذني هاتين ينهَى عن النعي».

(١) التعزير: العقوبة التي يفرضها الحاكم على المذنب بما يراه مناسبًا، مما دون الحد الشرعي. (م).

وعن عبد الله بن مسعود «أن رسول الله كان ينهى عن النعي، وقال: إياكم والنعي فإنه من عمل الجاهلية». قال عبد الله: والنعي: أذان بالميت.

ونحن نؤكد أن النعي المحظور ما قارنه الرياء وإحياء العصبية، أما الإخبار المعتاد فيستحيل كرهه.

وما أكثر الأحاديث المنتشرة اليوم بين الشباب، يستنتجون منها أحكاماً سيئة، إن قبلنا سندها على إغماض فإن متنها لا يصح قبوله.

وقد قرأت للمنزري - رحمه الله - في كتابه «الترغيب والترهيب» ستة عشر حديثاً في سُكْنَى الشام وما جاء في فضلها.

منها ما جاء عن زيد بن ثابت: قال رسول الله ﷺ يوماً ونحن عنده: «طوبى للشام، إن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليه». وأغلب الأحاديث الستة عشر تدور على هذا المعنى، وأغلبها من رواية الترمذي والحاكم والطبراني وابن حبان وأبي داود وأحمد.

ونحن نحب أقطار الإسلام كُلِّها ونعدُّ أهلها إخواننا، ونرى نصرتهم ديناً، وخذلانهم كفرًا، وما يُروى في تفضيل بلد على آخر والترغيب في سكنائه، أو المرابطة فيه فهو عندما يتعرض الإسلام للخطر من قبله، أو تحدث ثغرة في حدوده تتطلب الرجال لسدها.

وذلك كما تتجمع كرات الدم البيضاء لحماية الجسم من الجراثيم الغازية، عندما يصاب بجرح، أو تنشأ به قرحة. إن مسارعة قوات الدفاع هنا مفهومة الحكمة.

أما في حالة الجسم العادية، فموقف الكرات من جميع الأعضاء واحد. والواقع أن دار الإسلام الآن مهددة من نغرات شتى، والغزاة يتواثبون حولها شرقاً وغرباً.

ولما كانت فلسطين جزءاً من الشام فنحن نعد الفرار منها عصيانياً والثبات فيها جهاداً. وللمدافعين عن الإسلام في أفغانستان والفلبين، وسائر أراضيه كل الحقوق التي لعرب فلسطين، أو لأرض الشام، كما جاء في الأحاديث الستة عشر.

كان عمر رضي الله عنه يشغل نفسه ويشغل الناس معه بالقرآن الكريم، ويوصي الجيوش أن تلهج به وتعكف عليه. ومن أفضيته التي استند فيها إلى القرآن وحده: ما رواه ابن إسحاق، قال: «كُنْتُ جَالِسًا مَعَ الْأَسْوَدِ بْنِ يَزِيدَ فِي الْمَسْجِدِ الْأَعْظَمِ، وَمَعِيَ الشَّعْبِيُّ، فَحَدَّثَ بِحَدِيثِ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَجْعَلْ لَهَا سَكْنِي وَلَا نَفَقَةَ - وَكَانَتْ قَدْ طَلَقَتْ ثَلَاثًا - فَأَخَذَ الْأَسْوَدُ كَفًّا مِنْ حَصِي فَحَصَبَهُ^(١) بِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَيْلَكَ تَحْدِثُ بِمِثْلِ هَذَا؟ قَالَ عُمَرُ: لَا نَتْرِكُ كِتَابَ

(١) حصبه: رماه بالحصي أو الحجر. (م).

ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لا ندري حفظت أم نسيت، لها السكنى والنفقة، قال تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرِجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبِينَةٍ﴾ [الطلاق / ١].

وحديث فاطمة المذكور هو موضع خلاف بين الفقهاء، رفضه الأحناف، وقبله الحنابلة، ويرى المالكية والشافعية أن المطلقة ثلاثاً لها السكنى دون النفقة.

وملاحظ الحنابلة: أن سياق الآية التي ذكرها عمر في الطلاق الرجعي لا البائن، ولمن شاء أن يدرس القضية في مصادرها، والذي يعيننا منها: هو أن عمر جعل ظاهر القرآن هو السنة التي تتبع.

وإذا كنا نقدم الرأي القوي على الرواية المريبة فيما سقنا قبلاً من نماذج، فإن عجبنا يشدد عندما نرى من يترك النقل والفقهاء معاً في بعض الأحكام.

اتفق المحدثون أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن»، قالوا: يا رسول الله وكيف إذنها؟ قال: «أن تسكت»، وفي رواية: «الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر تستأمر، وإذنها سكوتها».

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما: «أن جاريةً بكرًا أتت النبي ﷺ فذكرت أن أباهاً زوّجها وهي كارهة، فخيرها رسول الله».

وفي رواية: «أن فتاة دخلت على عائشة فقالت: إن أبي زوجني من ابن أخيه يرفع بي خسيسته وأنا له كارهة. قالت عائشة: اجلسي حتى يأتي رسول الله. فجاء رسول الله ﷺ فأخبرته، فأرسل إلى أبيها فدعاها، فجعل الأمر إليها.

فقالت: يا رسول الله، قد أجزت ما صنع أبي، ولكنني أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء».

ومع هذا، فإن الشافعية والحنابلة أجازوا أن يجبر الأب ابنته البالغة على الزواج بمن تكرهه، ولا نرى وجهة النظر هذه إلا انسياقاً مع تقاليد إهانة المرأة، وتحقير شخصيتها.

وقد ذكرنا أن الأحناف أعطوا المرأة حق أن تباشر عقدها إمضاءً لظواهر القرآن. ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ [البقرة / ١٤٨].

في عالم النساء

الحجاب والنقاب - المرأة والأسرة والوظائف العامة -
علاقة المرأة بالمسجد - شهادة المرأة في الحدود والقصاص.

في عالم النساء

معركة الحجاب

نريد للصحة الإسلامية المعاصرة أمرين؛ أولهما: البعد عن الأخطاء التي انحرفت بالأمّة وأذهبت ريحها وأطمعت فيها عدوها. والآخر: إعطاء صورة عملية للإسلام تعجب الرائيين، وتمحو الشبهات القديمة وتنصف الوحي الإلهي.

ويؤسفني أن بعض المنسويين إلى هذه الصحة فشل في تحقيق الأمرين جميعاً، بل ربما نجح في إخافة الناس من الإسلام، ومكّن خصومه من بسط ألسنتهم فيه.

ولنستعرض هنا طائفة من المعارك التي أثاروها، أو المبادئ التي رأوا أنّ ينطلقوا منها. ونبدأ بمعركة النقاب.

قرأت كُتُباً في إحدى دول الخليج يقول فيه مؤلفه: إن الإسلام حرّم الزنا، وإن كشف الوجه ذريعة إليه، فهو حرام لما ينشأ عنه من عصيان.

قلت: إن الإسلام أوجب كشف الوجه في الحج، وألفه في الصلوات كلها، أفكان بهذا الكشف في ركنين من أركانه يثير الغرائز ويمهد للجريمة؟ ما أضلّ هذا الاستدلال!

وقد رأى النبي ﷺ الوجوه سافرةً في المواسم والمساجد والأسواق، فما روي عنه قط أنه أمر بتغطيتها، فهل أنتم أغير على الدين والشرف من الله ورسوله؟ ولننظر إلى كتاب الله ورسوله لنستجلي أطراف الموضوع.

١- إذا كانت الوجوه مغطاة، فَمِمَّ يَغْضُ المؤمنون أبصارهم؟ كما جاء في الآية الشريفة ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ [النور / ٣٠]. أيغضونها عن القفا والظهر؟

الغَضُّ يكون عند مطالعة الوجوه بداهة، وربما رأى الرجل ما يستحسنه من المرأة فعليه ألا يعاود النظر عندئذ، كما جاء في الحديث. قال رسول الله ﷺ: «يا علي لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة».

٢- وقد رأى النبي ﷺ من تستثار رغبته عند النظر المفاجئ، وعندئذ فالواجب على المتزوج أن يستغني بما عنده، كما روى جابر عن النبي ﷺ: «إذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله - أي: ليذهب إلى زوجته - فإن ذلك يرد ما في نفسه».

فإن لم تكن له زوجة فليع قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتَّعْفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور / ٣٣].

حكى القاضي عياض عن علماء عصره - كما روى الشوكاني - أن المرأة لا يلزمها سترُ وجهها وهي تسير في الطريق. وعلى الرجال غضُّ البصرِ كما أمرهم الله.

٣- في أحد الأعياد خطب النبي ﷺ النساء - ومصلى العيد يجمع الرجال والنساء بأمر من رسول الله - فقال لهن: «تصدقن فإن أكثركن حطْبُ جَهَنَّمَ»، فقالت امرأةٌ سفعاءُ الخدَّينِ جالسةٌ في وسط النساء: لم نحن كما وصفت؟ قال: «لأنكن تُكثِرْنَ الشَّكَاةَ وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ»؛ يعني - عليه الصلاة والسلام - أن نساءً كثيراتٍ يَجْحَدْنَ حَقَّ الزَّوْجِ، وَيُنْكِرْنَ ما يَبْدُلُ فِي البَيْتِ، ولا تسمع منهن إلا الشُّكْوَى.

قال الراوي: فجعلن يتصدقن من حُلِيِّهن، يلقين في ثوب بلال من أقراطهن وخواتمهن. والسؤال: من أين عَرَفَ الراوي أن المرأة سفعاء الخدَّين؟ والخذُّ الأسفع هو الجامع بين الحمرة والسمرة. ما ذلك إلا لأنها مكشوفة الوجه. وفي رواية أخرى: كنت أرى النساء وأيديهن تلقي الحلي في ثوب بلال، فلا الوجه عورة ولا اليد عورة.

٤- قال بعض الناس: إن الأمر بكشف الوجه في الحج، أو في الصلاة، يعطي أن الوجه يجب ستره فيما وراء ذلك، وأن على المرأة ارتداء النقاب والقفازين.

ونقول: هل إذا أمر الله الحجاج بتعرية رءوسهم في الإحرام كان ذلك يفيد أن الرءوس تُغَطَّى وجوباً في غير الإحرام؟ من قال ذلك؟ من شاء غطى رأسه ومن شاء كشفه.

٥- عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن امرأة جاءت إلى رسول الله صلوات الله عليه فقالت: يا رسول الله، جئت لأهَبَ لَكَ نفسي، فنظر إليها رسول الله فصعد النظر إليها وصوبه ثم طأطأ رأسه - لم يجبه بشيء - فلما رأت أنه لم يقض فيها بشيء جلست..».

وفي رواية أخرى أن أحد الصحابة خطبها، ولم يكن معه مهر فقال له النبي: «التمس ولو خاتماً من حديد».

وانتهت القصة بزواجه منها.

والسؤال فيم صعد النظر وصوبه إن كانت منقبة؟

٦- عن ابن عباس: «كان الفضل رديف^(١) رسول الله صلوات الله عليه، فجاءت امرأة من خثعم تسأله، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، وجعل رسول الله يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر، فقالت: يا رسول الله إن فريضة الله على عباده الحج، وقد أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: نعم. وكان ذلك في حجة الوداع؛ أي لم يأت بعده حديث ناسخ.

(١) رديف: خلف. (م).

٧- وَحَدَّثَتْ عَائِشَةُ قَالَتْ: كَانَ نِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ يَشْهَدْنَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الْفَجْرِ، مُتَلَحِّفَاتٍ بِمِرْوَطِهِنَّ^(١) - مستورات الأجساد بما يشبه الملاءة - ثم ينقلبن إلى بيوتهن حين يقضين الصلاة، لا يُعرفن من الغلس؛ تعني أنه لولا غبش الفجر لُعرفن لانكشاف وجوههن.

٨- على أن قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور / ٣١] يحتاج إلى تأمل، إذ لو كان المراد إسدال الخمار على الوجه لقال: ليضربن بخمرهن على وجوههن، ما دامت تغطية الوجه هي شعار المجتمع الإسلامي، وما دامت للنقاب هذه المنزلة الهائلة التي تنسب إليه. وعند التطبيق العملي لهذا الفهم اضطرت النساء لاصطناع البراقع أو حجب أخرى على النصف الأدنى للوجه كي يستطعن السير، فإن إسدال الخمار من فوق يُعشي العيون، ويعسر الرؤية. ومن ثم فنحن نرى الآية لا نص فيها على تغطية الوجوه.

ولا شك أن بعض النساء في الجاهلية، وعلى عهد الإسلام كنَّ يغطين أحياناً وجوههن مع بقاء العيون دون غطاء، وهذا العمل كان من العادات لا من العبادات، فلا عبادة إلا بنص.

(١) مِرْوَطٌ: جمع «مِرْطٌ»، وهو كساء من صوف وخلافه لتغطية الرأس. (م).

٩- ويدل على ما ذكرنا: أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ يقال لها: «أم خلاد» وهي مُتَنَقَّبَةٌ تسأل عن ابنها الذي قُتل في إحدى الغزوات، فقال لها بعض أصحاب النبي: جئت تسألين عن ابنك وأنت متنقبة؟ فقالت المرأة الصالحة: إِنَّ أَرْزَأَ ابْنِي فَلَمْ أُرْزَأْ حَيَّائِي. واستغرب الأصحاب لتنقب المرأة دليل على أَنَّ النِقَابَ لَمْ يَكُنْ عِبَادَةً.

١٠- قد يقال: إِنَّ ما رُوِيَ عن عائشة يؤكد أن النِقَابَ تقليد إسلامي، فقد قالت: «كان الركبان يمرون بنا ونحن مُحَرَّمات، فإذا جازوا بنا سدلت إحدانا جِلْبَابَهَا من رأسها على وجهها، فإذا جاوزونا كشفناه»، ونجيب بأن هذا الحديث ضعيف من ناحية السند، شاذ من ناحية المتن، فلا احتجاج به.

والغريب أن هذا الحديث المردود يُرَوِّج له دعاة النِقَاب، مع أنهم يردُّون حديثاً خيراً منه حالاً وهو حديث عائشة أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها وقال: «يا أسماءُ إِنَّ المرأةَ إذا بلغتِ المحيضَ لم يصلحَ أن يُرَى منها إلا هذا، وأشار إلى وجهه وكفيه».

ونحن نعرف أن الحديث مرسل، ولكن الحديث قَوَّتُهُ رواياتٌ أخرى، وهو أقوى من الحديث الذي سبقه.

١١- وأدل على ذلك السفور المباح: ما رواه لنا مسلم أن سبيعة بنت الحارث ترمّلت من زوجها وكانت حاملاً، فما لبثت أياماً حتى وضعت، فأصلحت

نفسها، وتجملت للخطاب. فدخل عليها أبو السنابل أحد الصحابة، وقال لها: مالي أراك متجملة؟ لعلك تريدين الزواج، إنك والله ما تتزوجين إلا بعد أربعة أشهر وعشرة أيام.

قالت سبعة: فلما قال لي ذلك جمعت علي ثيابي حين أمسيت، فأتيت رسول الله ﷺ، وسألته عن ذلك فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي. وأمرني بالتزوج إن بدا لي.

كانت المرأة مكحولة العين مخضوبة^(١) الكف، وأبو السنابل ليس من محارمها الذين يطلعون بحكم القرابة على زينتها، والملابسات كلها تشير إلى بيئة يشيع فيها السفور.

وقد وقع ذلك بعد حجة الوداع، فلا مكان لنسخ حكم أو إلغاء تشريع. وأعرف أن هناك مَنْ ينكر كل ما قلناه هنا، فبعض المتحدثين في الإسلام أشدَّ تطيُّراً^(٢) من ابن الرومي. وهم ينظرون إلى فضائل الدنيا والآخرة من خلال مضاعفة الحجب والعوائق على الغريزة الجنسية.

(١) مخضوبة: ملونة بالحناء. (م).

(٢) تطيُّراً: تشاؤماً. (م).

ويعلم الله أني - مع اعتدادي برأيي - أكره الخلاف والشذوذ، وأحبُّ السير مع الجماعة، وأنزل عن وجهة نظري التي أقتنع بها بغية الإبقاء على وحدة الأمة.

فهل ما قلته رأيي انفردت به؟

كلاً كلاً، إنه رأي الفقهاء الأربعة الكبار، ورأي أئمة التفسير البارزين.

إن الشاغبين على سفور الوجه يظهرون رأياً مرجوحاً، ويتصرفون في قضايا المرأة كُلهما، على نحو يهز الكيان الروحي والثقافي والاجتماعي لأمة أكلها الجهل والاعوجاج لما حكمت على المرأة بالموت الأدبي والعلمي.

إن من علماء المذاهب الأربعة من يرى أن وجه المرأة ليس بعورة، وأثبت هنا نقولاً عن كبار المفسرين من أتباع هذه المذاهب: قال أبو بكر الجصاص - وهو حنفي - في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور / ٣١].

قال أصحابنا: المراد: الوجه والكفان؛ لأن الكحل زينة الوجه، والخضاب والخاتم زينة الكف. فإذا أبيض النظر إلى زينة الوجه والكف فقد اقتضى ذلك لا محالة إباحة النظر إلى الوجه والكفين.

ويقول القرطبي - وهو مالكي: «لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما عادة وعبادة، وذلك في الصلاة والحج. فيصلح أن يكون الاستثناء راجعاً إليهما...».

ويقول الخازن - وهو شافعي - مفسراً الاستثناء في الآية: «قال سعيد بن جبير والضحاك والأوزاعي: الوجه والكفان».

ويقول ابن كثير - وهو سلفي: «ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين، وهذا هو المشهور عند الجمهور...».

وقال ابن قدامة في «المغني» - وهو مرجع حنبلي: المرأة كلها عورة إلا الوجه، وفي الكفين روايتان.

ونختم برأي ابن جرير الطبري في تفسيره الكبير: «أولى الأقوال في ذلك بالصواب من قال - في الاستثناء المذكور عن زينة المرأة المباحة: عني بذلك الوجه والكفين. ويدخل الكحل والخاتم والسوار والخضاب. وإنما قلنا ذلك أقوى الأقوال؛ لأن الإجماع على أن كل مُصَلٍّ يستر عورته في الصلاة، وأن للمرأة أن تكشف وجهها وكفيها في الصلاة، وأن تستر ما عدا ذلك من بدنها، وما لم يكن عورة فغير حرام إظهاره...».

والمذهب الحنفي يضم ظهور القدمين إلى الوجه والكفين، منعاً للحرص.

وبعد هذا السرد نسارع إلى التنبيه بأن المجتمع الإسلامي بما شرع الله له من آداب اللباس والسلوك العام هو شيء آخر غير المجتمع الأوروبي - بشقيّه الصليبي والشيوعي - فإن هذا المجتمع أدنى إلى الفكر المادي البحت، وأقرب إلى الإباحة الحيوانية المسعورة.

إن الملابس هناك تُفصلُ للإثارة لا للستر، والتزين للشارع لا للبيت. والاختلاط لا يعرف التصون أو تقوى الله، والخلوّة ميسورة لمن شاء، والقانون لا يرى الزنا جريمة ما دام بالتراضي. وتكاد الأسر تكون حبراً على ورق.

إن الإسلام شيء آخر مغاير كل المغايرة لهذا الاتجاه الطائش الكفور، فهل أحسننا نحن بناء المجتمع القائم على حدود الله؟

إننا قدمنا للإسلام صوراً تثير الاشمئزاز. وفي خطاب لأحد الدعاة المشاهير قال: إن المرأة تخرج من بيتها للزوج أو للقبر. ثم ذكر حديثاً^(١): «إن امرأة مرض أبوها مرض الموت فاستأذنت زوجها لتعوده فأبى عليها. فلما مات استأذنته أن تشهد الوفاة وتكون مع الأهل عند خروج الجنازة فأبى. قال الخطيب: فلما ذكرت ذلك لرسول الله قال لها: إن الله غفر لأبيك لأنك أطعت زوجك».

(١) نص الحديث كما أخرجه عبد الله بن حميد عن ثابت عن أنس «إن امرأة كانت تحت رجل فمرض أبوها فأتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إن أبي مريض، وزوجي يأبى أن يأذن لي أن أمرّضه. فقال لها النبي: =

أ كذلك يعرض ديننا؟ سجنًا للمرأة تقطع فيه ما أمر الله به أن يوصل؟

وجاءتني رسالة من طالبة منعها أبوها من الالتحاق بالجامعة، قالت: إن أبانا يقول لي ولأخواتي البنات: «إن الله دفنكن أحياء، فلا أتركن لما تردن من خروج».

هذا فهم الأب الأحمق لآية ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ [الأحزاب / ٣٣].

= أطيعي زوجك . فمات أبوها، فاستأذنت زوجها أن تصلي عليه فأبى زوجها أن يأذن لها في الصلاة . فسألت النبي فقال لها: أطيعي زوجك . فأطاعت زوجها ولم تصل على أبيها . فقال لها النبي ﷺ: قد غفر الله لأبيك بطواعيتك لزوجك».

والحديث المذكور لا يعرفه رواة الصحاح، وهو يقطع ما أمر الله به أن يوصل، ويرخص الوفاء بحق الوالدين، وهدفه ألا تخرج المرأة من البيت أبدًا، وهو هدف ينكره الإسلام، وفي الحديث الصحيح: «إن الله أذن لكن أن تخرجن في حوائجكن».

المرأة والأسرة والوظائف العامة

أكره البيوت الخالية من ربّاتها. إن ربة البيت روح يَنْفُثُ^(١) الهناءة والمودة في جنباته، ويعين على تكوين إنسان سويّ طيب. وكل ما يشغل المرأة عن هذه الوظيفة يحتاج إلى دراسة ومراجعة.

وإلى جانب هذه الحقيقة فإنني أكره وأدّ البنت طفلة، ووأدها وهي ناضجة المواهب مرجوة للخير لأمتها وأهلها. فكيف نوفق بين الأمرين؟

لنتفق أولاً على أن احتقار الأنوثة جريمة، وكذلك دفعها إلى الطرق لإجابة الحيوان الرّايض^(٢) في دماء بعض الناس.

والدين الصحيح يأبى تقاليد أم تحبس النساء، وتضيق عليهن الخناق، وتضنّ عليهن بشتى الحقوق والواجبات، كما يأبى تقاليد أم أخرى جعلت الأعراض كلاً مباحاً، وأهملت شرائع الله كلّها عندما تركت الغرائز الدنيا تتنفس كيف تشاء.

يمكن أن تعمل المرأة داخل البيت وخارجه، بيد أن الضمانات المطلوبة لحفظ مستقبل الأسرة، ومطلوب أيضاً توفير جوّ من التّقى والعفاف تؤدي فيه المرأة ما قد تُكلّف به من عمل.

(١) يَنْفُثُ: يُلقِي. (م).

(٢) الرّايض: المقيم. (م).

إذا كان هناك مائة ألف طبيب أو مائة ألف مدرس فلا بأس أن يكون نصف هذا العدد من النساء. والمهم في المجتمع المسلم قيام الآداب التي أوصت بها الشريعة، وصانت بها حدود الله، فلا تبرُّج ولا خلاعة. ولا مكان لاختلاط ماجن هابط، ولا مكان لخلوة بأجنبي ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة / ٢٢٩].

على أن الأساس الذي ينبغي أن ترتبط به أو نظل قريبين منه هو البيت، إنني أشعر بقلق من ترك الأولاد للخدم أو حتى لدور الحضانة.

إن أنفاس الأم عميقة الآثار في إنضاج الفضائل وحماية النشء.

ويجب أن نبحت عن ألف وسيلة لتقريب المرأة من وظيفتها الأولى، وهذا ميسور لو فهمنا الدين على وجهه الصحيح، وتركنا الانحراف والغلو.

أعرف أمهات فاضلات مديرات لمدارس ناجحة، وأعرف طبيبات ماهرات شرفن أسرهن ووظائفهن، وكان التدين الصحيح من وراء هذا كله.

وقد لاحظت أن المرأة اليهودية شاركت في الهزيمة المخزية التي نزلت بنا وأقامت دولة إسرائيل على أشلائنا، إنها أدت خدمات اجتماعية وعسكرية لدينها.

كما أن امرأة يهودية هي التي قادت قومها، وأدلت نفراً من الساسة العرب لهم ولحى وشوارب في حرب الأيام الستة، وفي حروب تالية.

وقد لاحظت في الشمال الأفريقيّ وأقطار أخرى أن الراهبات وسيدات متزوجات وغير متزوجات يخدمن التنصير بحماس واستبسال .

ولعلنا لا ننسى الطيبة التي بقيت في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين، وهي تُهدمُ على رءوس أصحابها، وتحملت أكل الموتى من الحيوانات والجثث، ثم خرجت ببعض الأطفال العرب آخر الحصار لتستكمل معالجةَ عللهم في إنجلترا. إن هناك نشاطاً نسائياً عالمياً في ساحات شريفة رحبة لا يجوز أن ننساه لما يقع في ساحات أخرى من تبذُّل وإسفاف .

وقد ذكّرني الجهادُ الديني والاجتماعي الذي تقوم النساء غيرُ المسلمات به في أرضنا أو وراء حدودنا، بالجهاد الكبير الذي قامت به نساء السلف الأول في نصره الإسلام .

لقد تحملن غربة الدين بشجاعة، وهاجرن وأوين عندما فرضت الهجرة والإيواء، وأقمن الصلوات رائحات غاديات إلى المسجد النبوي سنينَ عدداً. وعندما احتاج الأمر إلى القتال قاتلن .

وقبل ذلك أسدين خدماتٍ طبية؛ أعنّ في المهام التي يحتاج إليها الجيش . وقد ساء وضع المرأة في القرون الأخيرة، وفُرضت عليها الأمية والتخلف الإنساني العام .

بل إنني أشعرُ بأن أحكاماً قرآنيةً ثابتةً أهملتُ كُلَّ الإهمال؛ لأنها تتصل بمصلحة المرأة، منها أنه قلما نالت امرأةٌ ميراثها، وقلما استُشيرت في زواجها. وبين كل مائة ألف طلاقٍ يمكنُ أن يقعَ تمتيعٌ مطلقة. أمَّا قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتْعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة / ٢٤١]. فهو كلامٌ للتلاوة.

والتطويح بالزوجة لِنزوة^(١) طارئة أمرٌ عادي. أمَّا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء / ٣٥]. فحبرٌ على ورق.

المرأة أنزل رتبةً وأقل قيمةً من أن ينعقدَ لأجلها مجلس صلح. إن الرغبة في طردها لا يجوز أن تُقاوم.

وقد نددت في مكانٍ آخر بأن خطيئة الرجل تغتفر، أما خطأ المرأة فدمها ثمَّنُ له.

وقد استغلَّ الاستعمار العالمي في غارته الأخيرة علينا هذا الاعوجاج المنكور، وشنَّ على تعاليم الإسلام حرباً ضاريةً. كأن الإسلام المظلوم هو المسئول عن الفوضى الضاربة بين أتباعه.

(١) نزوة: تقلب. (م).

والذي يثير الدهشة أن مدافعين عن الإسلام أو متحدثين باسمه وقفوا محامين عن هذه الفوضى الموروثة؛ لأنهم - بغباوة رائعة - ظنوا أن الإسلام هو هذه الفوضى، والجنون فنون والجهالة فنون.

إن الأعمدة التي تقوم عليها العلاقات بين الرجال والنساء تبرز في قوله تعالى: ﴿لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران / ١٩٥]، وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل / ٩٧].

وقول الرسول الكريم: «النساء شقائق الرجال».

وهناك أمور لم يَجِئْ في الدين أمرٌ بها أو نهْيٌ عنها، فصارت من قبيل العفو الذي سكت الشارع عنه لِيَتِيحَ لنا حرية التصرف فيه سلْبًا وإيجابًا. وليس لأحد أن يجعل رأيه هنا دينًا، فهو رأي وحسب.

ولعل ذلك سرُّ قول ابن حزم: «إن الإسلام لم يحظر على امرأة تولى منصب ما، حاشا الخلافة العظمى».

وَسَمِعْتُ مَنْ رَدَّ كَلَامَ ابْنِ حَزْمٍ: بِأَنَّهُ مُخَالَفٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ

﴿أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء / ٣٤]. فالآية تفيد - في فَهْمِهِ - أنه لا يجوز أن تكون المرأة رئيسة رجل في أي عمل .

وهذا رد مرفوض، والذي يقرأ بقية الآية الكريمة يدرك أن القِوامة المذكورة هي للرجل في بيته، وداخل أسرته.

وعندما ولى عمرُ قضاءَ الحِسْبَةِ في سوق المدينة للشفاء، كانت حقوقها مطلقاً على أهل السوق رجالاً ونساءً، تحل الحلال، وتحرم الحرام، وتقيم العدالة، وتمنع المخالفات.

وإذا كانت للرجل زوجة طيبية في مستشفى فلا دخلَ له في عملها الفني، ولا سلطان له على وظيفتها في مستشفاهها.

قد يقال: كلام ابن حزم منقوض بالحديث «خاب قومٌ وكوا أمرهم امرأة». وجعل أمور المسلمين إلى النساء يُعرض الأمة للخيبة، فينبغي ألا تُسند إليهن وظيفة كبيرة ولا صغيرة.

وابن حزم يرى الحديث مقصوراً على رئاسة الدولة، أما ما دون ذلك فلا علاقة للحديث به.

ونحب أن نلقي نظرة أعمق على الحديث الوارد، ولسنا من عشاق جعل النساء رئيسات للدول أو رئيسات للحكومات. إننا نعشق شيئاً واحداً؛ أن يرأس الدولة أو الحكومة أكفأ إنسان في الأمة.

وقد تأملت في الحديث المروي في الموضوع، مع أنه صحيحٌ سنداً ومنتناً. ولكن ما معناه؟

عندما كانت فارس تتهاوى تحت مطارق الفتح الإسلامي كانت تحكمها ملكية مستبدة مشئومة.

الدين وثني، والأسرة المالكة لا تعرف سُورى، ولا تحترم رأياً مخالفاً، والعلاقات بين أفرادها بالغة السوء. قد يقتل الرجل أباه أو إخوته في سبيل مآربه، والشعب خانع^(١) منقاد.

وكان في الإمكان، وقد انهزمت الجيوش الفارسية أمام الرومان الذين أحرزوا نصراً مبيناً بعد هزيمة كبرى وأخذت مساحة الدولة تتقلص، أن يتولى الأمر قائد عسكري يقف سبيل الهزائم، لكن الوثنية السياسية جعلت الأمة والدولة ميراناً لفتاة لا تدري شيئاً، فكان ذلك إيذاناً بأن الدولة كلها إلى ذهاب. في التعليق على هذا كله، قال النبي الحكيم كلمته الصادقة، فكانت وصفاً للأوضاع كلها.

ولو أن الأمر في فارس سُورى، وكانت المرأة الحاكمة تشبه «جولدا مائير» اليهودية التي حكمت إسرائيل، واستبقت دفّة الشئون العسكرية في أيدي قادتها، لكان هناك تعليق آخر على الأوضاع القائمة.

(١) خانع: ذليل، خاضع. (م).

ولك أن تسأل: ماذا تعني؟ وأجيب: بأن النبي - عليه الصلاة والسلام - قرأ على الناس في مكة سورة النمل، وقصَّ عليهم في هذه السورة قصة ملكة سبأ التي قادت قومها إلى الإيمان والفلاح بحكمتها وذكائها، ويستحيل أن يرسل حكماً في حديث يناقض ما نزل عليه من وحي.

كانت بلقيس ذات ملك عريض، وصفه الهدهد بقوله: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمَلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل / ٢٣].

وقد دعاها سليمان إلى الإسلام، ونهاها عن الاستكبار والعناد، فلما تلقت كتابه، تروّت في الرد عليه، واستشارت رجال الدولة الذين سارعوا إلى مساندتها في أي قرار تتخذه، قائلين: ﴿نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسِّ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل / ٣٣].

ولم تغترّ المرأة الواعية بقوتها ولا بطاعة قومها لها، بل قالت: نختبر سليمان هذا لنتعرّف أهو جبار من طلاب السطوة والثروة أم هو نبي صاحب إيمان ودعوة؟ ولما التقت بسليمان بقيت على ذكائها واستنارة حكمها تدرس أحواله وما يريد وما يفعل، فاستبان لها أنه نبي صالح.

وتذكرت الكتاب الذي أرسله إليها: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأَنُؤِنِّي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل / ٣٠-٣١]، ثم قررت طرح

وثنيتهما الأولى والدخول في دين الله قائلة: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ
مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل / ٤٤].

هل خاب قوم ولّوا أمرهم امرأة من هذا الصنف النفيس؟ إن هذه المرأة
أشرف من الرجل الذي دعته ثمود لقتل الناقة ومراغمة^(١) نبيهم صالح ﴿فَادَا
صَاحِبَهُمْ فَعَاطَى فَعَقَرَ . فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنُدْرٍ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَنَجْدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ
الْمُحْطَرِّ . وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ [القمر / ٢٩ - ٣٢].

ومرة أخرى أؤكد أنني لست من هواة تولية النساء المناصب الضخمة، فإن
الكملة من النساء قلائل، وتكاد المصادفات هي التي تكشفهن، وكل ما أبغي، هو
تفسير حديث، ورد في الكتب، ومنع التناقض بين الكتاب وبعض الآثار الواردة،
أو التي تفهم على غير وجهها. ثم منع التناقض بين الحديث والواقع التاريخي.

إن إنجلترا بلغت عصرها الذهبي أيام الملكة «فيكتوريا»، وهي الآن بقيادة
ملكة ورئيسة وزراء، وتعدّ في قمة الازدهار الاقتصادي والاستقرار السياسي.
فأين الخيبة المتوقعة لمن اختار هؤلاء النسوة؟

وقد تحدثت في مكان آخر عن الضربات القاصمة التي أصابت المسلمين
في القارة الهندية على يدي «إنديرا غاندي»، وكيف شطرت الكيان الإسلامي
شطرين فحققت لقومها ما يصبون.

(١) مراغمة: مغاضبة. (م).

على حين عاد المرشال، يحيى خان يجزر أذبال الخيبة.

أما مصائب العرب التي لحقت بهم يوم قادت «جولدا مائير» قومها فحدث ولا حرج. قد نحتاج إلى جيل آخر لمحوها. إن القصة ليست قصة أنوثة وذكورة. إنها قصة أخلاق ومواهب نفيسة.

لقد أجزت إنديرا انتخابات لترى أيتها قومها للحكم أم لا؟ وسقطت في الانتخابات التي أجزتها بنفسها، ثم عاد قومها فاختاروها من تلقاء أنفسهم دون شائبة إكراه.

أما المسلمون فكانهم متخصصون في تزوير الانتخابات للفوز بالحكم ومغانمه، برغم أنوف الجماهير.

أي الفريقين أولى برعاية الله وتأييده والاستخلاف في أرضه؟ ولماذا لا نذكر قول ابن تيمية: «إن الله قد ينصر الدولة الكافرة - بعدلها - على الدولة المسلمة بما يقع فيها من مظالم؟».

ما دخل الذكورة والأنوثة هنا؟ امرأة ذات دين خير من ذي لحية كفور. والمسلمون الآن نحو خمس العالم، فكيف يعرضون دينهم على سائر الناس؟

ليهتموا قبل أي شيء بأركان دينهم وعزائمه وغاياته العظمى. أما ما سكت الإسلام عنه فليس لهم أن يلزموا الناس فيه بشيء قد ألفوه هم أنفسهم من قبل.

إننا لسنا مكلفين بنقل تقاليد عَبَسَ وذُبَّانَ إلى أمريكا وأستراليا، إننا مكلفون بنقل الإسلام وحسب.

والأمم تلتقي عند الشؤون المهمة. هب أن الإنكليز يلزمون الجانب الأيسر من الطريق على عكس غيرهم من أهل أوروبا، إنَّ ذلك لا تأثير له في حلف الأطلسي ولا في دستور الأسرة الأوروبية.

وإذا كان الفقهاء المسلمون قد اختلفت وجهات نظرهم في تقرير حكم ما، فإنه يجب علينا أن نختار للناس أقرب الأحكام إلى تقاليدهم.

والمرأة في أوروبا تباشر زواجها بنفسها، ولها شخصيتها التي لا تتنازل عنها، وليست مهمتنا أن نفرض على الأوروبيين مع أركان الإسلام رأي مالك أو ابن حنبل إذا كان رأي أبي حنيفة^(١) أقرب إلى مشاربهم^(٢)، فإن هذا تنطع^(٣) أو صد عن سبيل الله.

(١) قال الأحناف: إن القرآن أسند عقد الزواج إلى المرأة وقال: ﴿حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة / ٢٣٠]،

وقال: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة / ٢٣٤] فعقدها المباشر صحيح، وإذا اعترض الولي تولى القضاء الحكم في النزاع. وردوا حديث «أما امرأة أنكحت نفسها فنكاحها باطل باطل باطل» لأنه يخالف ظاهر القرآن.

رفض أحد القراء مذهب أبي حنيفة، وقال: إن لفظة «تنكح زوجاً غيره» حقيقة في الوطء وحده. وهذا اعتراض فاحش مدهش.

هل النكاح المنشود يقع عن زنى أو عن زواج؟ لا أظن عاقلاً يزعم أن الزنى يحلل المرأة لزواجها الأول، فلم يبق إلا أن كلمة «تنكح» حقيقة في العقد والوطء معاً، ولكن التعصب المذهبي يجر أصحابه إلى الغرائب.

(٢) مشاربهم: ميولهم. (م).

(٣) تنطع: مغالاة. (م).

وإذا ارتضوا أن تكون المرأة حاكمة أو قاضية أو وزيرة أو سفيرة، فلهم ما شاءوا، ولدينا وجهات نظر فقهية تميز ذلك كله، فلم الإكراه على رأي ما؟ إنَّ من لا فقه لهم يجب أن يغلقوا أفواههم لئلا يسيئوا إلى الإسلام بحديث لم يفهموه أو فهموه وكان ظاهر القرآن ضده.

والجماعة من شعائر الإسلام، ومنذ قام المجتمع الإسلامي والمسجد محور نشاطه ومُلتقى أبنائه، تتصافح فيه الوجوه والأيدي، وتتلاقى فيه على الحب والتعاون.

ويقف المؤمنون في صفوف مرصوصة بين يدي الله تبارك وتعالى قدماً لقدم وكتفًا لكتف، يزينهم الخشوع لسماع القرآن، والتسبيح والتحميد خلال الركوع والسجود.

وأثر الصلاة الفكري والخلقي عميق، فإن القرآن المتلو يرفع المستوى ويورث التقوى، واللقاء المتكرر يصون العلاقات الخاصة والعامة، ويجعل الأمة تواجه يومها وغدها وهي متعارفة لا متناكرة.

وتمَّ أمرٌ آخر، أنَّ المبطلين أقاموا في هذه الدنيا جَوْاً من المادية والأطماع والمآرب الصغيرة يملأ أنديتهم، ويسود طرقهم، ويصنع تقاليدهم، ويدعم بُعدهم عن الله وكفرهم بآياته، فيجب أن يكون للمؤمنين جَوْاً أنقى يعلو فيه ذكرُ الله، وتسمع فيه قضايا الحق، ويتحول فيه الإيمان بالغيب إلى حقائقٍ مأنوسةٍ لا خيالاتٍ مستوحشة.

من ثم كانت الجماعة من معالم الدين. وبعض الفقهاء يرى الجماعة فرضاً للصلوات الخمس لا يسقطه إلا عذرٌ صحيح، ولكن الذي عليه جمهور الأمة أن الجماعة سنة مؤكدة.

فهل هي سنة مؤكدة للرجال والنساء على السواء؟ كذلك يقول الظاهرية. ولكن الأمر يحتاج إلى تأمل.

فقد صحَّ في السنة أن المرأة راعيةٌ في بيتها وهي مسئولة عن رعيته. ولا ريب أن شئون الأولاد خصوصاً الرُّضْع، وإعداد البيت لاستقبال الرجل العائد من عمله، كل ذلك يحول دون انتظام المرأة في الجماعات الخمس.

ولذلك نرى أن حضور الجماعات مطلوبٌ منها بعد أن تفرغ من وظائف بيتها، فإذا قامت بما عليها فلا يجوز لرجلها أن يمنعها من الذهاب إلى المسجد، وقد جاء في الحديث «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله».

ونحن موقنون بأن النبي - عليه الصلاة والسلام - جعل أحد أبواب المسجد خاصاً بالنساء، وأنه أقامهن في الصفوف المؤخرة من المسجد - وذلك أصونٌ لهن في الركوع والسجود - وأنه زَجَرَ الرجال الذين يقتربون من صفوفهن، كما زجر النساء اللاتي يتقدمن قريباً من صفوف الرجال.

وقد بقيت صفوف النساء في المسجد طيلة العهد النبوي وأيام الخلافة الراشدة، لم يشغب عليها شاغب، تبدأ مع الفجر وتنتهي عند العشاء.

وربما قامت للنساء جماعاتٌ حاشدةٌ لصلاة التراويح في رمضان، ومعروف أن اشتراكهن في صلاة العيد وسماع الخطبة من شعائر الإسلام.

بيد أن الازدهار الذي أحدثه الإسلام في عالم المرأة أخذ يتعرض للذبول والتلاشي، فوضع حديث يمنع تعليم النساء الكتابة، كي يبقين على أميَّتهن الأولى.

لحساب من تعود هذه الجاهلية؟

وعندما يفرض على نصف الأمة الجهل والعمى فكيف تنشأ الأجيال المقبلة؟

ثم شاع حديث آخر يأتي على النساء حضور الجماعات كلها، بل طلب من المرأة إذا أرادت الصلاة في بيتها أن تختار المكان الموحش المعزول، فصلاتها في سرِّدَاب^(١) أفضل من صلاتها في الغرفة، وصلاتها في الظلمة أفضل من صلاتها في الضوء.

وراوي هذا الحديث يطوح وراء ظهره بالسنن العملية المتواترة عن صاحب الرسالة.

وينظر إلى المرأة المصلية وكأنها أذى يجب حصره في أضيق نطاقٍ وأبعده. ولنقرأ هذا الحديث الغريب كما ذكره ابن خزيمة وغيره:

(١) سرِّدَاب: مكان ضيق. (م).

«عن أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي أنها جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إني أحب الصلاة معك، قال: قد علمت أنك تحبين الصلاة معي. وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك. وصلاتك في حجرتك، خير من صلاتك في دارك، وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدك». قال الراوي: «فأمرت فبني لها مسجداً في أقصى شيء من بيتها وأظلمه، وكانت تصلي فيه حتى لقيت الله ﷻ».

والبيت في الحديث هو غرفة النوم، والحجرة غرفة الجلوس، والصلاة في الأولى أفضل من الصلاة في الأخرى.

والصلاة في غرفة الجلوس أفضل من الصلاة في عَرَصَةِ الدَّارِ^(١)، وهي في عَرَصَةِ الدَّارِ أفضل من الصلاة في مسجد الحي.

وكلما ضاق المكان وبعد واستوحش كانت الصلاة فيه أفضل.

ويجعل ابن خزيمة عنوان الباب الذي ذكر فيه هذه القضايا «صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في مسجد رسول الله، وأن قول النبي - عليه الصلاة والسلام: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد» إنما أراد به صلاة الرجال دون صلاة النساء.

(١) عَرَصَةُ الدَّارِ: وسطها. (م).

والسؤال السريع إن كان هذا الكلام صحيحاً فلماذا ترك النبي النساء يشهدن الجماعات معه طوال عشر سنين من الفجر إلى العشاء؟ ولماذا خص أحد أبواب المسجد بدخولهن؟ ولماذا لم ينصحهن بالبقاء في البيوت بدل هذه المعاناة الباطلة؟ ولماذا قصر صلاة الفجر على سورتين صغيرتين عندما سمع بكاء رضيع مع أمه حتى لا ينشغل قلبها؟

ولماذا قال: لا تمنعوا إماء الله مساجد الله؟ ولماذا استبقت الخلافة الراشدة صفوف النساء في المساجد بعد وفاة الرسول الكريم؟ إن ابن حزم أراح نفسه وأراح غيره عندما كذب أحاديث منع النساء من الصلاة في المساجد، وعدّها من الباطل.

وعلماء المصطلح يقولون: يعتبر الحديث شاذاً إذا كان الثقة قد خالف به الأوثق.

فإذا كان المخالف ليس ثقة بل ضعيفاً، فحديثه متروك أو منكراً.

ولم يجز في أحد الصحيحين ما يفيد منع النساء من الصلاة في المساجد، فهذه الأحاديث مردودة كلها. فكيف إذا خالف الضعيف السنة العملية المتواترة والمشهورة؟ إن حديثه يستبعد ابتداءً.

وقد أتت على المسلمين عصور ماتت فيها السنة الصحيحة، ولا تزال هذه المأساة باقيةً تتعصب لها بيئات لا تعرف إلا المرويات المتروكة والمنكرة.

وقد يقبل زجر المرأة عن حضور الجماعات إذا كانت مُتَبَرِّجَةً، فإن الذَّهَابَ إلى المساجد ليس استعراضاً للزينات، وبعثرة للفتن . إنه سعيٌّ لمرضاة الله، وغرسٌ للتقوى .

وحجز النساء عن هذا الشر هو بتنفيذ وصاة رسول الله «..... يَخْرُجْنَ تَفْلَاتٍ»؛ أي: في ملابسٍ عاديةٍ وهيئةٍ طبيعيةٍ لا تعطر ولا تبخرت .
أما إصدار حكم عام بتحريم المساجد على النساء فهو مسلك لا صلة له بالإسلام .

وإن الفقهاء ليرتاعون لما يرويه المحدثون مخالفاً لما ثبت لديهم .

انظر ما رواه المنذري تحت عنوان «الترهيب من ترك التسمية على الوضوء عمداً»، قال الإمام أبو بكر بن أبي شيبة رحمه الله: «ثبت لدينا أن النبي ﷺ قال: «لا وضوء لمن لم يسم الله...» .

وعن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «لا صلاة لمن لا وضوء له، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه» .

وفقهاء المذاهب على أن التسمية سنة لا فريضة، واحتجوا بما رواه الدارقطني والبيهقي عن ابن عمر مرفوعاً: «من توضأ وذكر اسم الله عليه كان طهوراً لجميع بدنه، ومن توضأ ولم يذكر اسم الله عليه كان طهوراً لأعضاء وضوئه»، قال المنذري: «في الباب أحاديث كثيرة لا يسلم شيء منها عن مقال» .

وقد ذهب الجمهور إلى أن التسمية على الوضوء سنة، وذهب الحنابلة والظاهرية إلى أنها فريضة، والأحاديث المروية بالسلب أو الإيجاب موضع أخذ ورد، ولا داعي للتهويل في الأمر.

ومن الخير أن نعلم أن الفرض لا يثبت إلاّ بدليل قطعيّ، وأنّ التحريم لا يثبت إلاّ بدليل قطعيّ، وأن الأدلة الظنية لها دلالات أقلّ من ذلك.

والذي يدخل ميدان التدين وبضاعته في الحديث مُزجاة^(١) كالذي يدخل السوق ومعه نقود مُزيّفة. لا يُلومَنَّ إلاّ نفسه إذا أخذته الشرطة مُكبّل اليدين.

ونريد من الجماعات العاملة للإسلام أن تكون يقظةً فلا تنخدع بالآثار الواهية، والأحاديث الموضوعية، كما نريد منها أن تعرف المعاني الصحيحة لما صحّ من نقول.

وأئمة الفقه هم أربابُ تلك الصناعة.

(١) مزجاة: قليلة رديئة مردودة. (م).

حَوْلَ شَهَادَةِ الْمَرْأَةِ

ومعروفٌ أن شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل، وقد علل القرآن الكريم لذلك بأن المرأة قد تنسى أو تحار أو يشتبه عليها وجه الحق، وعندما تكون معها امرأة أخرى فسوف يتعاونان على الإدلاء بالحقيقة كاملة.

وقد بحثت في هذا الموضوع فأدركت أن المرأة في عاداتها الشهرية تكون شبه مريضة، وأن انحراف مزاجها واضطراب أجهزتها الحيوية يصيبها ببعض الارتباك. والتثبت في أداء الشهادات واجب.

ذاك سرُّ قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة / ٢٨٢].

وكان يجب أن يقف الأمر عند هذا الحد، لكن تياراً نشأ في الفكر الديني يستبعد شهادة المرأة استبعاداً تاماً في أهم ميادين التقاضي. وهو ميدان القصاص والحدود أي فيما يتصل بالدماء والأعراض.

وإذا كان اللصوص يسرقون البيوت ليلاً أو نهاراً فما معنى رفض شهادة المرأة في حد السرقة؟ وإذا كان العدوان على النفس والأطراف يقع كثيراً بمشهد من النساء فما معنى أن ترى المرأة مصرعَ أليها أو أقرب الناس إليها ثم تُرفض شهادتها؟

ولماذا لم يلتزم نصاب الشهادة كما ذكره القرآن الكريم؟

إن ابن حزم في تمحيصه للأثار المروية يؤكد أن رفض شهادة النساء في الحدود والقصاص لا يوجد له أصل في السنة النبوية.

ولست أحبُّ أن أوهن ديني أمام القوانين العالمية بموقف لا يستند استناداً قوياً إلى النصوص القاطعة. وإذا كان المسلمون الآن أكثر من مليار نفس فما معنى التطويح بكرامة خمسمائة مليون امرأة لقول أحد من الناس؟

المأساة أننا نحن المسلمين مولعون بضم تقاليدنا وآرائنا إلى عقائد الإسلام وشرائعه لتكون ديناً مع الدين، وهدياً من لدن رب العالمين. وبذلك نصدّ عن سبيل الله.

وأذكر هنا قصة الناقة التي عرضها صاحبها بعشرة دراهم، واشترط أن تباع قلاذتها معها بألف درهم. فكان الناس يقولون: ما أرخصَ الناقةَ لولا هذه القلاذة الملعونة!

وأقول كذلك: ما أيسرَ الإسلامَ وأيسرَ أركانهُ، وما أصدقَ عقائدهُ وشرائعهُ، لولا ما أضافه أتباعه من عند أنفسهم، واشترطوا على الناس أن يأخذوا به ويدخلوا فيه!

ولننقل كلام ابن حزم في موضوع الشهادة من كتابه «المحلّى».

قال: «ولا يجوز أن يقبلَ في الزنا أقلُّ من أربعة رجالٍ عدولٍ مسلمين، أو مكان كل رجل امرأتان مسلمتان عدلتان فيكون ذلك ثلاثة رجالٍ وامرأتين، أو رجلين وأربع نسوةٍ، أو رجلاً واحداً وست نسوةٍ أو ثمانٍ نسوةٍ فقط.

ولا يُقبلُ في سائر الحقوق كلها من الحدود والدماء وما فيه القصاص، والنكاح والطلاق والرجعة والأموال إلا رجلاً مسلماً عدلاً، أو رجل وامرأتان كذلك، أو أربع نسوة، قال: «وصحَّ عن شريح أنه أجاز شهادة امرأتين في عتاقة مع رجل».

وصحَّ عن الشعبي قبولُ شهادة رجل وامرأتين في الطلاق وجراح الخطأ، ولم يُجزَّ شهادة النساء في جراح عمد ولا في حدٍّ.

وصحَّ عن إياس بن معاوية قبولُ امرأتين في الطلاق.

وعن محمد بن سيرين أن شريحاً أجاز شهادة أربع نسوة على رجل في صداق امرأة.

وعن الزبير بن الخريت عن لبيد قال: «إن سكراناً طلق امرأته ثلاثاً، فشهد عليه أربع نسوة فرفع إلى عمر بن الخطاب فأجاز شهادة النسوة، وفرق بين الزوجين».

وعن سفيان بن عيينة عن أبي طلق عن امرأة: أن امرأة أوطأت صبياً فقتلته فشهد عليها أربع نسوة، فأجاز علي بن أبي طالب شهادتهن.

وعن عطاء قال: «أجاز عمر بن الخطاب شهادة النساء مع الرجال في الطلاق والنكاح». وفي رواية أخرى عن عطاء بن أبي رباح قال: «تجوز شهادة النساء مع الرجال في كل شيء».

قال ابن حزم عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال في حديث: «شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل».

أما ما جاء عن الزهري الذي قال: «مضت السنة من النبي ﷺ ومن أبي بكر وعمر أنه لا تجوز شهادة النساء في الطلاق ولا في النكاح، ولا في الحدود، فبليّة؛ لأنه منقطع من طريق إسماعيل بن عياش - وهو ضعيف - عن الحجاج بن أرطاة وهو هالك.

وأما الرواية عن عمر: لو فتحنا هذا الباب لم تشأ امرأة أن تفرق بين رجل وامرأته إلا فعلت ذلك، فهو عن الحارث الغنوي وهو مجهول، ثم إن عمر لا يقول هذا الكلام.

انتقيت هذه السطور من عدة صفحات تضمنت آراء فيها الخطأ والصواب، ومرويات فيها المقبول والمردود، ورأيت - حتى أستنقذ نفسي والناس من هذه

اللُّجَّة - أن أعتصم بالمتواتر من كتاب الله، والمشتهر من السنة النبوية، وأن أقرّر قبولَ شهادةِ المرأةِ في كل شيء وفقَ النصابِ الثابت في ديننا.

ومن حق كل مسلم أن يتجاوز ما وراء ذلك غير متهم ولا مريب.

ولي أن أتساءل: هل من مصلحة الأمن العام إهدارُ شهادة المرأة في قضايا يقع ألوف منها بمحضر النساء؟ وهل من مصلحة الفقه والأثر ترجيحُ مذهبٍ يُسيءُ إلى الإسلام أكثر مما يحسن؟

ثم نختم هذا الباب بقول ابن حزم: «وجائز أن تليَ المرأةَ الحكم»، وهو قول أبي حنيفة، وقد روي عن عمر بن الخطاب أنه وليَ الشفاء - امرأةً من قومه - السُّوقَ، فإن قيل: قد قال رسول الله ﷺ: «لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة»، قلنا: إنما قال ذلك رسول الله في الأمر العام الذي هو الخلافة.

برهان ذلك: قوله - عليه الصلاة والسلام: «المرأة راعية على مال زوجها وهي مسئولة عن رعيتهَا».

وقد أجاز المالكيون أن تكون وصية ووكيلة^(١) «ولم يأت نص من منعها أن تليَ بعضَ الأمور. وبالله تعالی التوفيق ..».

(١) وأجاز الأحناف توكيلها بالخصومة «المحامية».

الغناء

خبر الواحد وقيّمته - ابن حزم يناقش ما ورد في تحريم الغناء من أخبار
الترويح عن النفس بالمباحات - نماذج للغناء الشريف
فساد أغلب البيئات الفنية - التطرف في التحريم نزعة غير إسلامية.

الغناء



محمد صاحب الرسالة الخاتمة أحبَّ البشر إلينا وأجلَّهم نعمًا لدينا.
وإذا حُسبتْ أقدارُ الناس، وفقَ جهادهم لإحقاق الحق وإبطال الباطل،
فمحمد أصدقهم قِيلًا وأهداهم سبيلًا وأقدرهم - بالخلق الجميل والصبر الطويل -
على إبراز الحقيقة وحمائتها وتفتيح الجفون المغلقة على سناها.
لقد أنصف الوحي الإلهي كله، وصانه مما عراه خلال القرون الأولى، وعرفنا
بالله الأحد الصمد، وخطَّ لنا سبيل رضاه في وجه سلطات شرسة وكهانات خرفة،
وجماهير توارثت الخَبَالَ.

ولم يزل يصابر الليالي ويكافح الطغاة حتى بلغ رسالة الهدى والخير، فله في
أعناقنا صنائع المعروف لا ننساها له أبدًا، وإن جهل الجاهلون وجحد الجاحدون.
إن نبوة محمد تَلَقَى في هذا العصر تحديًا نلقاه بالازدراء^(١)، تشارك فيه
الصهيونية والصليبية والشيوعية، يحاولن جميعًا غَمَط^(٢) حقه وبخس تراثه.

(١) الازدراء: الاحتقار. (م).

(٢) غَمَط: جَحَد. (م).

ولكننا ننظر إلى ما تقدّم هذه النحل^(١) للدنيا من عوج وشر، وما يقدمه محمدٌ للدنيا - في كتابه وسنته - من استقامة وخير، ونعلم أنّ المستقبل لنا، وأن يوم الإسلام قادم ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد / ١٧].

والمهم أن نعرف رسالتنا بصدق، وأن نطبقها على أنفسنا بوفاء، وأن نبليغها إلى الناس سماوية لا يعلق بها من أقدار الأرض قذى ينفر منها أصحاب الفطر السليمة.

نحن نعلم أن الأنبياء كلهم مبلغون عن الله، ولا نعجب عندما نقرأ قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء / ٨٠]، وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران / ٣١].

فللرسول علينا حقّ السمع والطاعة، ونحن ندرس سيرته لننهج نهجه ونقتفي أثره ونقتدي به فيما فعل وترك.

ولا خلاف بين المسلمين في أن محمداً أسوتهم الحسنة وإمامهم الأول، والصورة العملية الوسيمة لما في القرآن الكريم من هدى ونور.

وعندما نقرر مصادر الأحكام فالإجماع منعقد على أن الأصلين الأولين هما الكتاب والسنة. والكتاب لا ترقى إليه شبهة؛ فهو متواتر حرفاً حرفاً، ونحن نؤمن به جملة وتفصيلاً.

(١) النحل: العقائد. (م).

وما بلغ من السنة درجة اليقين فسبيله سبيل القرآن الكريم لا يزيغ عنه إلا هالك. ومن علم على وجه اليقين أن رسول الله أصدر أمرًا ثم قرر رفضه فقد انسلخ عن الملة^(١)، لا خلاف في هذا.

وإذا وقع لَغَطٌ^(٢) حول حديثٍ ما فمداره: هل قال الرسول هذا؟ أم لم يقله؟ فالكلام في صحة النسبة وفي ضمانات هذه الصحة، لا في جواز التقدّم بين يدي الله ورسوله، أو أخذ ما يعجب وترك ما لا يعجب.

وقد قرأت البحث الذي كتبه الأستاذ الشيخ يوسف القرضاوي في أسلوب التعامل مع السنة^(٣)، فوجدته أوفى على الغاية، وجمع أنفس ما يقال في هذه القضية. والحق أن الشيخ يوسف من العلماء الذين يظهرون بقلّة في تاريخنا ولهم رسوخ في الفقه والأثر، وبصرٌ بالنص الإلهي وواقع الحياة، بل هو في ميدانه إمام من الثقات العدول، والدعاة الأمناء.

وأنا أطمع في أن أضيف إلى جهده أشياء ليست استدرأكا عليه، وإنما هي إضافات توضح مواقف جمهرة المسلمين من السنة الشريفة، عندما يتركون حديثًا من الأحاديث للملحظ آخر من ملاحظ الشريعة رأوه أجدد بالترجيح.

(١) انسلخ عن الملة: نزع نفسه منها بأن كفر بها. (م).

(٢) لَغَطٌ: صوت وجلبة. (م).

(٣) صدر الكتاب بالفعل في عام ١٤١٠هـ/١٩٨٩م وطبع منه عدة طبعات في المعهد العالمي للفكر الإسلامي

ودار الشروق. (م).

وقبل أن أشرح ما عندي أحب أن أقول: إنني مع الجماعة الكبرى أستظل بلوائها وأنتظم في صفوفها وأكره الشذوذ، وأرفض الخروج على ما ارتضاه جمهور الأمة.

إنني أعرفُ العداواتِ الرهيبةَ التي تواجهها أمتنا في هذه السنوات العجافِ^(١)، وأريد أن تَبْقَى جبهتنا متحدةً لصون بيضتنا^(٢) وكبتِ عدونا.

لقد تخرجت في الأزهر من نصف قرن، ومكثت في الدراسة بضع عشرة سنة لم أعرفُ خلالها إلاَّ أنَّ حديث الأحاد يفيد الظنَّ العلميَّ، وأنه دليلٌ على الحكم الشرعي ما لم يكن هناك دليلٌ أقوى منه، والدليل الأقوى قد يؤخذ من دلالات القرآن القريبة والبعيدة، أو من السنة المتواترة، أو من عمل أهل المدينة. والقول بأن حديث الأحاد يفيد اليقين، كما يفيد المتواتر، ضربٌ من المجازفة المرفوضة عقلاً ونقلاً. ومن هنا فقد ألفنا قبولَ أحكامٍ شتى تخالف المتبادر من بعض الروايات الصحيحة.

كنت - وأنا أدرس الفقه على المذهب الحنفي - أسمع المالكيين يقولون: من أفطر في رمضان ناسياً فعليهِ القضاء، أو يقولون: الشك ينقض الوضوء، وهذا يخالف أحكاماً مقررةً عندنا تعتمد على أحاديثٍ صحيحةٍ.

(١) العجاف: لا قطر فيها ولا خصب. (م).

(٢) بَيَّضْنَا: أصلنا. (م).

وكنا لا نقرأ حرفاً وراء الإمام في الصلوات الخمس، أو نتركُ البسملة أحياناً لما استقر عندنا من مرويات، على حين كان الشافعيون يصرون على تلاوة الفاتحة، ويرون البسملة جزءاً منها.

ولم نكنُ نشعر بغضاضة من هذا الاختلاف، وإذا ثار جدلٌ علمي ركد بعد قليل غيرَ مخلف غضباً ولا أسفاً.

وفي المذهب الحنفي يعرفُ الفرض بأنه ما ثبت بدليل قطعي، أمّا الواجب - وهو دون الفرض - فما ثبت بدليل ظني، ويعني ذلك أن حديث الأحاد لا يثبت به فرض، كما أنه لا يقع به تحريم، بل يفيد الكراهية وحسب.

وعندما توَعَّلنا في دراسة القرآن الكريم وجدنا المفسرين المحققين يجنحون إلى ذلك المنهج. يقول صاحبُ المنار: «التفرقة بين ما ثبت بنص القرآن من الأحكام، وما ثبت بروايات الأحاد وأقيسة الفقهاء ضرورية، فإن من يجحد ما جاء في القرآن الكريم يحكم بكفره، ومن يجحد غيره ينظر في عذره. فما من إمام مجتهد إلا وقد قال أقوالاً مخالفةً لبعض الأحاديث الصحيحة لأسباب يعذر بها، وتبعه الناس على ذلك. ولا يعدُّ أحد ذلك عليهم خروجاً من الدين حتى من لا عذر له في التقليد».

ثم نقل صاحبُ المنار عن ابن القيم في كتابه إعلام الموقعين قوله: «الربا نوعان: جليٌّ وخفيٌّ، فالجلي حرم لما فيه من الضرر العظيم، والخفي حرم لأنه ذريعة إلى الجلي..».

ويرى ابن القيم أن ربا الفضل المعروف في حديث الأصناف الستة إنما حُرِّمَ من باب سدِّ الذرائع، والواقع أن ربا الفضل لا يكاد يوجد في الحياة العملية. فما معنى أن تبيعَ جراماً من ذهب بجرام من ذهب مثلاً بمثل، هاء وهاء؟ المقصود إغلاق الباب من بعيد على ربا النسيئة. والحق أن الحديث المتفق عليه في تحريم التفاضل والإرجاء بين الأصناف الستة لا يفهم إلا في ضوء بيان ابن القيم.

إن العقائد والأركان والمعالم الرئيسية لديننا تؤخذ مما نقل بالتواتر، أو بما استفاضت شهرته من الصحاح، أما الأحكام الفرعية فلا بأس عند تقريرها من النظر في أحاديث الأحاد، وقد بذل علماؤنا جهداً مقدوراً مشكوراً في ضبطها، إنهم لم يهدروا نقل عدل ضابط، بل أعطوه ما يستحق من اهتمام. بيد أننا في ميدان الشهادة لا نحمي دماء الناس وأعراضهم وأموالهم بشهادة رجل واحد مهما كانت جلالته، إننا نطلبُ شاهدين أو أربعاً في الإثبات، ودين الله أهم من دنيا الناس.

ذلك، وهناك قضايا لا يجوز فيها التساهل لخطورتها، وقد شعرت بالغيظ والخرج وأنا أقرأ أن يهودياً وُغِدَّ سحر النبي - عليه الصلاة والسلام، وأعجزه عن مباشرة نسائه مدةً قَدَّرها ابن حجر بستة شهور. أكذاك تنال القمم؟

قالوا: كما يستطيع سفيه أن يقذفه بحجر أو كما يستطيع مجرم أن يصيبه بِجُرْح. وهذا اعتذار مرفوض، فإن السحر تسلط على الإرادة والفكر وهذا

مستحيل، لاسيما والوسيلة تسليط أرواح شريرة، أو بعض الجن على الجهاز العصبي للإنسان، فيوقعه في اضطراب وحيرة.

وقد سرّني أن الشيخ محمد عبده رفض هذا الحديث، وساءني أن الرجل الضخم أتهم في دينه لهذا الموقف المعظم لقدر الرسول.

وسمعت الشيخ محمد أحمد عثمان - رحمه الله - وكان وكيلاً للجمعية الشرعية في مصر - يقول: إن في سند حديث السحر مقالاً، فقلت له: لست من علماء هذا الفن. وكل ما لاحظت على السند أنه يجعل نزول المعوذتين في المدينة، وهما في «علوم القرآن» وعند كتاب المصاحف نزلتا بمكة.

إنني أطيلُ النظر في كتب السنة، معتقد أن بها كنوزاً ثمينة من تراث النبوة، وأستهدي بفطرتي في تجنب الضعيف وقبول الصحيح، وهي فطرة صقلتها التلاوة الدائمة لكتاب الله، والحب الصادق لهذا الوحي المبارك، والدراسة الحسنة لمناهج الفقهاء الأربعة الكبار ومن يليهم من أهل الذكر وقادة الفكر.

ومن هنا ابتعدت عن أحاديث تركها أبو حنيفة ومالك وغيرهما، وإن رواها المشتغلون بجمع الأحاديث.

لقد تركها الأئمة بتلطفٍ وأدب، وأمامي الآن تفسير المنار لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس / ٦٢]. يقول الشيخ رشيد: «لم نر في الأحاديث الصحيحة ما هو أقرب إلى كلام الصوفية منه إلى كلام الله ﷻ إلا حديث «من عادى لي ولياً فقد أذنته بحرب...».

وقد انفرد به البخاري، وفي سنده كما في متنه غرابة. قال الحافظ ابن رجب: هذا الحديث تفرد البخاري بإخراجه دون بقية أصحاب الكتب.

إلى أن قال: وهو من غرائب الصحيح، تفرد به ابن كرامة عن خالد بن مخلد، وليس في مسند أحمد، مع أن خالدًا هذا تكلم فيه الإمام أحمد وغيره وقالوا: له مناكير. ثم قال: وقد روي من وجوه أخرى لا تخلو كلها من مقال. وذكر الحافظ في تهذيب التهذيب اختلاف أئمة الجرح والتعديل في خالد، ومنه تصريح جماعة بروايته للمناكير، وفي الميزان للذهبي: يكتب حديثه ولا يحتج به... إلخ.

قال الشيخ رشيد: «وأما الغرابة في متن هذا الحديث فهو قوله تعالى - والحديث قدسي: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به.. إلخ» الذي استدلوا به على الحلول والاتحاد وقد أوَّلَهُ العلماء، وبينت أمثل تأويل له عند الكلام على حب الله تعالى.

والإنصاف يقضي عليّ بأن أؤكد مكانة صحيح البخاري، فهو بلا ريب أدق كتب السنة، ومن الإنصاف كذلك توكيد احتواء كتب السنة على آلاف الأحاديث المقبولة، بذل الأسلاف في تدوينها جهودًا مضنية، ولا تتم الإفادة منها إلا بتعاون الفقهاء، والمحدثين جميعًا على ضبط معانيها ومغازيها.

والمأساة التي نعاني منها، ونخشى بلاءها على الصحوّة الإسلامية تجيء من قبل قوم يسمون أنفسهم «الإخوة أهل الحديث»، نلحظ عليهم عيوبًا ثلاثة: أكثراتهم بالمرؤيات الواهية، وبناء العلالى فوقها.

ثم سوء فهمهم للصحاح، وتعصبهم لما يفهمون من أخطاء.
ثم عجزهم عن إدراك الحكمة القرآنية، ووقوفهم بعيداً عن محاور القرآن
وغاياته.

وقد نستطرد في الشكوى فنقول: إن من هؤلاء من يرفع خسيسته بالظعن
في الأئمة الكبار، ومن يوارى سَوَّأَتَهُ^(١) بِاللَّجَاجَةِ^(٢) في تكبير أحكام محدودة، أو
تجسيم خلاف تافه.

ولأكن صريحاً في توضيح ما أخافه. منذ أيام وقف بين الإسلاميين في
الجزائر مَنْ يَصِيحُ بأعلى صوته:

إِنَّ الْمَرْأَةَ فِي الْإِسْلَامِ خُلِقَتْ لِكَيْ تَلِدَ الرِّجَالَ. لَا عَمَلَ لَهَا إِلَّا هَذَا.

وهذه الصيحة تنطلق، والغزو الثقافي الديني والشيوعي يعد المرأة بالعلم
والكرامة واستكمال الشخصية والمشاركة في إصلاح الأرض وغزو الفضاء. قلت
للإسلاميين وأنا كاسف البال: قفوا هذا المَجُونُ قبل أن تَرْتَدَّ الجزائرُ وتستوليَ
عليها فرنسا مرة أخرى.

(١) سَوَّأَتَهُ: السُّوْأَةُ: كل عمل وأمر شائن. (م).

(٢) اللَّجَاجَةُ: التمادي والعناد. (م).

هذا المتحدث المسكين باسم الإسلام لا يعرف إلا حديثاً مكذوباً: أن المرأة لا ترى رجلاً ولا يراها رجلاً، وأنها خلقت ليفترشها فحل وحسب.

وهذا متحدث إسلامي آخر يرى أن خروج الرسول في «بدر» يدل على جواز أن تكون الحرب في الإسلام هجومية. بل يدل على أن الإسلام قام بالسيف.

يقع هذا الفهم والمسلمون لا يقدرّون على التقاط أنفاسهم من وطأة الهجوم عليهم. لا يصنعون سنناً ولا يقدمون برهاناً. ولا أمضي في هذه الشكاة فالأمر يطول.

من حق المهتمين بالأحاديث الضعيفة أن يذكروها بعيداً عن دائرة العقائد والأحكام التشريعية.

فإن الدماء والأموال والأعراض أكبر من أن تتداول فيها شائعات علمية. وكذلك أصول التربية، وتقاليد المجتمع، والشعائر التي يشخص إليها الرأي العام، وتعد منارات على حقائق الإسلام وأهدافه في الحياة.

يمكن الاكتراث^(١) بالأحاديث الضعيفة في قضايا هامشية، أو حيث تكون زيادة تنبيهه إلى ما قرّره الأدلة المحترمة في كتاب الله وسنة رسوله.

(١) الاكتراث: الاهتمام. (م).

وهذا هو منهج علمائنا من قديم، ولكن طوائف من العوام، أو من ذوي الأغراض حادوا عن هذا المنهج، فرأينا أشياء تهتاج لها جماهير ما كان السلف الأول يأبه لها^(١).

وتم ذلك على حساب حقائق الإسلام الكبرى في مجال العقيدة والشريعة، ومجال الإدارة والاقتصاد والسياسة.

بل أستطيع القول بأنه تم على حساب الأخلاق والتزكية التي بُعث بها صاحب الرسالة العظمى.

ومن الدهماء^(٢) من يهتم بقضية رفع اليدين قبل الركوع وبعده أكثر مما يهتم بتوفير الخشوع والقنوت بين يدي الله ﷻ، وخلاف الفقهاء في هذه القضية معروف.

والبعد الذي لاحظناه عن منهج السلف يرجع إلى انتشار الأحاديث الضعيفة، ويرجع قبل ذلك إلى انتشار مقولة لم يكن لها رواج بين الفقهاء القدامى، وهي أن حديث الأحاد يفيد اليقين العلمي الذي يفيد المتواتر.

إن الحديث الصحيح له وزنه، والعمل به في فروع الشريعة له مساغ وقبول. وتركه لأدلة أقوى منه أمر مقرر مانوس بين فقهاءنا، أما الزعم بأنه يفيد اليقين كالأخبار المتواترة فهي مجازفة مرفوضة.

(١) يأبه لها: يهتم بها. (م).

(٢) الدهماء: جماعة الناس. (م).

وقد قال لي أحد المتمسكين بأن خبر الواحد يفيد اليقين: إن المدرس - وهو رجل واحد - يؤتمن على التعليم، وأن السفير - وهو رجل واحد - يؤتمن على أخبار دولته، وأن الصحافي في الحديث الذي ينقله يؤتمن على ما يذكره.. إلخ. قلت: إن العنونات التي تنقل بها الرويات ليست مثل ما ذكرت من وقائع.

وإذا فرضنا جدلاً أنها مثلها من كل وجه فإن اليقين لا يستفاد من هذه الوقائع؛ فإن المدرس قد يخطئ فيصح نفسه أو يصحح له غيره، والسفير ترقبه دولته وقد تراجع فيما بلغ، وكذلك الأحاديث الصحافية، إن ما يحفها من قرائن النشر والإقرار أو الرد يجعل الثقة بها أقرب.

ونحن مع تحري عدالة الشاهد لا نكتفي بشاهد واحد، وربما طلبنا أربعة شهداء حتى نطمئن إلى صدق الخبر.

والشاهدان أو الأربعة ينشئون ظناً راجحاً، ولا ينشئون يقيناً ثابتاً، بيد أن حماية المجتمع لا تتم إلا بهذا الأسلوب، أسلوب قبول الظن الراجح. وهو ما قامت عليه الشرائع والقوانين في دنيا الناس.

وذلك كله غير بناء العقائد في النفوس، وإقامة الأمم عليها، إن العقائد أساسها اليقين الخالص الذي لا يتحمل أثارة^(١) من شك.

(١) أثارة: بقية. (م).

وعلى أية حال فإن الإسلام تقوم عقائده على المتواتر النقلي والثابت العقلي، ولا عقيدة لدينا تقوم على خبر واحد، أو تخمين فكر.

ثم يجيء دور التشريع في تحديد مسار الأمة العام، ومسالك الأفراد الخاصة، وعندنا في هذا من النصوص ما هو قطعي الثبوت والدلالة، وما هو ظني الثبوت والدلالة، وما هو قطعي الثبوت ظني الدلالة، وما هو ظني الثبوت قطعي الدلالة. واستفادة الأحكام من مصادرها لها علم خاص بها ولها رجال ثقات، وعلى العامة أن تسمع وتطيع.

وقد رأيت في هذه الأيام مَنْ يُسَمِّي نفسه أميرَ جماعة، والجهد الذي يتصبب له عرقاً وهو يقوم به، هو إشاعة النقاب بين النساء، أو إشاعة الجلباب بين الرجال، أو تحريم الذهب على النساء والرجال جميعاً، أو ترك شعر اللحية ينمو فلا يؤخذ منه شيء حتى لقاء الله.

أهذه غايات تتكون لها جماعات؟ والغريب أن الأحاديث الواهية والخلافات الفرعية لها حظوظ متناقضة أو طواع سعد ونحس. فلست تدري لماذا عاشت هذه؟ ولماذا ماتت تلك؟

في مصر تحتفل العامة بليلة النصف من شعبان، وليست لهذه الليلة القيمة صالتي تعطيها هذا الشأو^(١) الرفيع. وفي حديث مع أحد الإخوة من علماء الخليج

(١) الشأو: الأمد، الغاية. (م).

قال: إن للأحاديث الموضوعة والواهية سوقاً رائجة عندكم. قلت: للأسف وعندكم كذلك.

قال: نحن نتحرى الأحاديث التي تُصدَرُ وفقها أحكامنا. فضحكت وأنا أرد عليه بإجابة سريعة:

أظنُّ الأحاديث التي وردت في ليلة النصفِ أقوى من الأحاديث التي وردت في تحريم الغناء.

فأجاب مستنكراً: هذا غير صحيح. إن تحريم الغناء وآلاته ثابتٌ في السنة النبوية.

قلت له: تعال نقرأ سوياً ما قاله ابنُ حزم في ذلك الموضوع، ثم انظر ما تفعل.

قال ابن حزم: «وبيعُ الشُّطْرَنْجِ والمزامير والعيدين والمعازف والطنابير^(١) حلالٌ كُلُّه، ومن كسر شيئاً من ذلك ضمنه، إلا أن يكون صورة مصورة - تمثالاً مجسماً - فلا ضمان على كاسرها، وتضمن المعتدي على هذه الأشياء واجب؛ لأنها مال من مال مالِكها».

قال: «وكذلك يجوز بيعُ المغنيات - من الجوارى - وابتاعهن، وأساس الجواز في كل ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة/ ٢٩]،

(١) الطنابير: آلة من آلات الطرب. (م).

وقوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ [البقرة / ٢٧٥]، وقوله: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام / ١١٩]؛ يعني: أن الأصل في الأشياء الإباحة، وأنه لا تحريم إلا بنص، وقد فصل الله ما حرم في كتابه وعلى لسان نبيه، ولم يأت نص بتحريم شيء مما ذكره من البيوع السابقة. ثم ذكر ابن حزم أن أبا حنيفة يوجب الضمان على من كسر شيئاً من آلات اللهو التي سماها أنفاً.

قال: «واحتج المانعون بأثار لا تصح، أو يصح بعضها ولا حجة لهم فيها.. منها عن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - عن النبي ﷺ قال: «إن الله حَرَّمَ المغنيةَ وبيعهاَ وثمرتهاَ وتعليمهاَ والاستماعَ إليهاَ». قال ابن حزم وهو يناقش سند هذا الحديث: «فيه من الرواة «ليث» وهو ضعيف، و«سعيد بن أبي رزين»، وهو مجهولٌ لا يُدرى من هو عن أخيه. وما أدراك ما عن أخيه. هو ما يعرف وقد سُمِّي، فكيف أخوه الذي لم يُسمَّ؟»

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «إِذَا عَمِلْتُ أُمَّتِي خَمْسَ عَشْرَةَ خِصْلَةً حَلَّ بِهَا الْبَلَاءُ...».

منهن «واتخذوا القينات»^(١) والمعازف، فليتوقعوا عند ذلك ريحاً حمراءً ومسخاً وخسفاً».

(١) القَيْنَات: المغنيات. (م).

قال ابن حزم في رواية هذا الحديث: لاحقُ بنُ الحسينِ وضرارُ بنُ عليٍّ والحمصي مجهولون، وفرج بن فضالة متروك.

وعن معاوية قال: «نهى رسول الله عن تسع، وأنا أنهاكم عنهن الآن، فذكر فيهن الغناء والنوح». قال ابن حزم: في رواته محمد بن المهاجر ضعيف، وكيسان مجهول.

وروى أبو داود بسنده عن شيخ عن ابن مسعود يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الغناء ينبت النفاق في القلب».

يقول ابن حزم: «الرواية عن شيخ عجب جداً! من هذا الشيخ؟»

وعن أبي مالك الأشعري أنه سمع النبي ﷺ يقول: «يشرب ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها، يضرب على رؤوسهم بالمعازف، والقينات يخسف الله بهم الأرض».

قال ابن حزم وهو يناقش السند: «معاوية بن صالح ضعيف، وليس فيه أن الوعيد المذكور إنما هو على المعازف، كما أنه ليس على اتخاذ القينات، والظاهر أنه على استحلالهم الخمر، والديانة لا تؤخذ بالظن».

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله: «من جلس إلى قينة فسمع منها صبَّ الله في أذنيه الآنك يوم القيامة»، والآنك هو الرصاص المذاب.

قال ابن حزم: هذا حديث موضوع فضيحة، ما عرف قطُّ عن طريق أنس. وعن مكحول عن عائشة قالت: قال رسول الله: «من مات وعنده جارية مغنية فلا تصلوا عليه».

قال ابن حزم: مكحول لم يلق عائشة، وهاشم وعمر الراويان مجاهيل. وهناك حديث لا ندري له طريقاً وهو «نهى رسول الله ﷺ عن صوتين ملعونين؛ صوت نائحة وصوت مغنية»، وسنده لا شيء.

وعن أبي أمامة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن، وثمانهن حرام». وقد نزل تصديق ذلك في كتاب الله وهو ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهَوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا مِّمَّهِنَّ﴾ [لقمان / ٦]، والذي نفسي بيده ما رفع رجل قطُّ عقيرته^(١) بغناء إلا ارتدفه^(٢) شيطانان يضربان على صدره وظهره حتى يسكت»، وقد نظر ابن حزم في الرواة فوجدهم بين ضعيف ومتروك ومجهول.

ولعلَّ أهمَّ ما ورد في هذا الباب ما رواه البخاريُّ معلقاً عن أبي مالك الأشعري: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ليكونن من أمتي قوم يستحلون الخبز والحريير والخمر والمعازف».

(١) رفع عقيرته: رفع صوته. (م).

(٢) ارتدفه: تبعه. (م).

ومعلقات البخاري يؤخذ بها؛ لأنها في الغالب متصلةً للأسانيد، لكن ابن حزم يقول: إن السند هنا منقطع، لم يتصل ما بين البخاري وصدقة بن خالد راوي الحديث.

نقول: ولعل البخاري يقصد أجزاء الصورة كلها، أعني جملة الحفل الذي يضم الخمر والغناء والفسوق، وهذا محرم بإجماع المسلمين.

قال ابن حزم عن تحريم الغناء: «لا يصح في هذا الباب شيءٌ أبدًا، وكل ما ورد فيه موضوعٌ، والله لو أسند جميعه أو واحدٌ منه عن طريق الثقات إلى رسول الله ﷺ ما ترددنا في الأخذ به».

ثم نظر ابن حزم في الآية الكريمة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [لقمان/٦].

فنفي أن تكون في الغناء وقال: «إن نصها يشرح المراد منها، فإن من يريد الإضلال عن سبيل الله واتخاذها هزواً كافر بإجماع المسلمين».

قال: «ولو أن امرءاً اشتري مصحفاً ليضل عن سبيل الله لكان كافراً».

إن الله ما ذم قَطُّ من رَوَّح عن نفسه بشيء من اللهو ليعينه على الكثير من الجدِّ، وإنما الأعمال بالنيات، ولا حرج على مسلم أن ينظر في بستان متنزهًا، أو

يتنقل هنا وهناك متفرجاً ليُريحَ طبعه المكْدود^(١).

والحق أن الغناءَ كلامٌ، حسنه حسن وقبيحه قبيح. هناك أغان أئمة، تلقى في ليالٍ ظالمة مظلمة وإن كثرت فيها الأضواء، لا تسمع فيها إلا صُراخَ الغرائزِ أو فحيحَ الرغباتِ الحرام.

وهناك أغان سليمة الأداء شريفة المعنى قد تكون عاطفيةً، وقد تكون دينيةً، وقد تكون عسكريةً. تتجاوب النفوسُ معها، وتَمُضي مع ألحانها إلى أهدافٍ عالية.

كُنْتُ مع رفقة طيبة تَغَدَى في فندقٍ محافظ بحى «الهرم»، ووصل إلى أسمعنا صوتٌ جَدْب انتباهي، وألقيت إليه زمامي، كأنه صوتٌ ناصحٍ حزينٍ يقاوم المَجون والاسترخاء.

وأخذت أتبيّن الألفاظ التي تصدر من مسجل موضوع بإحدى الزوايا، فإذا هي للبوصيري، أو بتعبير أدقّ تشطيرٌ لأبيات من البردة، كان البوصيري والشاعر الآخر يدوران فيها حول البيت المشهور في وصف الرسول الكريم:

كأنه - وهو فردٌ - من جلالته في عسكرٍ حين تلقاهُ وفي حشمٍ

لم تكن هناك ألحانٌ مصاحبةٌ تثير المشاعر، كان صوت المبتهل الشادي مزيجاً من إيمان وحب جعلاني أطوي العصور القهقرى، وأمثل في حضرة صاحب الرسالة، وهو في مَجْلِسهِ الرُّوحِي يُوجِّه وَيُرَبِّي، ويخلق الجيل الذي

(١) المكْدود: المُتَعَب. (م).

سينشئ حضارةً أرقى وأتقى، ويُلقى بذور الإنسانية الجديدة التي ستنقذ العالم من جبروت الرومان والفرس.

كان فردًا يجلس كما يجلس العبد ويأكل كما يأكل العبد، ولكن الأشعة المنبثقة من أركانه تجعل الأبصار تنحسر^(١) عنه، وتجعل الأباطرة والقيصرة يجثون^(٢) عند قدميه.

إن الغناء الرقيق المتواضع الذي سمعته لا يزال يؤثر في نفسي كلما استحضرت جرسه، بعدما صار ذكرى.

قال الإمام الشاطبي في الجزء الأول من كتابه «الاعتصام»: «إِنَّ قَوْمًا أَتَوْا عَمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه فقالوا: يا أمير المؤمنين إن لنا إمامًا إذا فرغ من صلاته تغنى».

فقال عمر: من هو؟ فذكروا له الرجل، فقال: قوموا بنا إليه، فإننا إن وجَّهنا إليه من يُحْضِرُهُ يظننا تَجَسَّسْنَا عَلَيْهِ أَمْرَهُ.

وقام عمرٌ مع جماعة من أصحاب النبي صلوات الله وسلامه عليه، حتى أتوا الرجل وهو في المسجد، فلمَّا نظر إلى عمر قام إليه، واستقبله قائلاً: يا أمير المؤمنين ما حاجتك؟ وما جاء بك؟

(١) تنحسر: تكل، تنقطع من طول المدى. (م).

(٢) يجثون: يجلسون على ركبتيهم. (م).

إذا كانت الحاجة لنا كنا أحقّ بذلك منك أن نأتيك، وإن كانت الحاجة لك فأحقّ من عظمناه خليفة رسول الله. فقال له عمر: وَيَحْك بَلْغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ سَاءَ نِي. فقال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: أتمجّن في عبادتك - من المجانّة والاتضاع؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، لكنها عظة أعظ بها نفسي.

قال عمر: قلها، فإن كانت كلامًا حسنًا قلتُه معك، وإن كان قبيحًا نهيتك

عنه.

فَأَنشَدَ الرَّجُلُ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ:

وَقُوَادٍ كَلَّمَا عَاتَبْتُهُ	فِي مَدَى الْهَجْرَانِ يَبْغِي تَعْبِي
لَا أَرَاهُ الدَّهْرَ إِلَّا لَاهِيًا	فِي تَمَادِيهِ، فَقَدْ بَرَّحَ بِي
يَا قَرِينَ الشُّوءِ مَا هَذَا الصَّبَا؟	فَنِي الْعُمُرُ كَذَا فِي اللَّعْبِ
وَشَبَابِي بَانَ عَنِّي فَمَضَى	قَبْلَ أَنْ أَقْضِيَ مِنِّي أَرْبِي ^(١)
مَا أَرْجِي بَعْدَهُ إِلَّا الْفَنَا	ضَيَّقَ الشَّيْبُ عَلَيَّ مَطْلَبِي
وَيَحْ نَفْسِي لَا أَرَاهَا أَبَدًا	فِي جَمِيلٍ، لَا، وَلَا فِي أَدَبِ
نَفْسِي لَا كُنْتُ وَلَا كَانَ الْهُوَى	رَاقِبِي الْمَوْلَى، وَخَافِي، وَارْهَبِي

(١) أربي: حاجتي. (م).

فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه مُرَدِّدًا الْبَيْتَ الْأَخِيرَ:

نَفْسِي لَا كُنْتُ، وَلَا كَانَ الْهَوَى رَاقِبِي الْمَوْلَى وَخَافِي، وَارْهَبِي

ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: عَلَى هَذَا فَلْيُغْنَنَّ مَنْ غَنَّنِي.

أقول: ولنا في أمير المؤمنين أسوة حسنة، كل إنشاد يبعث على السمو والجد والاستقامة فهو غناء حسن، وما أحسب أحدا يرى نفسه أتقى لله من عمر، أو يتنزه مما أقره ودعا إليه.

وعندما أسمع قول شوقي:

وَيَا رَبِّ هَلْ تُغْنِي عَنِ الْعَبْدِ حَجَّةٌ؟ وَفِي الْعُمْرِ مَا فِيهِ مِنَ الْهَفَوَاتِ

أتذكر فضل الله في جعل الحج توبة كاملة، لكن صوت المغنية الضارعة يحرك أشجان الأخطاء القديمة، كما يحرك الآمال في عفو الله، وهذا كله لون من العبودية المطلوبة لله سبحانه.

وكما ينشد المرء الخلاص من ماضٍ مرهق، ينطلق الشعر والغناء إلى استنقاذ الأمة الإسلامية من حاضر مؤسف، مع مناجاة صادقة للرسول - عليه الصلاة والسلام.

شُعُوبُكَ فِي شَرْقِ الْبِلَادِ وَغَرْبِهَا كَأَصْحَابِ كَهْفٍ فِي عَمِيقِ سُبَاتِ

بِأَيْمَانِهِمْ نُورَانِ: ذِكْرٌ وَسُنَّةٌ فَمَا بِالْهَمِّ فِي حَالِكِ الظُّلُمَاتِ؟

يقول الدكتور عبادة: إن أبا حامد الغزالي - اقتداءً بالشافعي - يرى أن الشعر كلام، حسنه حسن وقبيحه قبيح، وأن سماع الغناء منه ما هو مباح، ومنه ما هو مستحب، وما هو واجب، وما هو مكروه، وما هو حرام. ثم يُصنَّفُ الغناء إلى سبعة أقسام:

١- إلهاب الشوق إلى زيارة الأماكن المقدسة، وابتعاث المسلمين في الأقطار البعيدة كي يشدوا الرحال إلى الحرمين، وذلك يبدو في قصيدة شوقي:

إلى عَرَقاتِ اللَّهِ يا خَيْرَ زائِرٍ عليك سلامٌ اللهُ في عَرَقاتِ

٢- إثارة الحمية للقتال، والدفاع عن العقائد والأوطان، وأغلب الشعوب تضع لبنيتها نشيداً قومياً يتغنون به جماعات.

وخير نموذج لهذا النوع من الغناء ما جمعه أبو تمام في ديوان الحماسة، وليت أمتنا تُحسِّنُ الغناءَ بمعاني القوة المنبثة في قصائده.

٣- وصف المعارك والمبارزات، وثبات الرجال في الساعات الحرجة.

٤- الرثاء المحرك للأحزان النبيلة، والذي يعيد للنفس الفهم الصحيح لطبيعة الحياة الدنيا. وهذا الرثاء قد يكون بكاءً سلبياً متفجعاً، مثل قول متمم بن نويرة يرثي أخاه مالكا:

يقول: أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرِ رَأَيْتَهُ؟ لِقَبْرِ ثَوَى بَيْنَ اللُّوَى فَالِدَكَادِكِ
فقلت له: إِنَّ الشَّجَا^(١) يَبْعَثُ الشَّجَا فَدَعْنِي، فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ

وقد يكون رثاءً مفعمًا^(١) بتمجيد الفضائل والالتفاف حولها، وذلك كقول
دُرَيْدِ بْنِ الصَّمَّةِ:

تقول: أَلَا تَبْكِي أَحَاكَ؟ وَقَدْ أَرَى مَكَانَ البُّكَاءِ لَكِنْ بُنِيتِ عَلَى الصَّبْرِ
فقلت: أَعْبَدُ اللهَ أَبْكِي أَمَ الَّذِي لَهُ الجَدْتُ^(٢) الأَعْلَى قَتِيلِ بَنِي بَكْرِ؟
أَبَى القَتْلِ إِلاَّ آلَ صِمَّةَ إِنَّهُمْ أَبَوا غَيْرَهُ والقَدْرَ يَجْرِي إِلى القَدْرِ

٥- وصف ساعات الرضا والسرور، احتفاءً بها واستبقاءً لآثارها.

٦- الغزل الشريف، وشرح عواطف المحبين وارتقاب جمع الشمل، وربما كان
للألم والأفراد في هذا الميدان هبوط وهزل، لكن هناك مشاعر جديدة بكل
إعزازٍ مثل:

حَنَنْتَ إِلى «رِيًّا» وَنَفْسُكَ بَاعَدَتْ مَزَارَكَ مِنْ «رِيًّا» وَشِعْبَاكُمَا مَعَا
فَمَا حَسَنٌ أَنْ تَأْتِيَ الأَمْرَ طَائِعًا وَتَجَزَّعَ أَنْ دَاعِيَ الصَّبَابَةِ أَسْمَعًا
قِفَا وَدَّعَا نَجْدًا وَمَنْ حَلَّ بِالْحِمَى وَقَلَّ لِنَجْدٍ عِنْدَنَا أَنْ يُودَّعَا

(١) الشجاء: الحزن. (م).

(٢) مفعمًا: ممتلئًا. (م).

(٣) الجدت: القبر. (م).

بِنَفْسِي تِلْكَ الْأَرْضَ مَا أَطْيَبَ الرَّبَا وَمَا أَحْسَنَ الْمُصْطَافَ وَالْمُتْرَبَا
وَلَيْسَتْ عَشِيَّاتُ الْحَمَى بِرَوَاجِعِ إِلَيْكَ، وَلَكِنْ خَلَّ عَيْنِيكَ تَدْمَعَا
بَكَتْ عَيْنِي الْيُسْرَى فَلَمَّا زَجَرْتُهَا عَنِ الْجَهْلِ بَعْدَ الْحَلْمِ أَسْبَلْتَا مَعَا
وَأَذْكَرُ أَيَّامَ الْحَمَى ثُمَّ أَنْثَنِي عَلَيَّ كَبِدِي مِنْ خَشْيَةِ أَنْ تَصَدَّعَا
كَأَنَّا خُلِقْنَا لِلنَّوَى وَكَأَنَّمَا حَرَامٌ عَلَيَّ الْأَيَّامُ أَنْ نَتَجَمَّعَا

٧- وصف الأمجاد الإلهية، وما يليق بذوي الجلال والإكرام من تجميد وإعظام.

وارتفاع المغنين إلى مستوى المعاني التي يترنمون بها أمر صعب، ونجاح الأغنية يعود بعد شرف المعنى إلى حسن الأداء وجودة اللحن، وتجميع الأنغام التي تخدم في النفس البشرية ما يحقق الاستثارة المنشودة.

وقد استمعتُ إلى بيتِ شوقي:

وَلِلْحَرِيَّةِ الْحَمْرَاءِ بَابٌ بِكُلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ^(١) يُدَقُّ

وشعرت بأن المغني فشل فشلاً ذريعاً في تلحينه، كان ينبغي أن يتعاون النغم والأداء على إبراز صوت المطارق التي تهوي على الأبواب الموصدة، وجُؤَار^(٢)

(١) مُضَرَّجَةٌ: مُلَطَّحَةٌ. (م).

(٢) جُؤَار: صوت عالٍ. (م).

المجاهدين وهم يُهاجمون السجونَ التي قُبعتْ داخلها الجماهيرُ المستعبدة، وعزائم الشهداء وهم يجودون بأنفسهم فداءً للحق، وأنين الجرحَى، وعناد المكابرين. إنَّ حُشودًا من الأصوات المزمجرة^(١)، والجيوش الملتحمة كان يجب أن تبرزَ خلال تلحين القصيدة وعند غناء هذا البيت ذاته. لكن الملحن المغني ليس رجل هذه الملحمة.

والواقع أن البيئة الفنية - كما تترامى إلينا أنباؤها - تعيش في أرض الغرائز، وتُحسن الطبل والزمر وهي تحدو العواطف الرخيصة، وما أحسبها تنهض إلى هدفٍ عالٍ.

أذلك سرُّ تحريم بعض الوعاط للغناء؟ ربما، إنه ليس لدينا نص يحظره. وإنَّ أولى الغيرة ينظرون إلى سيرة المشتغلين بالغناء والموسيقى ثم يرفضون هذا النمط من السلوك، ويستنكرون ما يلبسه وما يصاحبه من آلات، وجو عابث.

لكن الإنصاف يفرض عليهم غير ذلك.

من حملة الأعلام من عاش ذيلًا لحكام الجور، يتلَوْنَ كالحرباء في خدَمَتِهِمْ، ويُصْبِحُ ويُمسي وهو يخادع الجماهير عن حقوقها وحرّياتها. فهل هذا البغاء الصحفي يجعل الصحافة باطلاً؟ كلا.

(١) المزمجرة: الصائحة الصاخبة. (م).

ومن رجال الدين نفسه مَنْ يَحْيَا بلا دين . بل ربما كان عائقاً عَنِ الدين، كما قال جَلَّ وعلا في وصف بَعْضِ الكهان: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيُصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة / ٣٤].
فهل ذلك يَعْنِي أَنَّ الدينَ باطلٌ؟ كَلَّا.

وهناك فنانون لا يساوون قلامه ظُفْر، وهناك أيضاً من صليت معهم في جماعات عامة ومن رأيتهم في قوافل الحجاج والعمار يؤدون المناسك بأدب وتقوى .

وأذكر أنني عندما كنت مدرّساً بمكة المكرمة، جلستُ سَأماناً في بيتي يوماً أُعَانِي من بعض المتاعب فقلت: أتسلى عن هُمومي بشيء، وفتحت الراديو وَسَرَّنِي أن كانت به أغنيةٌ أحبها.

وما كدت أَمْضِي مع الأبيات والألحان حتى طرق البابَ طالبٌ أُشْرِفُ على رسالته.

وخيَّلَ إِلَيَّ أنني أستطيع السماع مع وجوده، ولكنه أقسم عَلَيَّ أن أغلقَ الراديو.

ورأيت إكراماً له أن أَلْبِي رغبته، وأكملت وَحَدِي بعض كلمات الأغنية:

أين ما يدعى ظلاماً يا رفيقَ الليلِ أيناً؟

إنَّ نورَ اللهِ في قلبي، وهذا ما أراه.

وصاح الطالب: ما هذا؟ قلت له: كُلُّ يَغْنِي فِي الْأَنَامِ بَلِيَاهُ، إِنِّي أَعْنِي شَيْئًا آخَرَ.

قال: أما تعلم أن الغناء حرام كله؟ قلت له: ما أعلم هذا.

ثم أقبلت عليه بجد أقول له: إن الإسلام ليس ديناً إقليمياً لكم وحدكم، إِنَّ لَكُمْ فِقْهًا بَدْوِيًّا ضَيْقِ النَّطَاقِ. وعندما تضعونه مع الإسلام في كِفَّةٍ وَاحِدَةٍ، وتقولون: هذه الصفة لا ينفصل أحدها عن الآخر، فستطيش^(١) كِفَّةَ الْإِسْلَامِ وينصرف الناس عَنْهُ.

وهذا ظلم كبير لرسالات الله وهداياته.

قال: كيف؟ قلت له: تستطيعون إعلان حرب شعواء^(٢) على الغناء الوضيع، وستجدون من يؤيدكم من أهل الأرض. أما الزعم بأن الإسلام حرب على الفن كله خيره وشره فلا.

إن أهل القارات لهم غناء يجتمعون عليه، فميزوا الخبيث من الطيب ثم دَعَوْا لَهُمْ مَا يَسْتَحِبُّونَ.

وكتبت الأستاذة المهديّة «مريم جميلة»^(٣)، فَصَلًّا عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْفُنُونِ فِي كِتَابِهَا «الْإِسْلَامُ فِي النَّظَرِيَّةِ وَالتَّطْبِيقِ»، وذكرت أن الأوربيين يحترمون احتراماً

(١) تطيش: تخفّ. (م).

(٢) شَعْوَاءٌ: عنيفة. (م).

(٣) سيدة من أصل يهودي عاشت في بيئة نصرانية بالولايات المتحدة الأمريكية ثم أسلمت.

بالغا «بتهوفن» و «باخ» في الموسيقى، و«فردى» و«واجنر» في الأوبرا، و«شكسبير» في المسرح.. إلخ، ويلقبونهم بالسادة العظام، ويعتبرون تكريس الحياة لأي فرع من هذه الفنون الجميلة من أشرف المقاصد، وأكثرها جدًّا.

قالت: وإذا عرفت موهبة شخص ما بالتفوق الفني - وغالبًا ما يقع ذلك بعد سنوات من رحيله - حُسِبَ في زُمْرَةِ^(١) العظماء الخالدين. ويحقق الروائيون التقليديون خلودهم الفني عندما تطبع كتبهم مراتٍ ومراتٍ، وتمتدح على أنها أعمال أدبية عظيمة، يلزم كل طالب في المدارس أن يدرسها.

ويخلد مؤلفو الموسيقى السيمفونية، والأوبرا بأداء إنتاجهم مرارًا وتكرارًا في قاعات الاحتفالات العظيمة في المدن الكبرى، كما يكرم أعظم المغنين والعازفين بتسجيل أعمالهم على الأشرطة والأسطوانات.

قلت لنفسى: ما المنهاج الإسلامي الذي أقدمه لهذه الأوساط؟ هل أطلب إليهم إلغاء الفنون الجميلة جملةً وتفصيلاً؟

علام أعتمد في هذا الطلب؟ على جملة من الأحاديث الواهية والموضوعة لا وزن لها في مجال التمحيص العلمي؟

إنني عندما أفعل ذلك أكون كأبي العلاء المعري الذي قال لكل إنسان:

غدوت مريضَ الدِّينِ والعقلِ والحِجَى لتعرفَ أبناءَ الأمورِ الصحاح

(١) زُمْرَةٌ: جماعة. (م).

فَلَمَّا اتَّقَى النَّاسُ بِهِ وَاسْتَمَعُوا إِلَيْهِ رَأَوْهُ نَبَاتِيًّا يَعْرِضُ الْأُمُورَ الصَّحِيحَةَ
عِنْدَهُ عَلَى أَنَّهَا تَرَكَ أَكْلَ اللَّحْمِ.

إنني أطلب من الأوروبيين وغيرهم ترك التجسيد والتعديد لإصلاح
عقائدهم، فهل أضع عائقا أمام هذا الإصلاح الخطيرِ بِدَعْوَتِهِمْ إِلَى تَرَكَ الْغِنَاءِ
والموسيقى؟ فما يكون موقفي من قوله تعالى في كتابه المصون: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ
مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ
عَلَى اللَّهِ تَفَتَّرُونَ . وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ
لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يونس / ٥٩ - ٦٠].

أستطيع أن أحرّم نحت التماثيل، أستطيع أن أحرّم كل صورة عارية،
أستطيع أن أحرّم الرقص مفردًا ومزدوجًا، إن هذه فنون رديئة وليست فنونًا جميلةً.

أستطيع أن أبرز الضوابط الإسلامية لسلوك الأفراد مهما كانوا عباقرةً،
فالعبقري في أي علم أو فن يجب أن يستشعر نعماء الله عنده، وأن يكون أتقى لله
وأحفظَ حدوده، وأرعى لحقوقه من الآخرين.

والمصادر الوثيقة لتحديد ما نفعَل وما نترك وما نأمر وما ننهي، هي
كتاب الله وسنة رسوله، لا الشائعات الطائفة في ميدان العلم الديني.

قرأت السطور التالية^(١) عن تعلق الأوربيين بالفنون الجميلة، ثم ضربت كفاً بكف من شدة العجب للضلال المبين الذي استولى على أفئدة هؤلاء الذاهلين. وهاكم ما كتبت نقلاً عن كتاب «الثقافة الإسلامية» للأستاذ محمد مرمادوك بكثال قال: «لا شك أن بعضكم يذكر البحث الذي أوردته الصحف البريطانية من سنوات، كان السؤال: لنفرض أن تمثالاً يونانياً شهيراً جميلاً فريداً في نوعه، وهو من أجل ذلك لا يُعوّض، كان في غرفة واحدة مع طفل حي، ثم اندلعت النيران في الغرفة، ولم يكن في الإمكان إلاّ إنقاذ واحدٍ من الاثنين، إما التمثال وإما الطفل، فأيهما يجب إنقاذه؟ إن كثرة عظمى من الذين أجابوا على هذا السؤال في رسائلهم إلى الصحيفة من الرجال ذوي الثقافة والمكانة المرموقة قالوا - حسب ما أذكر: إنّه يجب إنقاذ التمثال وترك الطفل يهلك. وكانت حجتهم في ذلك: أن ملايين الأطفال يولدون يومياً على حين أن هذا التمثال لا يمكن تعويضه، فإنه عمل فني عظيم من تراث اليونان».

أرأيت كفراً أقبح من هذا الكفر؟ وإهانةً للإنسانية أشنع من هذه الإهانة؟

حجر يستنقذ، وطفل رقيق وديع يترك حطباً للنار؟

المثير في هذه القضية أن مصوراً يرسم على الورق منظر الشروق أو الغروب بمهارة تحاكي الأصل، أو تومع إليه، يُعدُّ فنناً جديراً بالإشادة والتقدير. أمّا صاحب

(١) في كتاب «الإسلام في النظرية والتطبيق» للسيدة مريم جميلة.

الأصل نفسه، أمّا فالتقُّ الإصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حساباً، فهو يُنسى أو يُجحد، ولا تُوجَّهُ إليه عبارةٌ ثناءً.

عندما يجيء فنان إلى حجر فيطبع عليه صورة إنسان، يكون رجلاً عظيماً. وتبلغ عظمته القمة عندما يقترب في نحته من قسّمات الإنسان الأصيل وتعابير وجهه.

أما خالق الإنسان نفسه ومبدع الحياة في خلاياه ومجري الدم في العروق، وبارئ الحسّ في الأعصاب، ومودع الذكاء في المخ، ومطلق هذا البشر العجيب ليملاً الدنيا حراكاً وإنتاجاً، هذا الخالق الماجد لا تذكره الحضارات الضالة بكلمة تقدير وإعزاز.

إن الوثنيات اليونانية والرومانية انتقلت إلى الحضارة الأوروبية، وليست النصرانية إلاّ قشرة مزورة ملصقة على وجه كفور يرفضها وينأى عنها.

أمّا الحضارة الإسلامية فشاؤاً آخر، إنها ترمق عظمة الله قبل كل شيء. وانظر إلى أبي حامد الغزالي يتحدث عن الجمال وفنونه فيقول^(١):

إن الفن محاكاة للجمال الذي أبدعه الله في آفاق العالم، أو هو تشبيه للصنعة بالخلقة. وما من شيء بلغه أهل الصناعات بجهدهم إلا وله مثال في الخلقة التي اخترعها الصانع الأعلى، فمنه تعلم الصانعون، وبه اقتدوا.

(١) العبارات من تلخيص للدكتور «عبد اللطيف عبادة».

ويقول: كل جمال في العالم تدركه العقول والأبصار والأسماع وسائر الحواس من مبتدأ العالم إلى منقرضه ومن ذروة الثرى إلى سفوح الثرى، فهو ذرة من خزائن قدرته سبحانه.

وأنقل هنا سؤالاً وجواباً يتصلان بموضوع البحث، حتى لا تبقى هنالك أثارة من شك أو شبهة.

- ما موقف الإسلام من مظاهر الحضارة الحديثة، السينما والمسرح والموسيقى والفنون جميعها، كالرسم والنحت والتصوير؟

الحضارة الحديثة نتاج تقدم علمي باهر، وصل إليه الإنسان بعد قرون من البحث المضني والتجارب الغالية. ولم يكن عجباً أن يستغل الإنسان كشوفه لأسرار الكون وقواه الخفية في ترقية نفسه وترقية معاشه، بل إن ذلك أقرب إلى الحكمة من استغلال هذه الكشوف في تدمير الحضارة نفسها، وتيسير الانتحار الجماعي على الناس.

وأحسب أن التقدم الصناعي العام وفّر للجماهير متعاً، ما كان يحصل عليها الملوك الأقدمون؛ الأطعمة أنعم، والأشربة صنوف، والملابس تفضل الحرير نسجاً ولوناً ورقةً، وأدوات النقل أغنت عن الخيل والبغال والحمير، والقيان التي كانت تغني في مقاصير الأمراء انتقل صوتها إلى الأكواخ، ونام على لحنها العمال

والفلاحون، والمرء في المشرق يكلم صاحبه في المغرب بثمان ميسور، وربما بلغ الناس من الرفاهة درجة أعلى، وملكوا غداً أنصبه أكثر.

ومع هذا كله فالأعصابُ مشدودةٌ، والأطماع طاغية، والبكاء على القليل المنشود يفسد السعادة بالكثير الموجود، وتحاسد الأفراد والأقطار أشعلَ البغضاء هنا وهناك.

وقيل في وصف العالم: إنَّ عضلاته أكبرُ من فكره، ولو أنصفوا لقالوا: إنه عالم يذكر نفسه، وينسى ربه، ويجحد حقه، ويماري في لقائه، ويظن أن هذه الدنيا كل شيء، فلا امتداد لوجود آخر، ولا حياة إلا هنا.

وأنا رجل مسلم أحبُّ الحياة وأبتهج بطيباتها. إنَّ الله استضافني في كونه وأطعمني خيرَه، فمن السفاهة أن أرفض الكرم المبذول، ومن السفاهة كذلك أن أضنَّ^(١) بشكر المنعم.

إن الله تبارك اسمه يعطي الفضل ولا يطلب إلا الاعتراف بالجميل، فهل هذا ثمنٌ فادحٌ؟؟

يبدو أن ناساً كثيرين يعزُّ عليهم دفعُ هذا الثمن ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ/ ١٣].

(١) أضن: أبخل بخلاً شديداً. (م).

على ذلك الأساس أنظر إلى ما قدمته الحضارات قديمها وحديثها. إنه -
 كما عَلَّمَنِي الإسلام - لي وليس لغيري، أليس يقول الله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ
 لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة / ٢٩]؟

ومن ثم فالأصل في الأشياء الإباحة، ولا تحريم إلا بِنَصِّ قَاطِعٍ، والواقعُ
 أَنَّ نَفَرًا مِنْ سَوْدَاوِيِّ الْمِزَاجِ أُولَعُوا بِالتَّحْرِيمِ، ومنهجهم في الحكم على الأشياء
 يخالف منهج نبي الإسلام - عليه الصلاة والسلام - الذي ما خيّر بين أمرين إلا
 اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه. رَوَى أَنَسُ بْنُ
 مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَشَدُّدُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَيَشَدَّدَ عَلَيْكُمْ، فَإِنْ قَوْمًا
 شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ عَلَيْهِمْ، فَتَلِكْ بِقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالْأَدِيرَةِ رَهْبَانِيَّةً
 ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ».

وقد أشاعت المدنية الحديثة «الراديو والتلفزيون» وغيرهما من الأجهزة
 الناقلة للثقافة والملاهي على سواء، ومعروف أن هذه الأجهزة أدوات غير مسئولة
 عما يصدر عنها، وإنَّ المسئولية تقع على المؤلفين والمغنين والمخرجين، ففي
 استطاعتهم أن يقدموا النافع ويحجبوا الضار.

لقد كان من المستطاع أن نتوسل بهذه الأجهزة لإشاعة اللغة السليمة،
 وتذوق الآداب الرفيعة، وحماية الأخلاق، ودعم التقاليد الفاضلة، بل كان
 من الممكن أن ندرّب الألوّف على إتقان حِرْفِ نحن محتاجون إليها، وأن نرفع

مستوى الأداء لأشغالٍ كثيرة، فإن البطالة السافرة والمقنعة تفتك لدينا بأعمار الناس.

كان من الممكن أن نحارب عادات ضارةً موروثةً أو مستوردةً انتشرت بيننا ووقفنا مسيرتنا، إن وسائل الإعلام لو أحسننا استغلالها تصنع الكثير، ولكن ذلك لا تستطيعه إلا أمة تحس أن لها رسالةً في الحياة، أما الأمة الذنب فقد سقط عنها التكليف؛ لأن غيرها يشدها.

قد يفهم من ذلك أنني أحارب الغناء والموسيقى والترويح عن النفس.. لا، ولكنني ألاحظ أن الأمة العربية والإسلامية تريد أن تعمل قليلاً وتغني كثيراً، والاستجمام حق المرهقين لا حق القاعدين.

أما الغناء فكلام، حسنه حسن وقبيحه قبيح، ومن غنى أو استمع إلى غناء شريف المعنى طيب اللحن فلا حرج عليه، وما نحارب إلا غناءً هابط المعنى واللعن.

لم يرد حديثٌ صحيحٌ في تحريم الغناء على الإطلاق، وقد احتج البعض بقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ [لقمان / ٦-٧].

وَلَعَمْرِي إِنَّ مَنْ يَشْتَرِي جَدَّ الْحَدِيثِ أَوْ لَهْوَهُ لِلْأَسْبَابِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ
 جَدِيرٌ بِسُوءِ الْعِقَابِ، أَمَّا مَنْ يَرِيحُ أَعْصَابَهُ الْمَكْدُودَةَ بِصَوْتٍ حَسَنٍ وَلَحْنٍ جَمِيلٍ
 فَلَا عَلاَقَةَ لِلآيَةِ بِهِ، وَكَمَا يَقُولُ ابْنُ حَزْمٍ: لَوْ اشْتَرَى مَصْحَفًا لِلْإِضْلَالِ فَهُوَ مُجْرِمٌ.
 وَيَبْدُو أَنَّ اقْتِرَانَ الْغِنَاءِ بِبَعْضِ الْمَحْرَمَاتِ مِنْ خَمْرٍ وَفَحْشٍ؛ وَمَا يَشَاعُ
 عَنِ الْبَيْئَةِ الْفَنِيةِ مِنْ تَحْلُلٍ، هُوَ الَّذِي جَعَلَ عَدَدًا مِنَ الْعُلَمَاءِ يَحْرُمُهُ، وَإِلَى هَذِهِ
 الْجُمْلَةِ مِنَ الرِّذَائِلِ يُشِيرُ حَدِيثُ الْبَخَارِيِّ إِلَى مَنْ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَّ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ
 وَالْمَعَازِفَ.

بَيِّنَدُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ تَجْتَمِعَ هَذِهِ الْعُنَاصِرُ كُلُّهَا عِنْدَ سَمَاعِ أَغْنِيَةٍ.
 وَعَلَى آيَةٍ حَالٍ، فَإِذَا كَانَ الْغِنَاءُ مَقْرُونًا بِتِلْكَ الْمَحْرَمَاتِ فَهُوَ مَرْفُوضٌ، أَمَّا إِذَا بَرِيَ
 مِنْهَا فَلَا شَيْءَ فِيهِ.

وَالْمُوسِيقَى كَالْغِنَاءِ وَقَدْ رَأَيْتَ فِي السُّنَّةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَدَحَ صَوْتَ
 أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ - وَكَانَ حُلُومًا وَقَدْ سَمِعَهُ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ - فَقَالَ لَهُ: «لَقَدْ
 أُوتِيَتْ مِزْمَارًا مِنْ مِزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»، وَلَوْ كَانَ الْمِزْمَارُ آلَةً رَدِيئَةً مَا قَالَ لَهُ ذَلِكَ.

وَقَدْ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَوْتَ الدَّفِّ وَالْمِزْمَارِ دُونَ تَحْرِجٍ، وَلَا أُدْرِي مِنْ أَيْنَ
 حَرَّمَ الْبَعْضُ الْمُوسِيقَى، وَنَفَرٌ مِنْ سَمَاعِهَا؟

عَلَى أَنَّ الْأَلْحَانَ تَخْتَلِفُ فِي تَأْثِيرِهَا وَصَدَاها النَّفْسِي، فَإِذَا كَانَ هُنَاكَ مَجَالٌ
 لِاعْتِرَاضِ فَعَلَى الْأَصْوَاتِ الْخَنِيثَةِ وَالْأَلْحَانِ الطَّرِيَةِ الْمَائِعَةِ.

ونعودُ إلى ما بدأنا به موضوعنا، وهو أن أمتنا بحاجة إلى الكثير من الجد والقليل من اللهو، ولو رزقنا بفنانين ذوي شرف ومقدرة لأمكن تحويل الفنون إلى عواملٍ للبناء لا للهدم، ولإثارة المشاعر النبيلة لا إهاجة الغرائز الدنيا.

أما الصُّورُ فيجب أن نفرق بين نوعين: المجسم الذي يصنعه المثالون الآن لأغراضٍ شتى، والرسوم التي توضع على المسطحات من أوراق وأقمشة وغير ذلك.

والتصويرُ سواءً كان شمسياً أو قلمياً هو جزءٌ من الطب والأمن والعلوم الكونية والحيوية والتاريخ والشئون الاجتماعية الكثيرة، والأصل فيه الإباحة لحديث مسلم «إلا رقماً في ثوب»، ولحديث رزين: سئل ابن عباس عن أجره كتابة المصحف، فقال: «لا بأس إنما هم مصورون، وأنهم إنما يأكلون من عمل أيديهم».

ولم يقل أحدٌ إن صورةَ الوجه في المرأة محرمة، ولا يقول أحدٌ إن إثباتها بطريقة أو بأخرى تحوّل المباح إلى محرم.

ولا يحرم من هذا النوع إلا ما حمل طابعاً دينياً لعقائد يرفضها الإسلام؛ كصور بوذا، أو إبراهيم، أو صلبان النصارى، أو أي شعار ديني يخالف التوحيد.

كما يحرم أيُّ تصويرٍ يخل بالأداب، ويحرك الغرائز إلى المعصية.

أما التماثيلُ المجسمة فإن النصوص الواردة تتظاهر على رفضها، ما لم تكن الأعيبَ للصبية أو عرائسَ هزليةً؛ كَحَلَوَى المناسبات المختلفة، فإن أحدًا لا يفكر في توقيرها أو عبادتها.

لقد رأيتُ بعيني من يعبدون هذه الأصنام في جنوب آسيا، ورأيت في مصرَ مَنْ يُحَيِّي بخشوع تمثالاً لعبد الناصر، وذلك أثناء نقله من مكانٍ إلى مكانٍ. وأعرف أن هناك من رجال الفتوى مَنْ يحرم التصويرَ كُلَّهُ سواء كان مجسمًا أو كان رسمًا على ورق، وأخشى أن يكون سَوَقُ النصوصِ مقطوعةً عن ملابساتها سببًا في ضياع الدين والدنيا معًا.

الدِّينُ بَيْنَ الْعَادَاتِ وَالْعِبَادَاتِ

آدابُ الطَّعَامِ

آدابُ الْمَلْبَسِ

آدابُ الْمَسَاكِنِ

الدِّينُ بَيْنَ الْعَادَاتِ وَالْعِبَادَاتِ

آداب الطعام

هناك عاداتُ ألفها الناس ويستغربون الخروجَ عليها، وهناك عباداتُ كُلفوا بها ويرون التزامها ديناً! والعادات من صنع الناس، أما العبادات فمن عند الله سبحانه.

وقد قرأت لعالم هندي آداب الإسلام في الطعام، فوجدت الرجل خلط بين العادات والعبادات، وحارب عاداتٍ غريبةً بعباداتٍ عربيةٍ، وهي حرب لا صلة لها بالإسلام.

قال: «يجب أن يوضع الطعام على الأرض لا على الطاولة»، وقال: «يجب على الأكل أن يجلس متربعا أو على ساقٍ أو جاثما على الساقين، ولا يتناول الطعام أبداً مستنداً إلى كرسيٍّ. ويجب أن تسبق النيةُ الطعامَ؛ أي: أن يقصد بالأكل القوة على طاعة الله لا إشباع الشهوة، ويجب أن تشترك الأيدي الكثيرة في الإناء الواحد، ويجب أن يذكر اسم الله قبل أن يأكل..».

وأكثر ما قاله الرجل بعيداً عن الصواب. فالأكل جائز على الأرض وعلى المنضدة. ويجوز الجلوس على الكرسي في أثناء الأكل، وينبغي أن يُرضي ربه

بالطعام في الوقت الذي يُشبع فيه نهمته منه، وله أن يأكل وحده في إنائه، أو يأكل مع آخرين.

والواجب حَقًّا أَنْ يُسَمِّيَ اللَّهَ قَبْلَ الْأَكْلِ، فقد صح قول رسول الله ﷺ: «سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ».

وقد وردت أحاديث شتى في آداب الأكل: بعضها صحيح، وبعضها مرفوض، وبعضها من عادات العرب.

فالقول بأن استعمال السكين في الأكل حرام لا أصل له، وقد روى أبو داود حديثاً عن عائشة جاء فيه «لا تقطعوا اللحم بالسكين؛ فإنه من صنع الأعاجم، وانهشوه نهشاً فإنه أهناً وأمرأ».

وهذا حديث باطل، فقد ثبت في الصحاح أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان يستخدم السكين في تقطيع اللحم وهو يأكل، وسند الحديث المروي عن أبي داود مرفوض.

ولم يَجِءْ أمر بالأكل على الأرض، أو نهى عن الأكل فوق طاولة، وما سكت الشارع عنه فهو في دائرة العفو، ولا مكان لوجوب أو حرمة.

وقد كان النبي ﷺ مُحْشَوْسِنًا في حياته لا مترفاً، ومع ذلك لم يحرم حلالاً، ولم يضيق واسعاً. عن أبي حازم، سألت سهل بن سعد: «هل أكل

النبي النقيّ - الخبز الخالص من القشور؟ فقال: ما رأى النبي النقي منذ ابتعثه الله تعالى حتى قبضه.

فقلت: هل كانت لكم مناخلٌ؟ فقال: ما رأى النبي منخلاً من حين ابتعثه الله حتى قبضه. قلت: كيف كنتم تأكلون الشعير غير منحول؟ قال: كنا نطحنه وننفخه فيطير منه ما طار - من قشر، وما بقي ثريناه فأكلناه».

تلك كانت حَيَاتُهُمْ، وعليها اعتادوا. ثم تأنق الناس في صنع الخبز النقي دون حرج.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوْا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة/ ١٦٨].

وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ [البقرة/ ١٧٢].

وروى أبو داود عن وحشي بن حرب أن الصحابة قالوا: «يا رسول الله، إنا نأكل ولا نشبع. قال: فلعلكم تفترقون؟ قالوا: نعم. قال: فاجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه».

ونحن نرى في هذا الحديث بواعث الجودِ واستضافة الفقراءِ ومحاربة الأزماتِ، فلا يجوز ترك المحرومين يتضورون^(١) جوعاً.

ولا يجوز أن يفهم من الحديث تحريم الأكل في غير طبق واحد، كيف والله سبحانه يقول: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور / ٦١]، ولو وُضِعَ لكل فقير طعامٌ في صَحْفَةٍ^(٢) ما كان هناك من حرج.

ومن أركان النظافة: أن يأكل المرء بيمينه؛ فإن الإسلام جعل اليد اليسرى لإزالة القذى، وهذه قسمة لا بد منها، وليس من الشرف أن يضع إنسان يده على فرجه ثم يدسها بعد ذلك في فمه.

ولأي إنسان أن يأكل بيمينه مباشرةً أو يأكل بملقعة، ففي الأمر سعة. وكان العرب يأكلون بأيديهم، وتلك عاداتهم. ولا غرابة إذا كان الأكل بيده يلحق أصابعه. ولكن جعل هذه العادة ديناً مما لا أصل له، ومن الدين ألا يترك المسلم في صَحْفَتِهِ طعاماً كثيراً أو قليلاً ليرمى بعدُ في القمامة، فهذا مسلكٌ ذميم.

(١) يتضورون: يتلَوون من الجوع. (م).

(٢) صَحْفَةٌ: إناء الطعام. (م).

والغريب أن الأوربيين يتركون صحونهم أقرب ما تكون إلى النظافة.
أما العرب فيدعون في صحونهم ما يزحم أواني القمامة وما يقر عينَ الشيطانِ
بالإسراف.

وفي هذه الأيام تذهب وفودٌ من المسلمين إلى أوروبا وأمريكا، ويمكن أن
يتميزوا عن غيرهم في آداب الأكل، بترك المحرمات وتسمية الله مثلاً.

أما الجلوسُ على الأرض حَتْمًا، والامتناعُ عن استعمال الملاعق، والحرصُ
على لعق الأصابع.. إلخ. فهذا تنطعٌ أضرب بالإسلام ورسالته، وأطلق ضد المسلمين
شائعاتٍ رديئةً.

فهل أمست الدعوةُ إلى التوحيد دعوةً إلى نمط من سلوك العرب الأوائل
حتى في أيام جاهليتهم؟ إن هذا السلوك البدائيَّ صدُّ عن سبيل الله.

آداب الملبس

ولنترك الطعام إلى الملابس.

قرأت للعالم الهندي السابق ذكره حديثاً عن البيهقي: «عليكم بالعمائم فإنها سيما الملائكة، وأرْخُوها خلف ظهوركم».

وقرأت عدة أحاديث في فضل العمائم رواها الترمذي وأبو داود، وهي جميعها لا قيمة لها، كما قال الشيخ محمد حامد الفقي: «ليس في فضل العمامة حديثٌ يصح».

والعمائم لباس عربي، وليس شارةً إسلامية، وكذلك العقال. والواقع أن البيئة الحارة تفرض تغطية الرأس والقفأ، ويستحب فيها البياض والسعة، أمَّا البيئات الباردة فطلب الدفء يدفع إلى تضيق الملابس واختيار الألوان الداكنة. وقد جاء في الحديث الصحيح: «كل ما شئت، والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة».

ونحن نلاحظ أن الإسراف والخيلاء^(١)، من وراء عادات عربية وغربية كثيرة، وأصحاب الخلق والجد يترفعون عن المبالغة في اختيار الأزياء، حتى لكأن قيمة الرجل من عظمة ثوبه.

(١) الخيلاء: العُجب والكبر. (م).

والحضارة الحديثة لفساد تدينها وعُرام^(١) شهواتها عَقَدَتْ تقاليدَ اللباسِ والزينة، فجعلت للسهراتِ ملابسَ فاضحةً، وجعلت للإقامةِ زياً، وللسفرِ زياً، وللأكلِ زياً، وللرياضةِ زياً، وللربيعِ زياً وللصيفِ زياً.. إلخ.

والمسلم يرتدي ما يشاء غيرَ جانحٍ إلى إسرافٍ أو خيلاء.

وجمهورُ العلماء على تحريم الحرير والذهب للرجال وإباحتهما للنساء، كما أن الجمهور على أن للنساءِ ملابس، وللرجالِ ملابس، والأصل في ملابس النساء أن تكون ساترة لأجسامهن، ولا حرج في أن تكون جميلة غير مثيرة، والأصل في ملابس الرجال أن تلائم أعمالهم. ولا حرج في أن تكون جميلة. كما قال ابن عباس: «رأيت على رسول الله أحسن ما يكون من الحُلل».

وودِدْتُ لو كانت للرجال أزياءٌ موحَّدة، وللنساء كذلك أزياءٌ موحدة، فإن هذا التوحُّد يقطع دابر التنافس الباهظ التكاليف، المفسد للأخلاق، الذي نراه في ميادين كثيرة.

هل للإسلام زيٌّ معين؟ كلا، وقد توهم بعض الشباب أن الجلباب هو زيُّ الإسلام، وأن البدلة زي الكفار، وهذا خطأ.

(١) عُرام: شدة، حدة. (م).

وإذا أردنا الحفاظ على «شخصيتنا» فإن ذلك يتم بصدق اليقين وشرف السيرة وسعة المعرفة ودماثة الخلق .

إنَّ الجلباب العربي في عواصم عالمية أمسى شارةً على الإسراف السفيه، والانطلاق المجنون وراء شهوات مطاعة وأهواء جامحة. أذلك ما يخدم الإسلام وينشر دعوته؟

آداب المساكن

وننتقل إلى المساكن، وأسلوب المعيشة داخلها. إن الله سبحانه أَمَّنَّ عَلَى الناس بأن جعل لهم بُيُوتًا يأوون إليها ويستريحون فيها ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ [النحل / ٨٠].

وظاهر من السياق أن البيوت نعمة تستوجب الشكر، وأن بناءها عادة وعبادة معاً، وهل يستغني البشر عن البيوت؟

من أجل ذلك استغربت ما رواه الشيخان عن خَبَّابِ بن الأرت وهو «إن أصحابنا الذين سلفوا ومضوا لم تنقصهم الدنيا، وإنما أصبنا ما لا نجد له موضعاً إلا التراب. ثم يقول: إن المسلم يؤجر في كل شيء ينفقه إلا في شيء يجعله في هذا التراب».

وننتقل إلى المساكن، وأسلوب المعيشة داخلها. إن الله سبحانه أَمَنَّ عَلَى
الناس بأن جعل لهم بُيُوتًا يَأْوُونَ إِلَيْهَا وَيَسْتَرِيحُونَ فِيهَا ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ
بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ
وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ [النحل / ٨٠].

وظاهر من السياق أن البيوت نعمة تستوجب الشكر، وأن بناءها عادة
وعبادة معًا، وهل يستغني البشر عن البيوت؟

من أجل ذلك استغربت ما رواه الشيخان عن حَبَابِ بْنِ الْأَرْتِ وهو «إن
أصحابنا الذين سلفوا ومضوا لم تنقصهم الدنيا، وإنما أصبنا ما لا نجد له موضعًا
إلا التراب. ثم يقول: إن المسلم يؤجر في كل شيء ينفقه إلا في شيء يجعله في
هذا التراب».

وكلام حباب رضي الله عنه عليه مَسْحَةٌ تشاؤم غلبت عليه لمرضه الذي اكتوى منه،
ولا يجوز أن نعدَّ البناء رذيلةً، فقد يكون فريضةً.

والأصل الذي نرجع إليه في مسالكنا كلها: هو القصد الطيب المصاحب للعمل، أو النية الطيبة الباعثة على العمل، فإن كانت النية حسنة فالعمل صالح، وتتحول فيه العادات إلى عبادات.

ويظهر أن كثيراً من الناس جعل من المباني إعلاناً عن العظمة، واستطالة على الآخرين، بدل أن يجعلها مواطن استجمام وتهيؤ للعمل في أرجاء الحياة ويظهر ذلك في قول الله لثمود: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ يَوْمًا فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف / ٧٤].

ولو بنينا ناطحاتِ سحابٍ وعمرنا عُرفَاتِهَا بالتسبيح والتحميد لتقبل الله منا. أمّا بناء دار صغيرة، والتقلبُ داخلها بطراً وكبراً فذاك ما لا خير فيه، وهذا ما نفسر به حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «النفقة كلها في سبيل الله إلا البناء فلا خير فيه».

والواقع أن هناك حضارات بادت ومدائن دُمّرت؛ لأن مبانيها كانت ضجيجاً لا تتبينُ فيه شكراً لله ولا أثارةً من تقوى.

وفي هذه الأُمّ الجاحدة يساق قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمَا
 أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً أَفَلَا
 يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة / ٢٦]؟

ثم قوله لمن جاء من بعدهم: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكِنِ الَّذِينَ
 ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ
 الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم / ٤٥].

وقد قرأت جملة أحاديث تكاد تجعل البناء جريمة، وهي تفهم على وجهها
 الصحيح داخل النطاق الذي رسمناه هنا، ولا ضرورة لذكرها.

سمعت نقداً لاذعاً لما كتبتُه عن آداب المساكن يحملني على إيراد
 الأحاديث التي دَوَّنَها صاحب «تيسير الوصول إلى جامع الأصول» تحت عنوان
 كتاب البُنيان. لقد أصبحت هناك ضرورةً لذكرها، فلأنقلها كاملة، ولأترك داليتها
 تنضح على النفوس، ثم أُعَلِّقُ عَلَيْهَا بعد ذلك.

كتابُ البُنيانِ

عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: «لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ وقد بنيت بيتاً بيدي يكنيني^(١) من المطر، ويظلني من الشمس ما أعانني عليه أحد من خلق الله تعالى». أخرجه البخاري. وفي رواية ما وضعت لبنة على لبنة منذ قبض رسول الله ﷺ.

وعن قيس بن أبي حازم رضي الله عنه قال: «أتينا خباب بن الأرت رضي الله عنه نعوذه - وقد اكتوى سبع كيات في بطنه - فقال: إن أصحابنا الذين سلفوا ومضوا ولم تنقصهم الدنيا، وأنا أصبنا ما لا نجد له موضعاً إلا التراب، ولولا أن النبي ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوتُ به. ثم أتينا مرة أخرى وهو بيني حائطاً له، فقال: إن المسلم يؤجر في كل شيء يُنفقه إلا في شيء يجعله في هذا التراب». أخرجه الشيخان.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «النفقة كلها في سبيل الله إلا البناء فلا خير فيه». أخرجه الترمذي.

(١) يكنني: يسترني، يغطيني، يصونني. (م).

وعنه رضي عنه قال: «خرج رسول الله صلوات الله عليه يوماً ونحن معه فرأى قبة مشرفة. فقال ما هذه؟ قيل لفلان - رجل من الأنصار - فسكت وحملها في نفسه حتى جاء صاحبها فسلم عليه في الناس فأعرض عنه، فصنع ذلك مراراً حتى عرف الرجل الغضب فيه والإعراض عنه، فشكى ذلك إلى أصحابه، فقال: والله إني لأنكر نظر رسول الله صلوات الله عليه ما أدري ما حدث في. فقالوا: خرج فرأى قبتك، فقال: لمن هذه؟ فأخبرناه. فرجع الرجل إلى القبة فهدمها حتى سواها بالأرض. فخرج رسول الله صلوات الله عليه ذات يوم فلم يرها فقال: ما فعلت القبة؟ فحدثوه بما كان من صاحبها. فقال رسول الله صلوات الله عليه: «أما إن كل بناء وبال^(١) على صاحبه، إلا ما لا يعني: ما لا بد منه». أخرجه أبو داود.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: «مرّ بي رسول الله صلوات الله عليه وأنا أطين حائطاً لي من خص. فقال: ما هذا يا عبد الله؟ فقلت: حائطاً أصلحه. فقال: الأمر أيسر من ذلك، وفي رواية: ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك». أخرجه أبو داود والترمذي وصححه. «الخص» القصب.

وعن دكين بن سعيد المزني رضي عنه قال: «أتينا رسول الله صلوات الله عليه سألناه الطعام، فقال: يا عمر، اذهب فأعطهم، فارتقى بنا إلى عليّة فأخرج المفتاح من حجرته، ففتح... يعني أنه كان هناك غرفة عليا. فلا حرج من بناء غرفة عليا.

(١) وبال: سوء العاقبة. (م).

القارئ لجلة هذه الأحاديث لا يفكر في بناء دارة أنيقة ولا قصر شاهق، بل لعله يَرَى العيش في مدفن أقرب إلى التقوى.

والصحيح أن هناك أحاديث ترتبط بمناسباتها وما تفهم إلا في الجو الذي قيلت فيه. ونحن في حياتنا المعتادة قد يفكر امرؤ في الزواج ويؤخر البت لظروف عارضة، وقد ينوي بناء بيت ثم يؤخر البناء لفتن ناشبة.

ومنطق الاستقرار غير منطق القلق، ولقد كانت المدينة المنورة تعاني الكثير من أعباء الدعوة والجهاد والحصار والدفاع، وكانت جمهرة الصحابة تشترك في السرايا والغزوات، فهي بين قتال أو استعداد له.

وقد نظرت إلى الترهيب من بناء القصور وزخرفتها من خلال هذه الملابس، وإلا فالأصل إباحة الطيبات في المأكل والمسكن والمنكح، ولو أخذنا الأمر على عموم ما بُنيت مدينة ولا قامت حضارة.

وأعرف من علماء السلف المعاصرين من بنى العمائر الشاهقة، وأجرها لساكنيها بما يشاء من مال، وله أن يفعل ذلك، ولكن ليس له أن ينهى الناس عن البناء والتأنق فيه.

إنني أنظر إلى حرمة استعمال الجرس فأرى أن هذه الحرمة بدأت لحماية شعيرة الأذان وبعداً عن معالم النصرانية، فإذا استقر الأذان وارتفعت مأذنه فلا

حرج من سماع جرس عند مزالق السكك الحديدية، أو عند الاستئذان في دخول بيت، أو مع الساعة الموقظة من النوم، أو في جهاز الهاتف.. إلخ.

والبيت المسلم له وظائف معروفة وآداب مقررة، ومن الخير ملاحظتها عند بنائه وإعداد مرافقه.

ولم يكن العرب في العهد الأول قد ورثوا هندسة معمارية تنسجم مع تعاليم الإسلام الجديدة. بل الذي كان يحدث أن البيوت غالباً تخلو من المراحيض، وكان الكبار والصغار والرجال والنساء يخرجون إلى الصحراء لقضاء حاجاتهم.

على أن هذا الوضع المرهق قد اختفى مع استقرار المجتمع الإسلامي وانتشار صبغته على الحياة الداخلية والخارجية.

هناك آداب للمبيت تفرق بين الأولاد في المضاجع، وتجعل لكل منهم فراشاً خاصاً.

وهناك آداب للاستئذان والتلاقي تصون الهيئات والمروءات.

وهناك مظاهر دقيقة ترسي قواعد النظافة الشخصية إلى جانب الوضوء والغسل.

ولا شك أن المسلمين أيام ازدهار حضارتهم كانوا أطهر أهل الأرض أبدأً وثياباً، وأن استخدامهم للمياه في الأغسال المتنوعة جعل إنسانيتهم أرقى.

أما غيرهم من الأوربيين، فكانوا دونهم مكانة وكرامة.

وقد حرص البشر في هذا العصر على استكمال أسباب النظافة، ونحن لا نوازن بين عادات وعادات. وإنما نتعرف على مطالب ديننا، وننشئ العادات التي تنسجم معها.

وقد قرأت أن الحمام الغربي سيئ؛ لأنه يجعل المرحاض في المكان الذي يتم فيه الاغتسال، ولأنه يجبر الشخص على التبول قائماً، وهذا ما يحرمه الإسلام. والإسلام لا يحرم التبول قائماً، ولا مانع لديه من التنظيف أولاً بالورق، ثم يزداد التطهر بالماء.

وهذا يُعني يقيناً عما كان مألوفاً من التطهر بالحجارة ثم بالماء، أو الاكتفاء بالماء وحده.

الإسلام دين الفطرة السليمة، وكل ما يسمو بالجسد ويوفر له السناء والجمال مطلوب.

ونحن نفرض تعاليم ديننا على الناس كلهم عندما نشئ باسمه حضارة للإنسان، الذي يحترم المبنى والمعنى أو الشكل والموضوع لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل / ٩٧].

المَسُّ الشَّيْطَانِيُّ
حَقِيقَتُهُ وَعِلَاجُهُ

المس الشيطاني حقيقته وعلاجه



طرق بابي رجل يقول: إنه بحاجة إلى عوني، فقامت لاستقباله وأنا متعب،
وُدْهِشْتُ لِمَرَأَهُ، فقد كان عملاقاً بادي الصحة، ولم تكن عليه سيماء الفقر.

وبدأني بالحديث من غير مقدمات، قال: إنه مسكون. واستعدت ما قال،
فكررت شكواه مؤكداً أنه مسكون. قلت: من سكنك؟ قال: جني عاتٍ غلبني
على أمري.

فقلت وأنا أضحك: لماذا لم تسكنه أنت؟ إنك رجل طويل عريض؟
فسكت حائراً.

وأخذت أتأمل في ملامحه وحالته العامة ثم قلت له: ما أظنك مريضاً
بالصرع، أتعريك نوبات ما؟ فلم يزد على القول بأنه مسكون.

إن عددًا كبيراً من النساء، وعددًا قليلاً من الرجال يجيئني بمثل هذه
الشكاة، وكنت أبذل شيئاً من الجهد في تثبيت القلق، وتسكين الحائر، وإعادة
الاستقرار النفسي والفكري إلى هذا وذاك.

وشعرت بأن الأزمات الروحية والاضطرابات العصبية من وراء الادعاء بأن الجن تحتل هذا الجسد أو تحتك بهذا البئس. وربما استعنت ببعض الرقى والتلاوات والنصائح لجعل أولئك المرضى أحسن حالاً، وإن تبديد أوهامهم شيء يطول.

وتحدث معي بعض أهل العلم الديني، وكأنهم رأوا إنكاري على أولئك المرضى، وقالوا لي: لماذا ترفض فكرة احتلال الشياطين لأجسامهم؟

كان جوابي محدداً: لقد شرح القرآن الكريم عداوة إبليس وذريته لأدم وبنيه، وبين أن هذه العداوة لا تعدو الوسوس والخذاع ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبُ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء / ٦٤].

وليس يملك الشيطان في هذا الهجوم شيئاً قاهراً، إنه يملك استغفال المغفلين فحسب: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلْمُؤُنِي وَلُؤْمُؤًا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم / ٢٢].

وقد تكرر هذا المعنى في موضع آخر: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [سبأ / ٢٠-٢١].

إن الشيطان لا يقيم عائقاً مادياً أمام ذاهبٍ إلى المسجد، ولا يدفع سكراناً في قفاه ليكرع الإثم من إحدى الحانات^(١)، إنه يملك الاحتيال والمخادعة، ولا يقدر على أكثر من ذلك.

قال لي أحدهم: هذا صحيح، لكن ما أوردته لا ينفي أن بعض المردة قد يُساور^(٢) بشراً مسلماً وينال منه. قلت: وأنا ضجر: هل العفاريث متخصصة في ركوب المسلمين وحدهم؟ لماذا لم يَشْكُ ألماني أو يابانيُّ من احتلال الجن لأجسامهم؟

إن سمعة الدين ساءت من شيوع هذه الأوهام بين المتدينين وحدهم. إنكم تعلمون أن العلم المادي اتسعت دائرته ورسدت دعائمه، فإذا كان ما وراء المادة سوف يدور في هذا النطاق فمستقبل الإيمان كله في خطر. فلنبحث علل أولئك الشاكين برويةٍ، ولنرُحْ أعصابهم المنهكة، ولا معنى لاتهام الجن بما لم يفعلوا.

وجاءني صديق يقول لي: أرى أن تسمع كلام أهل العلم في هذه القضية. قلت: مرحباً بكلام أهل العلم، هاتِ ما عندك.

(١) الحانات: مفردتها «الحانة»، وهي موضع بيع الخمر. (م).

(٢) يُساور: يصارع. (م).

قال: **إِنَّ مَسَّ الشَّيْطَانِ لِلإِنْسَانِ ثَابِتٌ بِالْكِتَابِ وَالسَّنَةِ**، فأما الكتاب فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة / ٢٧٥].

وأما السنة فقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ»، وقوله: «فناء أمتي بالطعن والطاعون وخز أعدائكم من الجن. وفي كل شهادة»، وقوله: «ما من مولود يولد إلا نخسه^(١) الشيطان فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه عليهما السلام».

قال الشيخ منصور ناصف - رحمه الله: «إِنَّ الْوَاقِعَ مِنْ هَذَا كَثِيرٌ وَمَشَاهِدٌ، حَتَّى إِنَّ عَبْدِ اللَّهِ ابْنَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ سَأَلَ وَالِدَهُ - كَمَا فِي أَكَامِ الْمَرْجَانِ - فَقَالَ: يَا وَالِدِي، إِنَّ قَوْمًا يَقُولُونَ: إِنَّ الْجَنِّي لَا يَدْخُلُ بَدْنَ الْمَصْرُوعِ مِنَ الْإِنْسَانِ. فَقَالَ: يَكْذِبُونَ، هُوَ ذَا يَتَكَلَّمُ عَلَى لِسَانِهِ. ثُمَّ قَالَ الشَّيْخُ مَنْصُورٌ: مِنْ هَذَا وَضَحَ الْحَقُّ وَاسْتَبَانَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ».

قلت: إقحام الإيمان والكفر هنا لا معنى له، ولعله من غلو بعض المتدينين في إثبات قضايا هامشية. وأهل الفقه منزهون عن هذا المسلك.

(١) نخس: هيج، أزعج. (م).

إن عالم الفلك لا يعنيه أن تصبَّ مجاري الإسكندرية في الصحراء أو البحر المتوسط، ولا يعنيه أن تمر السفن التجارية من قناة السويس أو تدور حول رأس الرجاء.

الذي يعنيني هو عقائد الإسلام وحاضر الوحي الإلهي ومستقبله.

وعندما تناقلت الصحف أن الشيخ عبد العزيز بن باز أخرج شيطاناً بوزياً من أحد الأعراب، وأن هذا الشيطان أسلم، كنت أرقب وجوه القراء، وأشعر في نفوسهم بمدى المسافة بين العلم والدين. إن قدر القرآن الكريم أعظم كثيراً من هذه القضايا.

ونعود إلى ما ذكره صديقنا من أدلة على أن الشيطان يسكن جسم الإنسان ويؤثر فيه بما يشاء.

أما الآية الكريمة: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة / ٢٧٥]، فجمهور المفسرين على أن ذلك يوم الجزاء، وسبب هذا التفسير أن أحداً لم ير أكلة الربا مصروعين في الشوارع توشك أن تدوسهم الأقدام.

ومن ثم جعلوا ذلك عندما يلقون الله فيحاسبهم على جشعهم وظلمهم.

ونقل الشيخ رشيد عن البيضاوي في هذا التشبيه أنه واردٌ على ما يزعمون من أن الشيطان يَخْبِطُ الإنسان فيصرع، والخبْطُ ضربٌ على غير اتساق كخَبْطِ العشواء.

ثم قال صاحب المنار: «فالأية على هذا لا تثبت أن الصَّرَع المعروف يحصل بفعل الشيطان حقيقة ولا تنفي ذلك. وفي المسألة خلافٌ بين المعتزلة وبعض أهل السنة، أن يكون للشيطان في الإنسان غيرٌ ما يُعَبَّرُ عنه بالوسوسة. وقال بعضهم: إن سبب الصرع مَسُّ الشيطان كما هو ظاهر التشبيه، وإن لم يكن نصًّا فيه. وقد ثبت عند أطباء هذا العصر أن الصَّرَع من الأمراض العصبية التي تعالج كأمثالها بالعقاقير وغيرها من طرق العلاج الحديثة. وقد يعالج بعضها بالأوهام.. إلخ.

أمَّا حديثُ أنَّ الشيطانَ يجري من ابن آدم مجرى الدم فإن القصة التي ورد فيها تشرح المراد منه. قالت صفية - زوجة رسول الله ﷺ: «كان رسول الله مُعْتَكِفًا فأتيته أزوره ليلاً فحدثته، ثم قمتُ إلى بيتي. فقام النبي ﷺ يمشي معي مُودِّعًا - وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فَمَرَّ رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعَا. فقال لهما: على رِسْلِكِما - أي تَمَهَّلَا - إنها صفية بنت حيي. قالوا: سُبْحَانَ الله يا رسول الله. قال: «إنَّ الشيطانَ يجري من الإنسان مجرى الدم، فَخَشِيتُ أن يقذفَ في قلوبكما شيئًا، أو قال: شرًّا...».

وظاهر من الحديث أن الرسول يريد منع الوسوسة التي قد يُلقِيها الشيطان عندما يُرى مثلُ هذا المنظر، ومع أن الصَّاحِبِينَ أنكروا واستعظما أن يجري في نفسها شيء من ظنون السوء بالنسبة للمعصوم - عليه الصلاة والسلام، فإن النبيَّ أراد منع هذه الوسوسة.

ولا صلة للحديث باحتلال الشيطان لجسم الإنسان.

وأما الحديث الآخر وهو أن الطاعونَ وخزُّ الجن وهم أعداء البشر فيكفينا في شرحه صاحبُ المنار عندما قال: «يرى المتكلمون أن الجن أجسام حية خفيفة لا تُرى، وقد قلنا غير مرة: إن الأجسام الحية الخفية التي عُرِفَتْ في هذا العصر بواسطة النظارات المكبرة، وتسمى «بالميكروبات»، يصحُّ أن تكونَ نوعاً من الجن، وقد ثبت أنها عللٌ لأكثر الأمراض، قلنا ذلك في تأويل ما ورد من أن الطاعون من وخز الجن. على أننا نحن المسلمين لسنا في حاجة إلى النزاع فيما أثبتته العلم وقرره الأطباء أو إضافة شيء إليه مما لا دليل في العلم عليه؛ لأجل تصحيح بعض الروايات الأحادية. ونحمد الله على أن القرآن أرفع من أن يعارضه العلم..».

ونجِيءُ إلى حديث نخس الشيطان للإنسان كما يذكر الرواة، ونقول: خُيِّلَ إليَّ أن الشيطان قابع تحت الرحم يستقبل الوليد القادم وهو شديد الحقد، يقول له: إن قصتي مع أبيك الأول لم تنته بعد. وسأحاول إرهابك كما أرهقتة.

ثم ينخسه نخسة يَصْرُخُ الوليد الساذج منها. ثم يستقبل بعد ذلك حياته خارج الرحم.

وقد اقترب الشعراء من هذا المعنى عندما قال قائلهم:

لما تُؤذَنُ الدُّنْيَا به من صرُوفِها يكونُ بكاءُ الطفلِ ساعةً يولد

وقد كانت أم مريمَ باديةَ القلقِ عليها عندما استجارت بالله أن يصونها ويصون ذُرِّيَّتَهَا ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران / ٣٦]. ومريم وابنها على آية حال من عباد الله الصالحين، وليس للشيطان سلطانٌ على أولئك العباد.

ونظر إلى الموضوع من خلال أقوال العلماء المحققين، قال صاحبُ المنار: «في حديث أبي هريرةَ عندَ الشيخين وغيرهما واللفظ هنا لمسلم «كل بني آدم يمسُّه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها»، فسَّرَ البيضاويُّ المسَّ هنا بالطمع في الإغواء، وقال الأستاذ الإمام: إذا صح الحديث فهو من قبيل التمثيل لا من باب الحقيقة، ولعلَّ البيضاويُّ يرمي إلى ذلك. قال الشيخ رشيد: والحديث صحيح الإسناد بغير خلاف، ويشهد له من وجه حديث شق^(١) الصدر وغسل القلب، بعد استخراج حظ الشيطان منه، وهو أظهر في التمثيل، ولعل معناه أنه لم يبق

(١) ارجع إلى كتابنا فقه السيرة، وقد شغب عليه بعض القاصرين.

للشيطان نصيبٌ في قلبه ولا بالسوسة، كما يدل على ذلك قَوْلُهُ في شيطانه: «إلا أَنَّ اللهَ أعانني عليه فأسلم»، وفي رواية مسلم «فلا يأمر إلا بخير».

ثم قال صاحب المنار رحمته الله عليه: «المحقق عندنا أن ليس للشيطان سلطاناً على عباد الله المخلصين وخيرهم الأنبياء، والمرسلون. وأما ما ورد في حديث مريم وعيسى من أن الشيطان لم يمسهما، وحديث إسلام شيطان النبي صلى الله عليه وسلم، وحديث إزالة حظ الشيطان من قلبه، فهو من الأخبار الظننية؛ لأنه من رواية الآحاد، ولما كان موضوعها عالم الغيب، والإيمان بالغيب من قسم العقائد، هي لا يؤخذ فيها بالظن لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم / ٢٨]. كنا غير مكلفين أن نؤمن بضمون هذه الأحاديث في عقائدنا.

وقال بعضهم: أيؤخذ فيها بأحاديث الآحاد لمن صحت عنده. ومذهب السلف في هذه الأحاديث تفويض العلم بكيفيتها إلى الله تعالى.... إلخ».

ومع أن مذهب السلف أحب إلي إلا أن مدافعة أعداء الإسلام تقتضي مزيداً من الحذر واليقظة، ولست أحب أن أفتح أبواب الشعوذة والسحر والدجل باسم أن الشيطان احتلَّ بدن إنسان.

وقد قبضت الشرطة من أيام علي رجل ظلَّ يهوي على أحد المرضى بعصاه حتى أحمَدَ أنفاسه، وكان الأحمق يظن أنه يضرب الشيطان ليخرج، وكان يقول له: اخرجْ عدوَّ الله. وانتهت المأساة بقتل المريض البائس.

وما يرويه صاحب «أكام المرجان في أحكام الجان» أكثره خرافاتٌ وخيالاتٌ، وإن ذكره ابنُ حنبلٍ وابنُ تيمية وغيرهما.

نحن نعلم أن الأرض التي نسكنها هباءة صغيرة في كون ضخم فخم يضح بالحياة والأحياء! نعم، قد تكون أرضنا حَبَّةَ رملٍ على شاطئ الوجود الرحب الذي تختفي أبعاده عن وهمنا.

ونحن نشعر بسعة الملكوت عندما نتابع مباحث الفلكيين، وقطرات من المعارف التي ترشح عليهم من إدمان النظر في الفضاء.

ونستطيع الحكم بأنه من حماقة الظن بأننا وحدنا الأحياء في هذا الوجود الكبير. إن الذي يبني ناطحة سحاب لا يدع الريح تصفر في جنباتها مكتفياً بإسكان غرفة في سرداب منها.

إن العالم مشحون بالأحياء التي خلقها الله لتدلَّ عليه وتشهد بمجده، ومن غرور البشر أن يحسبوا أنفسهم الحياة كُلَّها.

ومع النظر في القرآن الكريم ندرك تلك الحقيقة، يقول الله تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ. يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء / ١٩ - ٢٠]، ويقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى / ٢٩].

والآيات كثيرة، ومنها نعلم أن أبناء آدم نوع من المخلوقات، وليسوا المخلوقات كلها. هناك الملائكة، ولا نتحدث الآن عن وظائفهم. وقد تكون هناك كائنات أخرى لا ندري شيئاً عن سيرتها أو مصيرها، وهناك عالم الجن الذي نؤمن هنا إلى بعض سماته.

إن القرآن الكريم حدثنا عن الشيطان الأكبر إبليسَ عَدُوَّ آدمَ وبنيه، وحدثنا عن الجن مُبِينًا أنهم يأكلون وينسلون ويكلفون، وأن فيهم المؤمنَ والكافرَ والتقِيَّ والفاجرَ.

وقد علمنا أن الجنَّ لهم حياتهم الخاصة بهم، وأنهم أشدُّ منا قوة، وأنهم يروننا ولا نراهم. ومع ذلك فإن رجالاً من البشر أمكنهم الله من تسخير الجن؛ كسليمان الذي جاء في وصف سلطانه ﴿وَمَنْ أَلْجَىٰ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ . يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ ﴾ [سبأ/ ١٢-١٣].. إلخ.

وفي هذا السياق كشف القرآن الكريم عن أن الجنَّ لا يعلمون الغيب، وأن هوايتهم في إغواء أبناء آدم لا تتعدى المكر السيئ واستدراج المغفلين، ولذلك قال في وصف العصاة من البشر: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾ [سبأ/ ٢٠-٢١].

تدبر هذه الجملة ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ ﴾ [سبأ/ ٢١] لتعلم حدودَ مقدرته على الإيذاء.

هل الجرائم الخفية من عالم الجن؟ لا يستبعد صاحب المنار هذا، مستشهداً بالحديث في سبب الطاعون، وقد يكون رأيه صحيحاً، وقد يكون الجن الواعون الخبثاء أصحاب بصر بعالم الجرائم، وأصحاب قدرة في إصابة البشر بهذه الجرائم وما تحمل من علل.

ولعل مطالبة المؤمنين بالتعوذ من الجن في أوقات وأماكن معينة ما يشهد لذلك، فالمسلم مكلف عند الذهاب إلى الخلاء أن يقول: «أعوذ بك من الخُبث والخبائث». وعندما يتصل بزوجه أن يقول: «اللهم جنّبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا».

ولا أحب أن أمضي في طريق غامضة المعالم، ولا أن أشغل المسلمين بأمور توافه، ويبيّضتهم مستباحة وحدودهم مجتاحة.

إن هناك قسماً في الأديرة يزعمون أنهم يسخرون الجن، وهناك رجال منّا يرددون الدعوى نفسها.

والفرصة أمام الخرافيين موجودة ليبيضوا ويفرخوا، ولا يجوز أن ننسى قول الله لكل مسلم: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء/ ٣٦].

إن المسلم الحق يخاصم الأوهام ويُصَادِقُ اليقين ولا تستفزّه تُرّهاتُ^(١) المرضى.

قرأت هذا الحديث ثم استغرقتني الفكر عن عطاء بن أبي رباح، قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ، فقالت: إني أصرعُ وأتكشف فادعُ الله لي. قال: إن شئت صبرتِ ولك الجنة، وإن شئت دعوتُ الله أن يعافيكِ. قالت: أصبر، فادعُ الله لي ألا أتكشف، فدعا لها.

هذه امرأة مصابةٌ بالصَّرَعِ أثرت أن تموت به ضامنةً الجنة كما بشرها رسول الله ﷺ.

وكل ما أحببته ألا يتكشفَ بدنُها في أثناء الغيبوبة التي تنتابها، وقد تكفل لها النبي بذلك. قلت: لو كان مرضها من شيطان يركبها أكان النبي الكريم يتركها صريعةً هذا اللعين؟ ما أظن.

ماذا يقع لو كانت المرأة من أهل هذا العصر؟ ربما عولجت بالصددمات الكهربائية لتشفى. ربما قال بعض الناس: يَسْكُنُهَا شَيْطَانٌ، وظلوا يضربونها حتى يخرج الشيطان المزعوم منها، وربما خرجت رُوحُها مع الضرب المبرح.

(١) التُّرّهات: الأقوال التي لا طائل لها. (م).

ليس لديّ مانعٌ من مناقشة الموضوع كله بفكرٍ معتدلٍ مفتوحٍ. أما الذي أرفضه بقوة فهو إقحام الإيمان والكفر في الموضوع؛ كأن الدين سلوكٌ ماجنين، أو نزوعٌ مجانين.

الخطأ والصواب هنا في تشخيص مرض، وقد أستبعد ما يصدقه الآخرون دون حرج وأنا أريد حماية أمتنا من الشعوذة، والتمائم، وحروف الجمل، وأرقام الحروف، وحساب الطوالع، وصداقة الأشباح وتسخير الجن.. إلخ.

المرض الحقيقي عند قوم يتهمونك بأنك تنكر الجنّ وعالم الغيب؛ لأنك ترفض أوهامهم، أولئك بلاء على الإسلام.

والناس في عصرنا يعانون من الوحشة والإرهاق، وقد لقيني فتیان وفتيات يشكون من مسّ الشيطان وكدّ الأعصاب، وهم بحاجة إلى مُربّين رحماء.

وفي أقطار أوروبا وأمريكا يقوم الأطباء النفسيون بدور كبير في علاج هذه المآسي، بيد أن أغلب هؤلاء الأطباء من مدرسة «فرويد»، وهو رجل مُعتلّ الفكر طافح الشهوة، ووصايا هذه المدرسة تدور على محاربة الكبت، وإرخاء العنان للنفس.

والكبت الدائم قد يكون سببَ بلاءٍ، ولكن الكبت الموقوت دعامة التربية والترقي. والتفرقة بين الأمرين لا يعرفها عديمو الإيمان تاركو الصلوات، أحلاس^(١) الشهوات.

وهناك شيء كان أولى بالمتدينين أن يعرفوه ويعرفوا الناس به، ذلك أن شياطين الإنس والجن تنتشر في كل مكان، وتحاول الإيقاع بكل إنسان، والاستعاذة منها واجبة ونافعة.

وقد أمر الله بها نبيه ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون / ٩٧ - ٩٨].

وكان رسول الله يقول: «أعوذُ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه، ونفخه ونفثه»^(٢). ومن أدعيته: «اللهم إني أعوذ بك من الهرم، وأعوذ بك من الهدم ومن الغرق، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت».

هذا المسلك أفضل من إشاعة سُكْنَى الشيطان لِبَدَنِ الإنسان والاحتيال على طرده بِشَتَى الأوهام.

(١) أحلاس: مُولَعُون. (م).

(٢) الهمز: الدفع إلى العصيان. والنفخ: إلى الكبر. والنفث: إلى القلق.

فِقهُ الكِتَابِ أَوَّلًا . . .

أحاديث حُرِّفَتْ عن مواضعها أو جهل معناها - القتال في الإسلام
الأمّة ليست على مستوى الدعوة الناجحة - أحاديث الزهد
جهالة بعض المتحدّثين في السنة هذه الأيام.

فقه الكتاب أولاً



تلاوة قليلة للقرآن الكريم، وقراءة كثيرة للأحاديث، لا تعطيان صورة دقيقة للإسلام، بل يمكن القول بأن ذلك يشبه سوء التغذية، إذ لا بد من توازن العناصر التي تكون الجسم والعقل على سواء.

ولنضرب أمثلةً متدرجة من الخفيف إلى الدقيق: يرى الصنعاني أن النَّذْرَ حرامٌ، معتمداً على حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أنه نَهَى عن النذر، وقال: «إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من مال البخيل».

والنذر الذي لا يأتي بخير هو النذر المشروط الذي يشبه المعاضات التجارية، يقول الإنسان: لله عليّ كذا إن شفيت من مرضي أو إن نجح ابني... إلخ.

أمّا النذور الأخرى في طاعة الله فلا حرج فيها، ما دامت من الناحية الفقهية صحيحة.

والسؤال: كيف يحكم بأصل الحرمة في النذور كلها مع قوله تعالى في وصف الأبرار: ﴿يُوفُونَ بِالَّذَرِيعَاتِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان / ٧]؟ وقوله في موضع آخر: ﴿ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج / ٢٩].

وقد رأيت الجهل بالقرآن الكريم يبلغ حدًا منكورًا عند شرح حديث مسلم «كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ فَآكُلُهُ حَرَامٌ»، فَإِنَّ شَارِحَ الْحَدِيثِ زَعَمَ أَنَّ الْحَدِيثَ قِيلَ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، وَأَنَّهُ نَسَخَ مَا نَزَلَ بِمَكَّةَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لغيرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام / ١٤٥].

والزعم بأن حديث أحاد ينسخ آية من القرآن الكريم زعم في غاية الغثاثة^(١)، ثم إن الآية التي قيل بنسخها تكرر معناها في القرآن أربع مرات، مرتين في سورتي الأنعام والنحل المكيتين، ومرتين في سورتي البقرة والمائدة المدنيتين، بل ما جاء في سورة المائدة هو من آخر ما نزل من الوحي.

فكيف يفكر عاقل في وقوع النسخ؟ ثم إن عددًا من الصحابة بينهم ابن عباس، وعددًا من التابعين فيهم الشَّعْبِيُّ وسعيد بن جبيرة، رفضوا حديث مسلم، فكيف نترك آيةً لحديثٍ موضع لغطٍ؟

(١) الغثاثة: الرداءة. (م).

ولندع ما ذكرنا إلى حديث يدخل في دائرة القانون الدولي بلغة العصر.

عن عبد الله بن عون: كتبت إلى نافع - رحمه الله - أسأله عن الدعاء قبل القتال - ويقصد بالدعاء دعوة الناس إلى الدخول في الإسلام قبل المعركة، قال عبد الله: فكتب إلي: «إنما كان ذلك في أول الإسلام وقد أغار النبي ﷺ على بني المصطلق وهم غارون...».

ونافع - غفر الله له - مخطئ، فدعوة الناس إلى الإسلام قائمة ابتداءً وتكراراً، وبنو المصطلق لم يقع قتالهم إلا بعد أن بلغت الدعوة، فرفضوها وقرروا الحرب.

ورواية نافع هذه ليست أول خطأ يتورط فيه، فقد حدث بأسوأ من ذلك.

قال: «كنت أمسك على ابن عمر المصحف فقرأ قوله تعالى: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة / ٢٢٣]، فقال: تدري فيم نزلت هذه الآية؟ قلت: لا. قال: نزلت في رجل أتى امرأته في دبرها، فشق ذلك عليه، فنزلت هذه الآية».

قال عبد الله بن الحسن: إنه لقي سالم بن عبد الله بن عمر، فقال له: «يا عم، ما حديث يُحدثه نافع عن عبد الله أنه لم يكن يرى بأساً بإتيان النساء في أدبارهن. فقال: كذب العبد وأخطأ، إنما قال عبد الله: يُؤْتُونَ فِي فُرُوجِهِنَّ مِنْ أَدْبَارِهِنَّ».

ونعود إلى رواية نافع وهي عدم الدعوة قبل القتال ونقول: إنه مع اهتزازها فإن أهل الحديث - لقلّة فقههم - رَوَّجُوا لها حتى جعل الصنعاني عنوان الموضوع «الغارة بلا إنذار»^(١).

غارة بلا إنذار؟ أين هذا المسلك من قوله تعالى: ﴿وَأِمَّا تَخَافَتِ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانذِرْهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾ [الأنفال / ٥٨]، وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓٔٓ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُٓٔ مَا تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء / ١٠٩].

والغريب أن الشيخ ناصر الألباني - وهو من أعلم رجال الحديث في عصرنا - عتب عليّ أي تركت رواية نافع، وآثرت عليها روايات أخرى وأنا أصور طبيعة القتال في الإسلام.

في كتابي «جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج» أحصيت أكثر من مائة آية تتضمن حرية التدين، وتقييم صروح الإيمان على الاقتناع الذاتي، وتُقْصِي الإكراه عن طريق البلاغ المبين.

وليس في تاريخ الثقافة الإنسانية كتاب ينشئ العقل المؤمن إنشاءً، ويعرض آيات الله في الأنفس والآفاق لتكون ينباع فكر يتعرف على الله، ويستريح إلى عظّمته كما وقع في هذا القرآن.

(١) هذا العنوان من وضع منخرج الكتاب استفادة من جوهر الموضوع، ولا لوم عليه.

ومع ذلك، فنحن المسلمين يوجد بيننا من ينسى هذا كله ليقف عند راو تائه يزعم أن الدعوة إلى الإسلام كانت في صدر الإسلام ثم أُلغيت. ومن أُلغاه؟

إنه لأمر ما، يجيء بختام خاص لسورة براءة التي نزلت في السنة التاسعة، يقول عن الكافرين: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة / ١٢٩]. أفي هذا الختام رائحة إكراه؟

إن الإيمان أساس، والجهاد حارس، وستبقى الحراسة فريضة قائمة ما بقي في الدنيا من يهدد الأمان، ويستنكر الإيمان؟

ومعنى هذا أن الجهاد وسيلة وليس غاية. ويوم تسود الحريات أرجاء الحياة، وتنمو أعواد التوحيد فلا يرى من يكسرها أو يحرقها، فلا قتل ولا قتال. نعم، لا قتال حيث تستخفي الفتن وتشيع العدالة.

ذلك هو ديننا كما تشرحه آيات الكتاب العزيز، ويظهر في السيرة النبوية المباركة.

وفي أربعة مواضع متشابهة من القرآن الكريم كانت وظيفة الرسالة الخاتمة:

١- تلاوة الوحي، أو قراءة المنهاج الذي يسير عليه المسلمون أو تحديد النطاق الذي يعملون داخله.

٢- تربية الأمة بتنمية ملكاتها الطيبة وكبح^(١) غرائزها الجامحة.

٣- تقرير الأحكام التفصيلية التي جاء بها الكتاب نظاماً للفرد والمجتمع والدولة، وهي أحكام مقرونة بالحكمة والسداد.

هذه الأثلاث الثلاثة هي عناصر الرسالة التي نهض بها كبير الأنبياء، وأحيا بها مواريت من سبقوه وأغنى بها العالم عن الفلسفات الأرضية والأهواء البشرية.

وقد ذكرت ثلاثتها^(٢) عند البشارة بالبعثة الأخيرة لما دعا إبراهيم وإسماعيل ربهما بإرسال محمد.

وذكرت كلها مرة ثانية^(٣) عند جعل المسجد الحرام قبلة الناس في المشارق والمغرب، فكان اتجاه البشر إلى الكعبة نعمة أخرى على العرب بعد ابتعاث النبي منهم، فكان تشريفاً لأرضهم بعد تشريف جنسهم.

(١) كبح غرائزها الجامحة: محاولة السيطرة عليها. (م).

(٢) [البقرة/ ١٢٩] ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْنَا آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

(٣) [البقرة/ ١٥١-١٥٢] ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ. فَأَذْكُرُوا لَكُمْ آذَانَكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾.

وذكرت مرة الثالثة^(١) بعد هزيمة أحد وانكسار قلوب المؤمنين وحاجتهم إلى ما يجبرها ويعيد الثقة إليها؛ وذلك في سورة آل عمران، التي واست المهزومين وذكرتهم برسالتهم.

وذكرت مرة رابعة^(٢) عند كشف السر في إقصاء اليهود عن ميدان التربية الدينية، وإبعادهم عن رسالات الله، وإحلال العرب محلهم، بعد فشل بني إسرائيل في هذه الساحة.

تلك هي رسالتنا تحت عناوينها الرئيسة. وما من شك في أن الجهاد حق لتأمين الدعوة وهزيمة الفتانين.

فأما تصوير الإسلام بأنه يتحرش^(٣) بالآخرين ويتعطش لدمائهم فهو افتراء على الله والمرسلين، ومع أننا أشبعنا هذا الموضوع بحثاً في كتبنا الأخرى فإن الحاجة إلى الكلام فيه لا تزال ماسة؛ ذلك أن حديث الإفك لا ينقطع.

(١) [آل عمران / ١٦٤]. ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ

ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾

(٢) [الجمعة / ٢-٤]. ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ

وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . وَءَاخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . ذَلِكَ فَضْلُ

اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٣﴾

(٣) يتحرش بـ: يتعرض لهم ليهيجهم. (م).

وفي هذه الأيام النَّحِسَات شاعت الخلافات في أرجاء الأمة وقتل بعضها بعضاً، بل إن حصيلة القتلى في الفتن الداخلية أَرَبَى^(١) من القتلى في محاربة الاستعمار الصليبي العائد المتحالف مع اليهود والناقمين.

والحكومات الإسلامية على الإجمال دون مثيلاتها من حكومات العالم عدالةً ونزاهةً.

والجماهير أقل ثقافة وإنتاجاً واقتداراً على الحياة وتكاليفها.

والتقاليد السائدة تبتعد عن الإسلام الحنيف روحاً ونصاً.

فأمتنا من أفقر أم الأرض إلى التعليم والتربية ومعرفة الذات.

وفي هذه الأونة استخرج البعض حديث «بعثتُ بالسيف بين يدي الساعة، وَجُعل رزقي تحت ظل رُمحي، وَجُعل الذلُّ والصَّغار على من خالف أمري..».

قلت: ليت لكم سيفاً يحمي الحق، ويرد عنه العوادي، فإن الحق يغرق وليس له صريخ.

ليت لكم رمحاً ترزقون في ظله، إِنَّكُمْ تتسولون أرزاقكم من غراس عدوكم، وهو الذي يصنع السلاح الذي تشترونه بالغالي والرخيص لأغراض يعلمها الله.

مالكم ولهذا الحديث؟ قال لي غلام متعالم: إنه يردُّ كل ما تقول.

(١) أربى: أزيد. (م).

قلت: سأتجاوز عن ضعف هذا الحديث من ناحية سنده، ولن أظعن في صحته - مع أن الطعن وارد - ولكنني أسأل: لماذا لا تتعلمون الدين وتحسنون فقهه والعمل به، ثم تحسنون الدعوة إليه؟ عندما يراكم العالم أدنى مستوى منه فلن يسمع منكم ولن يرتضيكم قادة له، لا يجوز أن يكون الإمام أجهل من المأموم.

ما وظيفة السيف في أيديكم وأنتم متظالمون؟ جائرون عن سبيل الرشاد؟

وتذكرت أن «لينين» الحاكم الأول للشيوعية، وناقلها من الميدان النظري إلى ميادين السياسة، أُلّف كراسة عن اليسار الطفولي أو الطفولة اليسارية، نعى فيها على جيل من الناس يرفع شعار الشيوعية ولا يحسن خدمتها.

قال: «هذه طفولة، والطفولة تتميز بالقصور والعناد»، وقد طردها من ميدان العمل حتى تستطيع الشيوعية الانطلاق دون عائق.

وليت القيادة بقي في يد الأطفال، إذن لاخفت الشيوعية من زمان طويل بفضل الأصدقاء الجهلة.

واليوم توجد طفولة إسلامية تريد الانفراد بزمام الأمة، وعندما يسمع أولو الألباب حديثها يطرقون محزونين.

والمخيف أنها طفولة عقلية تجمع في غمارها أربابَ لحى، وأصحابَ هاماتٍ وقاماتٍ، يقعون على أحاديث لا يفهمونها، ثم يقدمون صورة للإسلام تثير الانقباض والخوف.

إن نبينا - عليه الصلاة والسلام - تكلم كثيراً وكلامه موضع الإعزاز والطاعة، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء / ٦٤]. وكان يمكن أن تعرف مرامي الكلام وحقائقه لو ضبطت الملابس التي قيل فيها.

وأياً ما كان الأمر فإن إطار القرآن الكريم ضابط دقيق إذا عزت معرفة الملابس. ونحن نلاحظ أن القرآن أطال الحوار مع مخالفيه، وافتن قبل أي شيء في بسط براهينه على صدق عقائده، وشرف عباداته، وجدوى ما يدعو إليه من عمل صالح وغايات كريمة.

وفي طول السور وعرضها مناشدة حارة للإنسان أن يرعوي^(١) ويتوب إلى رشده ويتوب إلى ربه.

ولم تبدأ سياسة العصا الغليظة إلا بعد أن أوجعت عصي الأعداء جلود المؤمنين، وكسرت عظامهم. هنا نزل قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ

(١) يرعوي: يكف عما يفعل من غي. (م).

ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ [الحج / ٣٩].

وأنبىء الله على اختلاف الليل والنهار خاضوا أشرف قتال يمكن أن يقع على ظهر الأرض، والقول بأن فرعون كان أولى بالحق من موسى، أو أن اليهود كانوا أولى بالنصر من عيسى، أو أن خصوم محمد كانوا أولى بالبقاء منه قول عاهر منكور، لا يصدر من صاحب دين أو خلق.

المهم أن المنتمين إلى الله يحسنون أولاً الدعوة ويوفرون فرص السلام والمصالحة، ويقدرّون أخطاء الطباع البشرية، فإذا أُلجئوا بعدئذ للقتال كانوا رجالاً، وكانوا كراماً.

وهذا ما فعله محمد - عليه الصلاة والسلام - وعُرف في سيرته بوضوح، وقد لخصه شوقي في كلمات موجزة:

الْحَرْبُ فِي حَقِّ لَدَيْكَ شَرِيعَةٌ وَمَنْ الشُّمُومِ النَّاقِعَاتِ (١) دَوَاءٌ

فإذا جاء مسلم قصير الرؤية، وكان أول ما يذكره في معاملة أعداء الإسلام الحديث المعروف «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله...»، كان إنساناً ممن يحرفون الكلم عن مواضعه، ويتعاملون بغباء شديد مع تراث النبوة.

(١) الناقعات: المجتمعة. (م).

وقد شرحنا في كتاب آخر أن الحديث قيل مع نزول سورة براءة، قبل وفاة الرسول بنحو عام، وبعد جهاد رهيب مع وثنيات أعطاهها الإسلام حق الحياة، ولم تعطه إلا الموت، وعاش معها دهرًا على مبدأ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون / ٦]، فلم ير منها إلا الغدرَ والاغتيالَ.

وكان آخر ما صنعت لتعيد الليل إلى جزيرة العرب أن كذابًا اسمه «مُسَيْلَمَةٌ» قام بحركة ردة مزعجة لم يطفئها حُفاظُ القرآن إلا بدمائهم، فتفانوا في إطفائها حتى كادوا يبيدون، وحتى خيف من انقراض الحفظة بعد العدد الكبير الذي استشهد منهم.

وصَدْرُ سورة «براءة» يعطي صورة كاملة لهذه الوثنية الخائنة الجريئة، وفي هذا الجَوْ قِيلَ هذا الحديث «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله..»، فلا يجوز لجاهلٍ أن يعدّو به مكانه.

هل قيل يومَ صعدَ الرسولُ الصفا، غداةَ أُرسِلَ وشرعَ يذكرُ الجاهليين بالبعث ويدعوهم إلى التوحيد؟

هل قيل يومَ عادَ كسير القلب من الطائف، ودَخَلَ مكةَ في جوارِ مشرِكٍ؟

هل قيل يومَ اختفى في الغار؛ ليضللَ مطارديه، ويطلبَ الحياةَ لنشر الدعوة في أرجاء الجزيرة؟

هل قيل يوم أعطى الناس في المدينة المنورة حَقَّ اللِّحَاقِ بمشركي مكة،
وَتَرَكَ الدِّينَ إِذْ اسْتَبْهَطُوا تَكَالِيفَهُ؟

والحمد لله لم يرتد أحدٌ، ولم يلحقَ بالمشركين رجلٌ وَلَا امرأة. بل الذي
حدث هو العكس.

هل قيل في عمرة القضاء، قبل فتح مكة بعام، وهو يطوف بالكعبة وحولها
مئات الأصنام فلم يكسر منها صنماً، ولم ينقض للمشركين عهداً؟

إن أهل الفقه هم الذين يتحدثون عن الإسلام، ويشرحون المرويات التي
حفلت بها الكتب ووقع عليها الدهماء كما يقع الذبابُ على العسل.
وقد كان أهلُ الفقه قديماً هم المتحدثين عن الإسلام، وأعرفَ الناس بتراث
النبوة.

وأنا وغيري من المشتغلين بالدعوة الإسلامية ننظر باهتمام بالغ إلى أحوال
الناس وراء دار الإسلام، ننظر إلى التيارات الفكرية التي تسودهم، والمذاهب
الخلقية والدينية التي تؤثر فيهم، وأنصبة الحضارة التي حصلوا عليها، ومقادير
الإنتاج التي يصدرونها للعالم.. إلخ.

وكيف نحسن الدعوة إذا لم نعرف ذلك كله؟ وقد قرأت كلمةً للأستاذ
أحمد بهاء الدين يشرح فيها شيئاً من ذلك، رأيت أن أسجلها هنا، قال:

«بعض القراء يراني معجباً بالمجتمعات الأوروبية والأمريكية عندما أتحدث عنها في رحلاتي، وهذا صحيح. لكنني كذلك أكره فيها أشياء أخرى، ترى ما الذي أوتر نقله إلى الناس في بلدي؟

البعض يفضل أن أنقل نقاط الضعف في المجتمعات الأخرى، وهذا خداع للنفس، وإرضاء لغرور كاذب، واستنامة إلى أننا أحسن من غيرنا، وتلك غيبوبة باهظة الثمن.

نحن هنا نحب أن نتكتم عُيوبنا وأمراضنا. أمّا هناك فهم يسرعون إلى مناقشة أمراضهم الاجتماعية علانيةً ومصارحةً؛ ولذلك يستشفون منها، على حين يَبْقَى المرض لدينا كامناً.

وما لا نراه أو ما لا ننشره يُعدُّ كأنه غير موجودٍ، وذاك بلاء مجتمعات الكتمان، لا تزالُ تنافقُ حتى تهلك.

وقد تَخَطَّى غيرنا هذا الطور، وشرع يناقش أخطاءه بقوة، المخدرات - الخمر - تصبح مشكلة قومية رسمية وشعبية. و«الإيدز» تتفجر أنبأؤه بمجرد ظهوره كالقنبلة، على حين نسمي نحن «الكوليرا» حين تظهر بأمراض الصيف، ويمضي كل شيء في هدوء.

وهناك أمرٌ آخرُ، الإنكليز يعتبروننا كُسالى؛ لأنهم يعملون من الصباح إلى المساء، والأمريكان يعتبرون الإنكليز كسالى؛ لأن الأمريكي يعمل ضعف الإنكليزي، ولا يقطع يوم العمل بشرب البيرة. ومن يرى الأمريكي أو الأمريكية يعملون، يظن أنهم شعب فقير يبني مستقبله بالكدح والكفاح، مع أنهم أغنى الشعوب.

والآن ظهر اليابانيون يتهمون الأمريكيين بالكسل، والأمريكان في ذعر من «مرض» العمل والاجتهاد والتفاني لدى اليابانيين. إنهم يعتبرونهم مَرَضَى لعدم وجود أيِّ متعة يرفهون بها عن أنفسهم، ولذلك يرون المنافسة غير عادلة بين الشعبين الكبيرين. هذا هو العالم الذي يتقدم من حولنا.

ويلفتني بقوة شيوع القيم التي لا تحتاج إلى عُمَلَةٍ صعبة. ولكن لها ثماراً يانعةً، أو مردوداً هائلاً؛ النظام، احترام الدور، والقواعد العامة للحياة، النظافة التامة فلا تجد من يُلقِي ورقة على الأرض».

ثم قال الأستاذ أحمد بهاء الدين: «شكا لي سائحٌ أمريكي - ونحن في روما - من قذارة الإيطاليين؛ لأنهم ينزلون من السيارات - الحافلات - ويُلْقُونَ تذاكرَ الركوبِ على أرض الشارع» (انتهى كلامه). ونقول:

هذه أنباء السباق الحضاري بين الدول الصناعية في أوروبا وأمريكا وشرق آسيا. تُرى ما أخبار العرب والمسلمين في هذا الميدان؟ الأخبار المؤكدة أننا شعوب مستهلكة لا منتجة، وأنا نأخذ أكثر مما نعطي.

ويستحيل أن تنجح رسالة كبرى يوم يكون حَمَلَتُها في هذا المستوى. إن امتلاك الحياة الدنيا عن قدرة وخبرة هو السبيلُ الأوحَدُ لنصرة المبادئ والمذاهب.

ويوم اشتبك المسلمون الأوائل مع الدولتين العظميين الروم والفرس كانوا أحق بالنصر؛ لأنهم نازلوا أعداءهم في الميادين التقليدية المعروفة، وحملوا ذات الأسلحة، وتفوقوا عليهم بالإيمان الحق وتأييد الله.

ثم وقع في عصور التخلف الحضاري أن انسحب المسلمون انسحاباً عاماً شائناً من آفاق الحياة، وسيطرت عليهم أفكار غريبة. فهموا أن الاستعلاء على مغريات الدنيا يعني: ترك الدنيا، وأن النجاح في الامتحان يكون بالفرار منه لا بالدخول فيه واجتياز مشقاته.

ونُسيت تعاليم القرآن التي تقرر أن الأرض مخلوقة للناس، وأن التمكين فيها جزءٌ من رسالة الحياة الأولى والأخرى، وحلت محل هذه التعاليم أحاديثٌ تغري بالفقر والتجرد.

ومع أن هذه الأحاديث عند التأمل تخالف أحاديث أخرى أصحَّ منها سنداً وامتناً، وقبل ذلك تخالف منطق القرآن الذي يجعلُ الجهادَ ركناً لحراسة الإيمان ونظمه وشُعبه، مع ذلك فإن هذه الأحاديث وجدت رواجاً وسيطرت على الجماهير الكثيرة.

قرأت خمسين حديثاً ترغّبُ في الفقر وقلّة ذات اليد، وما جاء في فضل الفقراء والمساكين والمستضعفين وحبهم ومجالستهم. كما قرأت سبعةً وسبعين حديثاً ترغّب في الزهد في الدنيا والاكتفاء منها بالقليل وترهب من حبها والتكاثر فيها والتنافس. وقرأت سبعةً وسبعين حديثاً أخرى في عيشة السلف وكيف كانت كفافاً.

ذكر ذلك كله المنذري في كتابه «الترغيب والترهيب» وهو من أمهات كتب السنة، ورحم الله المؤلف الحافظ وغفر لنا وله، فهو حسن النية ناصح للأمة، بيد أن الفقه الصحيح يقتضي منهجاً آخر، ومسلماً أرشد.

وأعرف ويعرف غيري أن عبادة الدنيا أهلكت الأولين والآخرين، وأنها من وراء جرائم مذهلةٍ يقترفها الخاصة قبل العامة، والرؤساء قبل الأتباع، والأذكىاء قبل الأغبياء، ولكن العلاج الصحيح للداء العضال^(١) يكون بالتمكن من الدنيا والاستكبار على دنياها.

(١) الداء العضال: المرض الذي لا دواء له. (م).

أَمْلُكُ أَكْثَرَ مِمَّا مَلَكَ قَارُونَ مِنَ الْمَالِ، وَسَيَظِرُّ عَلَى أَوْسَعِ مِمَّا بَلَغَهُ سَلِيمَانُ مِنْ سُلْطَاتٍ، وَاجْعَلْ ذَلِكَ فِي يَدِكَ، لِتُدْعِمَ بِهِ الْحَقَّ حِينَ يَحْتَاجُ الْحَقُّ إِلَى دَعْمٍ، وَتَتْرَكَ لِلَّهِ فِي سَاعَةِ فِدَاءٍ حِينَ تَحِينُ الْمَنِيَّةُ، أَمَّا أَنْ تَعِيشَ صُعْلُوكًا، حَاسِبًا أَنَّ الصُّعْلَكَةَ طَرِيقُ الْجَنَّةِ فَهَذَا جَنُونَ وَفَتُونٌ.

إذا كان الإلحاد يفرض سلطانه بالتمكين في الأرض، فإن انصرافك عن التمكّن من الأرض فاحشة أشدّ من الزنا والربا.

ولنناقش بعض ما روي في هذا المجال لنعرف ما وراءه: عن أنس بن مالك رضي الله عنه، اشتكى سلمان الفارسي - في مرض موته - فعاده سعد بن أبي وقاص، فرآه يبكي، فقال له سعد: ما يبكيك يا أخي؟ أليس قد صحبت رسول الله صلّى الله عليه وآله؟ أليس؟ أليس؟

قال سلمان: ما أبكي واحدة من اثنتين، ضننا على الدنيا ولا كراهيةً للأخرة، ولكن رسول الله صلّى الله عليه وآله عهد إلينا عهدًا؛ وما أراني إلا قد تعدّيت.

قال سعد: وما عهد إليك؟ قال: عهد إلينا أنه يكفي أحدكم مثل زاد الراكب، ولا أراني إلا قد تعدّيت، وأما أنت يا سعد فأتق الله عند حكمك إذا حكمت، وعند قسمك إذا قسمت، وعند همك إذا هممت.

قال المنذري: وقد جاء في صحيح ابن حبان أن مال سلمان جمع بعد وفاته، فبلغ خمسة عشر درهمًا.

إن سلمان من أكابر الصحابة وأوفياتهم، والحديث يفيد أنه وجل من لقاء الله وتركته خمسة عشر درهماً.

وإنها الصورة تثير الخشية والخشوع؛ أن نرى أميراً من أمراء الفتح الإسلامي يلقى ربه بهذا التجرد والتبتل.

على حين نرى القادة والأمراء يتشبعون من الدنيا بلا حدود.

لكنّ للفقهاء سؤالاً هنا: إن سعد بن أبي وقاص الذي كان يحاور سلمان سمع من رسول الله هذا التوجيه «إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس»^(١)، فليس الميراث الكبير جريمة.

وسعد بن أبي وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة - كما جاء في السنن - وهؤلاء العشرة كانوا من أغنياء المسلمين، بل لم يكن فيهم فقير.

وزعم الرواة أن أحدهم خلف من الذهب ما كانت تعمل فيه الفؤوس.

المشكلة ليست في امتلاك المال الواسع، بل المشكلة في كيف تمتلكه؟ وكيف تنفقه؟ وقد رأينا في الدنيا أغنياء بنوا الجامعات حصوناً للعلم والبحث، وأغنياء حاربوا المرض والشظف ببأس شديد، وأغنياء قدموا لدولهم ما تطلب من ضرائب كي تضع موازنتها إقامةً للمصالح العامة.

(١) يتكففون الناس: يمدون أيديهم إليهم بالمسألة. (م).

ورأينا عثمان بن عفان يعينُ إعانةً رائعةً في الإعداد لغزوة العُسرة، حتى جعل الرسول يقول: «اللهم ارض عن عثمان فإني راضٍ عنه».

الواقع أن حديث سلمان ليس إلا تعبيراً عن حالة نفسية خاصة، ولا يعطي حكماً شرعياً عاماً.

وننظر النظرة نفسها إلى ما رواه أحمد عن أبي عسيب قال: «خرج رسول الله ﷺ ليلاً فمرَّ بي، فدعاني فخرجت إليه، ثم مرَّ بأبي بكر رضي الله عنه فدعاه فخرج إليه، ثم مرَّ بعمر - رحمه الله - فدعاه فخرج إليه. فانطلق حتى دخل حائطاً لبعض الأنصار، فقال لصاحب الحائط: أطمعنا.

فجاء بعدق^(١) فوضعه، فأكل رسول الله وأصحابه، ثم دَعَا بماء باردٍ فشرب، فقال: لتسألن عن هذا يوم القيامة. فأخذ عمرُ العِدْقَ فضرب به الأرض حتى تَنَاطَرَ البُسْرُ^(٢) قِبَلَ رسول الله، ثم قال: يا رسول الله: إنا لمسئولون عن هذا يوم القيامة؟ قال: نعم إلا من ثلاث:

«خرقة كَفَّ بها عورته (أي سترها) أو كِسْرَة سَدَّ بها جوعته، أو جُحْرٌ يتدخَّلُ فيه من الحرِّ والقرِّ».

(١) العِدْقُ: القِنُو وهو من النخل كالعنقود من العنب. (م).

(٢) البُسْرُ: التمر قبل إرطابه لغضاضته. (م).

وفي رواية أخرى «ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال، والرواية عن عثمان بن عفان: «بيت يكنه، وثوب يوارى عورته، وجلف الخبز والماء».

وفي عبارة البيهقي «كل شيء فضل عن ظل بيت، وكسرة خبز، وثوب يوارى عورة ابن آدم فليس لابن آدم فيه حق».

قال الحسن البصريُّ لراوي الحديث: ما يمنعك أن تأخذ به - وكان يعجبه الجمال؟ فقال الرجل للحسن: يا أبا سعيد إن الدنيا تقاعدت بي.

ورأيي أن الرجل كان يستطيع تقديم إجابة أفضل، إجابة من كتاب الله تعالى، فبدل أن يردَّ تطلُّعه الفطري إلى حب الدنيا، يقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف / ٣٢]. ولو جعلنا هذه المرويات محور حياة عامة لشاع الخراب في أرجاء الدنيا.

فهل هذه المرويات باطلة؟ ربما ظنَّ البعض أنني أرى ذلك. الواقع أن هذه المرويات تساق في مجال محددٍ لهَدَفٍ محدد، وهي جُرْعٌ من أدوية يتناولها الإنسان حتى لا يكون منهوماً بالدنيا شقيّاً وراء بعض الحرمان الذي يطرأ عليه.

كم من الناس لا يجد إلا هذه الضرورات؟! ومع ذلك لم يمت.

وكم من الناس أيام الحروب والأزمات عاش داخل هذا النطاق، ومع ذلك لم يمت .

وكم من الناس لديه أنصبة مضاعفة من هذه الأرزاق، ومع ذلك لم يقدر ولم يشكر .

إن عثمان بن عفان راوي هذه المعاني كان من الأغنياء، وقد استفاد من وعيها طلب الآخرة والاستعلاء على رذائل البخل والطمع .
إن سعة الفقه لا بد منها لفهم مرويات شتى .

وقد وقف الحرفيون عند هذه الآثار، فوقفوا بالعالم الإسلامي كما وقف حمار الشيخ في العقبة لا يتقدم ولا يتأخر، بل لعله تراجع إلى العصر الحجري في بعض جوانبه .

ويبدو أنّ الطيش في فهم المرويات، وسوء تقديرها مرض محذور العُقْبَى من قديم؛ فقد رَوَى الترمذي عن «الحارث الأعور» قال: «مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث، فدخلت على علي رضي الله عنه فأخبرته، فقال: أَوْ قَدْ فَعَلُوها؟ قلتُ: نَعَمْ، قال: أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أما إنها ستكون فتنة، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله تعالى فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، مَنْ تركه مِنْ

جبارٍ قصمه الله تعالى، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله تعالى. وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم. وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشيع منه العلماء، ولا يخلق^(١) على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه. وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن / ١ - ٢]. من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُديً إلى صراطٍ مستقيم. خذها إليك يا أعور^(٢).

إن الحكم الديني لا يؤخذ من حديث واحد مفصول عن غيره، وإنما يضم الحديث إلى الحديث، ثم تقارن الأحاديث المجموعة بما دلَّ عليه القرآن الكريم، فإن القرآن هو الإطار الذي تعمل الأحاديث في نطاقه لا تعدوه، ومن زعم أن السنة تقضي على الكتاب، أو تنسخ أحكامه فهو مغرور.

(١) يخلق: يبلى. (م).

(٢) يرى البعض أن الحارث ضعيف - فهو متهم بالتشيع، وبعده البحث تأكدت أنه ثقة. الحارث الأعور من الرواة الذين ناز حولهم لفظ؛ لأنه متهم بالتشيع، وقد أشاع الأعمش عنه هذه التهمة، ويبدو أن ذلك لصلة تشده إلى بني أمية، وقد قرأت عنه أخيراً بحثاً للمشايخ الغماريين المشتغلين بعلم الجرح والتعديل، ولهم مؤلفات حديثية كثيرة، وعرفت أن الحارث من الثقات، وقد يكون أحسن حالاً من بعض رواة الصحاح. ومتن الحديث الذي أثبتناه تبدو عليه أنوار النبوة. ولا يضره طعن الطاعنين.

ويوضح ما قلنا ما رواه ابن كثير في تفسيره عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي - رحمه الله - قال: «كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبْنَا اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء / ١٠٥].

وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُّوْنَ﴾ [النحل / ٤٤].

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه» يعني السنة.

وهذا صحيح، فإن حياة محمد - صلوات الله عليه - كانت تطبيقاً عملياً لتوجيهات القرآن، كانت سيرته في العبادة والخلق والجهاد والمعاملة قرآناً حياً يُغَيِّرُ الأرض ويصنع حضارة أخرى، ولولا هذه السنة العملية والقولية لكان القرآن أشبه بالفلسفات النظرية الثابتة في عالم الخيال.

إن سنة محمد في النواحي الاجتماعية والمدنية والعسكرية، وقبل ذلك كله في شرائع العبادة والاعتقاد، جزء لا يتجزأ من الرسالة الخالدة، فإن الإسلام يتكون من الكتاب والسنة كما يتكون الماء من عنصريه المعروفين.

ونحن هنا ندود^(١) المرويات الواهية، والأحاديث المعلولة، كما ندود عن القرآن نفسه التفاسير المنحرفة والأفهام المختلفة، ليبقى الوحي الإلهي نقيًا.

إن ركامًا من الأحاديث الضعيفة ملاً آفاق الثقافة الإسلامية بالغيوم، وركامًا مثله من الأحاديث التي صحت، وسَطًا التحريف على معناها، أو لابسها، كل ذلك جعلها تنبو عن دلالات القرآن القريبة والبعيدة.

وقد كنت أزجر بعض الناس عن رواية الحديث الصحيح حتى يكشفوا الوهم عن معناه، إذا كان هذا المعنى موهمًا، مثل حديث «لن يدخل أحد الجنة بعمله.. إلخ».

إنَّ طوائفَ من البطالين والفاشليين وقفت عند ظاهرة المرفوض، وحسبوا أن الجنة تُدخَل دون عمل، وتناسوا عامدين عشرات الآيات التي تجعل دخول الجنة نتيجة عمل واجب.

فكنت أُبين لهم أن الحديث ينفي الاغترار والاستكبار بالعمل؛ أي: ينفي أن الجنة ثمن العمل المقدم، ولكنه لا ينفي أبدًا أن العمل سببها المحتوم، لقوله تعالى: ﴿وَتُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف / ٤٣].

(١) ندود: ندفع، نظرد. (م).

وكثير من القُصَّاصِ والوُعَاظِ ينقصهم الوعي الذكي بالقرآن، والاقتراب الخاشع من مغازيه وبيئاته. ومع ذلك فليدبر ثروة طائفة من أحاديث الأحاد التي تحتاج إلى ترتيبٍ وحسن إدراكٍ.

وقد غاظني أن أحدهم كان يطير في الجامع بحديث «أبي وأبوك في النار»، وكأنما يسوق البُشْرَى إلى المسلمين، وهو يشرح لهم كيف أن أبوي رسولهم في النار.

قلت: قَبَّحَكَ اللهُ من داعٍ أَعْمَى البصيرة. ما لديك شيء من فقه الإسلام، ولا من أدب الدعوة. ومثلك لا يزيد الأمة إلا خبالاً باسم السنة، والسنة منك براءً.

قال الشيخ يوسف القرضاوي في شرح حديث «أبي وأبوك في النار»: إِنَّ الْأَبَّ قَدْ يُطْلَقُ لُغَةً وَاصْطِلَاحًا عَلَى الْعَمِّ، فَلَعَلَّ الْمَقْصُودَ بِالْأَبِّ هُنَا عَمَّهُ أَبُو طَالِبٍ.

ذلك أن أبا طالبٍ عُرِضَتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ فَأَبَى أَنْ يَنْطَقَ بِهَا. ونحن نقبل هذا التأويل حتى لا يقع تعارض بين السنة والكتاب.

وقد سمعت بأذني من يقول: الحديث صحيح وهو يخصص عموم الآية، فأهل الفطرة ناجون جميعاً - عدا عبد الله بن عبد المطلب. قلت له: ماذا فعل حتى يستحقَّ وحده النار؟ كان عبد الله شاباً شريفاً عفيفاً حكى عنه التاريخ ما يزينه، ولم يحك عنه ما يشينه. والآية خبرٌ لا يتحمل استثناءً، فما حماسكم في تعذيب عبد الله؟ وما جريكم هنا وهناك بهذه الشائعة؟ وماذا وراء تأكيدكم أنَّ أبوي الرسول في النار. إنني أشمُّ رائحة النيل منه في هذا الحماس الأعمى.

أَحَادِيثُ الْفِتَنِ

نظرة سريعة - الدجال زعيم اليهود - مصرعه، وبدءُ طُورِ جديدٍ للإسلام -
مناقشة حديث الساق - مناقشة ما يقطع الصلاة.

أحاديث الفتن



قرأت أحاديث كثيرة في الفتن وعلامات الساعة، وخرجت من قراءتي وأنا أسرح البصر خلال غيوب لا أدري أعماقها.

إنني وسائر المسلمين نؤمن بقيام الساعة، والإيمان باليوم الآخر حق، ولا يتردد فيه إلا كافر، وليس يعنيني كثيراً أن أعلم حقائق ما يقع من حساب وثواب أو عقاب، فإن تفاصيل ذلك فوق العقل.

ولكنني أشعر بأن العالم في أواخر عمره من هذه الدنيا سيتضاعف بلاؤه، وسيحصد الشر مما غرس على امتداد تاريخه من آثام وانحرافات.

لطالما نسي ربّه، وأهمل وحيه، وأطاع هواه، فلا عجب إذا قال ربنا تبارك اسمه: ﴿وَلِإِنْ مِنْ قَرِيْبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوْهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْفِيْكُمْ أَوْ مُعَذِّبُوْهَا عَذَابًا شَدِيْدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوْرًا﴾ [الإسراء / ٥٨]. ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف / ٥٩].

ولا يَسْتَعْرِبَنَّ أَحَدٌ أَنْ يَكْثَرَ الدَّجَالُونَ الَّذِينَ يَغْرُرُونَ بِالْجَمَاهِيرِ، وَيَسْخَرُونَ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ فَضْلِ مَعْرِفَةٍ فِي إِتَاهَةِ النَّاسِ عَنِ الْحَقِّ، وَتَدْوِيخِهِمْ هُنَا وَهَنَاكَ. وَتَشِيرُ الْأَحَادِيثُ إِلَى أَنَّ عَشْرَاتِ الدَّجَالِينَ سَوْفَ يَظْهَرُونَ، وَأَنَّ هُنَاكَ دَجَالًا مُسْتَطِيرًا^(١) الشَّرَّ سَيْفُوقٍ إِخْوَانَهُ فِي فَنُونِ الدَّجْلِ، وَأَنَّ عَشْرَاتِ الْأَلُوفِ مِنَ الْيَهُودِ يَتَّبِعُونَ هَذَا الدَّجَالَ الْأَخِيرَ.

وقبل أن أذكر نماذج من الأحاديث الواردة أقرر حقيقة واحدة هي أننا نحن المسلمين نؤمن بإله لا حدود لمجده ولا منتهى لكلماته ومحامده، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى / ١١].

خَلَقْنَا وَرَزَقْنَا وَكَسَانَا وَأَوَانَا وَعَلَّمْنَا وَرَبَّانَا وَأَفَاضَ عَلَيْنَا مِنْ آيَاتِهِ مَا لَا يُحْصَى، وَأَنَا سَنُظَلُّ نَذْكُرُهُ وَنَعْبُدُهُ مَا بَقِينَا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ، مُسْتَعِدِينَ بِذَلِكَ لِلْقَائَةِ بَعْدَ الْمَوْتِ؛ لَنَسْتَأْنِفَ حَيَاةً أُخْرَى عِنْدَهُ عَامِرَةً بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَالتَّسْبِيحِ بِحَمْدِهِ.

ذلكم هو الصراط المستقيم الذي نَهَزِمُ بِهِ الْفِتَّانِينَ وَنَرُدُّ بِهِ الشَّيَاطِينَ، وَنَرَاغِمُ بِهِ كُلَّ دَجَالٍ يَحَاوِلُ إِضْلَالَنَا أَوْ ثَنِينَا عَنْ هَدْفِنَا الْعَظِيمِ.

بعد هذه المقدمة أذكر بعض ما قرأت عن الدجال بإيجاز، ففي حديث: أَنَّهُ مُكَبَّلٌ بِالْقَيْوُدِ فِي إِحْدَى الْجُزُرِ بِبَحْرِ الْعَرَبِ أَوْ بِالْمَحِيطِ الْهِنْدِيِّ، وَقَدْ لَقِيَهُ تَمِيمٌ

(١) مستطير: ساطع، منتشر. (م).

الدَّارِي، وهو رجل كان نصرانيًّا وأسلم. ثم التَّقَى برسول الله ﷺ وحدثه بأنه لَقِيَ الدَّجَالَ فِي وثاقه الذي يحبسه عن الانسياح في الأرض، وأنه موشكٌ على الانطلاق ليقومَ بفتنته آخر الزمان.

وفي حديث آخر وصفُ لأسرة الدجال، وفيه: «إن أبويه يمكثان ثلاثين عامًا لا يولد لهما ولدٌ، وأخيرًا يولد لهما غلام أعور أضر شيء وأقله منفعة».

قال أبو بكر رضي الله عنه: فسمعنا بمولود في المدينة بين اليهود، فيه شيء من هذه الصفات، فذهبت أنا والزُّبَيْرُ بْنُ العوام حتى دخلنا على أبويه، فإذا هما كما نعت رسول الله ﷺ، ونظرنا إلى ابنهما فإذا هو منجلد^(١) في الشمس في قטיפه له، وله همهمة.. إلخ.

قال الشارح: لعل الدجال - وقد ولد من يهود المدينة - قد انتقل بعد ذلك إلى الجزيرة التي رآه فيها تميم الداري.

وللنَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ حَدِيثٌ طَوِيلٌ فِي الدَّجَالِ، ذَكَرَ فِيهِ طَرَفًا مِنَ الْقُوَّةِ الَّتِي زُوِّدَ بِهَا أَوْ الْفِتْنَةَ الَّتِي يَثِيرُهَا بَيْنَ النَّاسِ، قَالَ: «يَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ - إِلَى عِبَادَتِهِ - فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتَمْطُرُ وَالْأَرْضَ فَتَنْبِتُ، فَتُرَوِّحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتَهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرَى وَأَسْبَغَهُ ضَرْعًا وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ.

(١) منجلد: ملقى. (م).

أما الذين يكفرون به فينصرفُ عنهم فيصبحون مُملحين ليس بأيديهم شيء من أموالهم... إلخ.

ثم يَنْزِلُ عيسى بن مريمَ فلا يزال يطاردُ الدَّجَالَ حتى يُدْرِكُهُ بِاللَّدِّ^(١) فيقتله، ويريحُ النَّاسَ من سُورِهِ».

والأحاديث التي اقتبسنا نَتَفًا منها هي أحاديث آحاد، وبعضها في الصحاح.

والروايات عنه كثيرة، وفي إحداها: أنه مكتوب بين عيني الدجال (ك ف ر) أي كافر، يقرؤه كل مسلم.

وفي رواية عن أم شريك عن النبي ﷺ: «ليفرنَّ الناس من الدجال في الجبال. قالت أم شريك: يا رسول الله، فأين العرب يومئذ؟ قال: هم قليل...».

ويظهر لي أن الدجال من زعماء اليهود، وقد يكون من كبار علمائهم الكونيين، وهو يمثل عوجَ الضمير اليهودي وانقطاعه عن الله، بل عداوته له.

وقصته قبيل الساعة تمثل خاتمة الصراع السيئ بين أتباع الأديان الثلاثة؛ فاليهود بقيادة مسيحيهم يحاولون الظهور والسيطرة، والنصارى مستمسكون بأقانيمهم وتثاليثهم وصلبانهم وسيرتهم الاجتماعية المعروفة، وهم يظاهرون اليهود على العرب.

(١) اللدُّ: مدينة في فلسطين جنوب شرقي يافا. (م).

والمسلمون فرق شَتَّى؛ فيهم الصالحُ المستميت في المقاومة، وفيهم التائه الهائم على وجهه.

ومع اشتداد الصراع الديني يقدم الزحف الأحمر من الشرق جيشاً بعد جيش، وفوجاً بعد فوج، فلا يصدّه شيء.

في غمار هذه الفوضى الضاربة ينزل عيسى ابن مريم ليؤيّد عقيدة التوحيد. ويصدق النبوة الخاتمة ويقتل إله اليهود، ويواجهُ بالمسلمين الزحف الأحمر، زحفَ يأجوج ومأجوج حتى يقضي بقدرة الله عليه.

ذاك ما فهمته من حشد هائل من الأحاديث التي تباينت فيها عبارات الرواة، وتخللتها بعضُ الأوهام.

وفي القرآن الكريم إشارات موجزة لبعض ما فهمنا.

ونترك الأحداث العظام التي تقع قبيل الساعةِ إلى بعض مشاهد القيامة، ومواقف الحساب أمام ربّ العزة: لا رَيْبَ أَنَّ يَوْمَ الْحِسَابِ يَوْمٌ رَهيبٌ، يَلْقَى فِيهِ الْعِصَاةَ وَالْفَجَّارَ مَا لَمْ يَخْطُرْ لَهُمْ بِيَالٍ ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ . خَشِعَةَ أَبْصَارُهُمْ تَرَاهُمْ ذَلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾ [القلم / ٤٢-٤٣].

والآيات تعني أن الذين ألفوا العصيان في الدنيا والتمرد على الله يحشرون بعاداتهم التي ألفوها من قبل، فلا يقام لهم عوج، ولا ينظم لهم خلل، وتكون حالتهم على تلك المشاهد وهم يقادون إلى العذاب ويوقع بهم القصاص. لَقَدْ أَبَوْا فِي دَنِيَاهِمُ إِلَّا أَنْ يَكُونُوا أَشْرَارًا: فَلَيَذُوقُوا مَا ارْتَضَوْا لِأَنفُسِهِمْ.

وكلمة ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم / ٤٢] تعبير عربي أصيل، قال ابن عباس: تقول العرب للرجل إذا وقع في أمر عظيم فظيع يحتاج فيه إلى الجِدِّ ومقاسات الشدة: شَمَّرَ عَنْ سَاقِكَ.

وَمَا سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: إِذَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ، فَابْتَغُوهُ فِي الشَّعْرِ؛ فَإِنَّهُ دِيْوَانُ الْعَرَبِ، أَمَا سَمِعْتُمُ الْقَائِلَ:

سَنَ لَنَا قَوْمُكَ ضَرْبَ الْأَعْنَاقِ وَقَامَتِ الْحَرْبُ بِنَا عَلَى سَاقِ

وَأُنشِدُ أَبُو عُبَيْدَةَ:

فَإِنْ شَمَّرْتَ لَكَ عَنْ سَاقِهَا فَدَثَّهَا رِيْعٌ، وَلَا تَسَامُ

وقال جرير:

أَلَا رَبَّ سَاهِي الطَّرْفِ مِنْ آلِ مَازِنِ إِذَا شَمَّرْتَ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ شَمَّرَا

على هذا الأساس فَهَمَّ ابنُ عباس - وهو تَرْجَمَانُ الْقُرْآنِ - والآياتِ، وتبعه العلماء من الصحابة والتابعين، وما نعرف إلا هذا التفسير للوحي الكريم.

حتى جاء بعض المولعين بمشكل الحديث وغريب الروايات، فذكروا كلاماً آخرَ لا بُدَّ من كشف حقيقته لخطورة مضامينه وشدوذاها عما يعرف علماء المسلمين. قالوا: إن الساق هي العلامة التي يعرف بها المؤمنون ربهم في امتحان عَصِيبٍ يُجْرَى لَهُمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

والقصة كما ذكروها تتلخص في أنه بعد إلقاء المشركين في العذاب يَبْقَى المسلمون وحدهم: «حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر أتاهم رب العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها، فقال: ماذا تَنْتَظِرُونَ؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد، قالوا: يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم، ولم نصاحبهم، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً مرتين أو ثلاثاً حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب.

فيقول: هل بينكم وبينه آية؟ فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، فيكشف عن ساق. فلا يبقى مَنْ كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجد اتقاءً ورياءً إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة. كلما أراد أن يسجد خرَّ على قفاه، ثم يرفعون رءوسهم وقد تحوّل في صورته التي رأوه فيها أول مرة فقال: أنا ربكم؟ فيقولون: أنت ربنا..».

هذا سياق غامض مضطرب مبهم، وجمهور العلماء يرفضه، وقد حاول القاضي عياض القول بأن الذي جاء المؤمنين في صورة أنكروها - أَوَّلَ الأمرِ - هو أحد الملائكة، وكان ذلك اختباراً من الله لهم. وهو آخر اختبار يلقاه المؤمنون.

ومحاولة القاضي عياض لا تقدّم ولا تؤخر، فليست الآخرة دار اختبار، إن الاختبار تمّ في الدنيا، كما جاء في البخاري: «اليوم عملٌ ولا جزاء، وغداً جزاءٌ ولا عمل».

ثم لماذا يقوم أحد الملائكة بهذه التمثيلية المزعجة؟ وبإذن من؟ وما جدواها؟ وإذا تركنا كلام عياض لتأمل في الوقائع نفسها وجدنا ما يستحيل عقلاً ونقلاً أن يُقبل، فإن الله لا يجيء في صورة تنقص عظمته وجلاله، ثم يبدو في صورة حقيقة بعد ذلك، مهما قلنا: إن المقصود بالصورة هو الصفة.

الحديث كله معلول، وإصاقه بالآية خطأ، وبعض المرضى بالتجسيم هو الذي يُشيع هذه المرويات. وإن المسلم الحق ليستحي أن ينسب إلى رسوله هذه الأخبار.

سلف الأمة وخلفها متفقون على تنزيه الله سبحانه، وعلى أنه أهل الثناء والحمد والمجد.

والسلف والخلف يستنكرون ما جاء في كتب اليهود والنصارى مفيداً
للتجسيد أو ناسباً إلى الذات الأقدس ما لا يليق بجلاله وجماله، تباركت أسماؤه.

وجمهور حكمائنا يلومون «المعتزلة» على تأثرهم بفلسفة الإغريق، وتصورهم
للإله الواحد تصوراً نظرياً يكاد يجعله - من الغلو في التجريد - وهماً.

ولست أحب أن أُحْيِيَ الجدل القديم، ولا أن أخوض فيه، ولا أن أعلِّقَ
عليه، فقد كرهته بفطرتي، واعتمدت على القرآن الكريم وأنا أبني العقيدة في
نفسي وفي المجتمع الذي أعيش فيه.

ولعليّ استفدت من أستاذي حسن البنا في هذا الاتجاه، كما استفدت
من الشيخ محمد عبده في اعتذاره عن الأقدمين، واعتباره العراك الناشب بينهم
لفظياً لا حقيقياً.

وربما قيلت كلمات في المساجلات الأولى تحتاج إلى ضبط، أو تفهم في نطاق
ملايسات خاصة، وإلا فهي كلمات مرفوضة.

من ذلك ما نقل عن بعض علماء السلف: أنهم لا ينفون ولا يثبتون
جسمية لله تعالى. إن ظاهر هذا الكلام مردود، وهو مُنَافٍ لِلآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿لَيْسَ
كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى/ ١١]. إننا ننفي الجِسْمِيَّةَ بداهة، وفي عصرنا هذا
استيقناً من أن الجسم مادة، وللمادة خصائصها التي تدرس في علم الطبيعة، ومن
المستحيل أن يتصف الله سبحانه بشيء من تلك الخصائص.

ونحسب أن المبالغة في التمسك بالنقل هي من وراء تلك العبارات الحذرة. وقد لجأ الخلف إلى تأويل كل ما يوهم المادية، وأثر السلف عدم الخوض في هذه المرويات مُفَوِّضِينَ المعنى إلى الله، ومؤمنين بدلالاتها مع إثبات التنزيه المطلق لرب العالمين.

والخطب سهل كما قلت، بيد أننا حين نفتح باب التفويض نأبى أن تدخل منه آثار معلولة، فإن العقل المسلم لا يخدع بهذا الأسلوب.

واضطراب القول يقع في الأمور الغيبية كما يقع في الأمور التكليفية العملية، ولا يضير الإسلام أن تتشابه الأمور على أحد الرواة، فالكتاب معصوم والسنة في جملتها سليمة، وليس العجب من غلط يقع فيه راو، وإنما العجب من قبول هذا الخطأ ثم الحماس في الدفاع عنه، ولم يكن ذلك شأن الأئمة ولا منهج السلف والخلف.

روى مسلم بسنده سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا مرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا ربِّ أذكرُ أم أنثى؟ فيقضي ريك ما يشاء فيكتب الملك.

ثم يقول: يا رب أجله؟ فيقول ريك ما يشاء ويكتب الملك.

ثم يقول الملك: يا رب رزقه؟ فيقول ريك ما يشاء ويكتب الملك.

ثم يُخْرَجُ الْمَلِكُ الصَّحِيفَةَ، فَلَا يَزِيدُ عَلَيَّ أَمْرًا وَلَا يَنْقُصُ».

أما البخاري فيروي عن ابن مسعود: حدثنا الصادق المصدوق أن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه نطفة أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك. ثم يبعث الله ملكاً بأربع كلمات، يكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح.. إلخ.

وبين الروایتين تفاوتٌ واضحٌ؛ فالأخيرة تفيد أن الكتابة المذكورة بعد أربعة شهور والأولى تفيد أن الكتابة بعد اثنين وأربعين يوماً.

وندع أمر الترجيح والرد والقبول للمشتغلين بهذا الأمر، فإن أي مسلم لو ذهب إلى الله بإيمان واضحٍ وعملٍ صالحٍ فلن يضيره الجهل بأحد الحديثين أو بهما معاً.

إن قواعد الإيمان وأركان الصلاح مشروحة في الكتاب والسنة، وليس من بينها الإحاطة ببدء الخلق، والأزمة التي يستغرقها، وحسبنا ما أثبتته القرآن الكريم في هذا المجال، ولتتجه العزائم بعد ذلك إلى الجهاد وما يهب رفيع الدرجات.

إن القاصرين من أهل الحديث يقعون على الأثر لا يعرفون حقيقته ولا أبعاده، ثم يشغبون به على الدين كله دون وعي، خُذْ مثلاً ما يقطع الصلاة، فقد تشبثوا بحديث يقول: إن الصلاة تقطعها المرأة، والحمار، والكلب الأسود.

وجمهرة الفقهاء رفضت هذا الحديث، واستدلّت بأحاديث أخرى تفيد أنّ الصلاة لا يقطعها شيء، وأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان يُصلي وزوجته عائشة مضطجعة أمامه، كما أنّ ابنَ عباس مر بحمارٍ كان يركبه أمام جماعة تصلي، فلم تفسد لها صلاة، والكلاب أبيضها وأسودها سواء.

للشيخ أحمد شاكر - وهو من أكابر علماء السلف - رأيٌ يستحق التسجيل وتوضح به هذه القضية، ذكره في تعليقاته على «المحلى» لابن حزم في سياق رواية جاء فيها «سمعت عمر بن عبد العزيز يحدث عن عياش ابن أبي ربيعة قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي يوماً بأصحابه إذ مرّ بين أيدينا حمار، فقال عياش: سُبْحَانَ اللَّهِ! فلما انصرف رسول الله ﷺ من صلاته قال: أيكم سَبَّح؟ قال عياش: أنا يا رسول الله، سمعت أنّ الحمارَ يقطع الصلاة، فقال رسول الله: لا يقطع الصلاة شيء.».

وقد قلت في شرحي على التحقيق لابن الجوزي بعد رواية هذا الحديث: هذا إسنادٌ صحيح.

وشرحَ الشيخ أشياء تحتاج إلى بيان ثم قال، وهو صريح في الدلالة على أن الأحاديث التي فيها الحكم بقطع الصلاة - بالمرأة والحمار والكلب - قد نسخت.

فقد سمع عياش أن الحمار يقطع الصلاة، وعياش من السابقين الذين هاجروا الهجرتين، ثم حبس بمكة، وكان رسول الله يدعو له في القنوت كما ثبت في الصحيحين، فعلم الحكم الأول ثم غاب عنه نسخه، فأعلمه رسول الله بعد أن الصلاة لا يقطعها شيء. قال الشيخ شاكر - رحمه الله: وهذا تحقيق دقيق واستدلال طريف لم أر من سبقني إليه.

ولست ممن يبنون العَلَالِيَّ عَلَى الخِلافَاتِ فِي فِرْعِ الْفِقْهِ، وَإِنَّمَا تَعْنِينِي سَمْعَةُ الْإِسْلَامِ عِنْدَمَا يَسَافِرُ امْرُؤٌ مَتَعَصِبٌ إِلَى أَوْرَبَا وَأَمْرِيكَا، ثُمَّ يَذْكَرُ لِلنَّاسِ أَنَّ الْمَرْأَةَ وَالْكَلْبَ وَالْحِمَارَ سِوَاءَ فِي إِفْسَادِ الصَّلَاةِ عِنْدَ مَرُورِهَا.

وخير له أن يتبع جمهور الفقهاء أو يلوذ بالصمت، ويمنع الفتنة، ولا يثير الدُّخَانَ حَوْلَ سَمْعَةِ الْإِسْلَامِ.

عِنْدَمَا كَتَبْنَا فِي أَحَدِ مَوْلاَفَاتِنَا أَنَّهُ لَا سَنَةَ بِلَا فِقْهِ كُنَّا نَرِيدُ أَنْ نَمْنَعُ أَنْاسًا يَشْتَرُونَ أَحَدَ كِتَابِ الْحَدِيثِ، ثُمَّ يَطَالِعُونَ أَثْرًا لَا يَدْرُونَ مَا قَبْلَهُ وَلَا مَا بَعْدَهُ، ثُمَّ يَحْدِثُونَ فَوْضَى قَدْ تَرَأَى فِيهَا الدِّمَاءَ.

كَانَ نَقْضُ الْبَيْعَةِ فِي تَارِيخِنَا الْقَدِيمِ يَعْنِي الْخُرُوجَ الْمَسْلُوحَ عَلَى دَوْلَةِ الْخِلاَفَةِ، فَإِذَا هُوَ يَتَحَوَّلُ فِي أَذْهَانِ بَعْضِ الشَّبَابِ إِلَى مَفَارِقَةِ إِحْدَى الْجَمَاعَاتِ الْعَامِلَةِ فِي الْمِيدَانِ الْإِسْلَامِيِّ وَرَفْضِ الْوَلَاءِ لِشَبَابٍ تَعَيَّنَ أَمِيرًا عَلَى هَذِهِ الْجَمَاعَةِ. وَقَدْ شَاعَتْ أَحْكَامُ فِقْهِيَّةٍ كَثِيرَةٍ مَصْدَرُهَا هَذَا الْإِطْلَاعُ الطَّائِشُ.

وَسَائِلُ وَغَايَاتُ

المتغير والثابت في . .

١- ميدان الجهاد

٢- ميدان الشورى

وسائل وغايات

ذكرنا في بعض ما كتبنا: الحديث الشريف وهو: «أنتم أعلم بشئون دنياكم»، وقلنا: إن شئون الدنيا تتبع اجتهاد البشر مؤمنهم وكافرهم، وإن الأنبياء لم يبعثوا ليعلموا الناس الحرفَ وفنون الصناعات وأنواع الزراعات، كما لم يبعثوا مهندسي معمار أو طرق وجسور، وكذلك ما بعثوا أطباء بطون وعيون، إن صميم رسالاتهم هو شرح العقائد والعبادات والأخلاق وتزكية النفس والمجتمع، وبث التعاليم التي تحكم صلاتِ الناسِ بربهم وصلَّةَ بعضهم ببعض الآخر، وتُعدُّهم للعودة إلى الله أتقياءَ بررةً.

وهناك ميادين أخرى تشبه ميادين الدنيا في حرية الحركة والاختراع والمنافسة، هي ميادين الوسائل التي لا بد منها لتحقيق غايات دينية مقررة، ترك الشارع للمؤمنين كيفية بلوغها، ولم يذكر فيها أحكاماً ملزمة.

إن الصلاة واجبة، ولا بد لأدائها من أغسال فاصلها الشارع، فالوسائل هنا لا بد من القيام بها دون تزيُّد ولا انتقاصٍ.

والجهاد واجب، ولكن أدوات الجهاد وأساليبه ليس لها قالب معين تُصَبُّ فيه، فإذا تغيرت الوسائل من السيف والرمح إلى المدافع والصواريخ تغيرت معها الأحكام القديمة، وتحوَّل رباط الخيل إلى إنشاء المطارات والحصون الحديثة، وإلى إنشاء معاهد العلوم الكيماوية والذرية والفلكية.. إلخ.

قديمًا كان الرجل يشتري سلاحه من ماله الخاص، ويتعهد صيانته ويتدرب عليه، فإذا سمع النداء خرج راجلاً، أو خرج مع فرسه الذي ارتبطه في سبيل الله، فإذا استشهد خَلَفَ أيامي وَيَتَامَى، وإذا جرح تَحَمَّلَ مداواة نفسه.

ونظام الغنائم - في مثل هذه الأحوال - لا بد منه، بل هو العدالة المفروضة. وقد وردت نصوص كثيرة تشرحه وتحدد أنصبتة.

أما اليوم فقد تغيرت الظروف تغيرًا جذريًا، فالدول تجنِّد الأفراد تجنيدًا عامًا، يأتيها الشاب فتطعمه وتكسوه وتضع بين يديه سلاحه الذي اشترته له، وتعدُّه للمعركة أتمَّ إعدادٍ، فإذا جرح داوته، وإذا قتل كَرَّمته وتولَّت الإنفاق على أهله وولده.

وهو طول حياته يأخذ مرتبًا حسنًا، قد يتنامى مع اختلاف الرتب التي يتقلب فيها. وهذا النظام أمسى ضرورة لا محيص عنها، ولا يمكن ترك الدفاع لرغبات التطوع أو لظروف الأفراد، إن ذلك يجعل الأمم تداس في زحام الأحياء وبطش الأقوياء.

ومع الأنظمة الجديدة يتغير نظام الغنائم تغيراً تاماً، وتنشئ الدولة تعاليمَ جديدةً لمعاقبة مجرمي الحرب، ومعاملة المحسن والمسيء.

وعلى ضوء ما ذكرنا نفهم ما رواه البخاري «قسم رسول الله الغنائم يوم خيبر للفرس سهمين^(١) وللراجل سهماً».

ومع أن الأحناف رفضوا الحديث، وقدموا عليه حديثاً آخر وهو أن النبي - عليه الصلاة والسلام - «أعطى الفارس سهمين والراجل سهماً»^(٢) فنحن نرى القضية كلها منتهية؛ لأن دور الخيالة والرجالة انقضى، وأضحى كسب الحرب منوطاً بأجهزة أهم وأدق، تعمل فيها المدرعات والطائرات.

وكذلك ينتهي العمل بمبدأ «من قتل قتيلاً فله سلبه».

ويجوز للدولة أن تمنح جوائز خاصة لمن أبلوا بلاءً حسناً.

ونعرض هنا لقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال / ٤١].

(١) أغلب الأئمة كان يمنح الفارس ثلاثة أسهم، واحداً له، واثنين لفرسه. أما أبو حنيفة فاستنكر أن يكون للفرس

- وهو حيوان - ضعف سهم الراجل.

(٢) المرجع السابق.

ونسارع إلى القول بأن القرآن الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنَّ نُصُوصَه باقية إلى آخر الدهر، لا ينسخها شيء.

ونتساءل ما معنى هذه الآية؟ هل ثمانون في المائة من الغنائم يقسم على الجيش، ويوزع الخمس الباقي على مصارفه المذكورة في الآية؟ وكذلك يرى أغلب الأئمة.

ونحن نرجح رأي الإمام مالك رضي الله عنه، الذي يرى التخميس أحد الصور التي تقوم بها الدولة، ولكنها غير ملزمة به إذا رأت المصلحة في غيره، فالأمر إليها، تنظر في الغنائم نظرةً أوسع.

ويستشهد مالك على مذهبه بأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - وزع غنائم حنين فأعطى الطلقاء عطاءً ما توقعه أحدٌ، كادت قلوب الأنصار تحزن منه، حتى شرح لهم الحكمة مما صنع.

ونضم إلى هذا الدليل وغيره - مما استدلل به مالك - ما صنعه عمر بن الخطاب في الأراضي المفتوحة؛ فقد رفض تقسيمها أخماساً على الفاتحين، واكتفى بإعطائهم مرتبات من الضرائب المفروضة عليها.

وجمهور العلماء يُدخل القضية في باب المصالح المرسلة، ولا ريب أن مسلك عمر كان أرشد وأجدى على الإسلام وأمته.

إن الوضوء وسيلة للصلاة لا مجال للرأي فيها؛ لأن الشارع ضبطها بنص محكم، أما أدوات الجهاد ووسائله فلم يضبطها الشارع أو يضع لها إحصاءً، ومن ثم كان العقل مرجعها الأول.

ولا حرجَ علينا أن ننقل أَحَدَثَ الأسلحة من شرق أو غرب، ولا حرج أن يَدْرِبْنَا عليها الأخصائيون المهرة من أي لون ومِلَّة، ويبقى أن نستخدمها وفق قواعد الشرف التي سنّها الإسلام.

والشورى مبدأ إسلامي عظيم، لكن وسائل تحقيق الشورى وضبط أجهزتها لم يتقرر لدينا، ويظهر أن هذا مقصود لاختلاف البيئات والمستويات الحضارية، بل إننا لاحظنا أن أمة واحدة رفيعة الحضارة غيرت وسائل الشورى فيها عدة مرات حسب تجاربها ومنافعها.

وما حدث في فرنسا خلال أقل من نصف قرن نموذج لذلك التغيير.

والشورى في دولة الخلافة برزت في صور شتّى، وليس المهم أي طراز نستمسك به، بل المهم أن نوفر الضمانات والأساليب التي تجعل الشورى حقيقة مرعية، فيختفي الفرد المستبد، وتموت الوثنيات السياسية، ويترجح الرأي الصحيح دون عوائق، ويتقدم الرجل الكفاء دون أحقاد.

هل يمكن ذلك في غيبة العقائد والأخلاق؟ هذا مستحيل. لقد نقل الشَّرْقُ الإسلامي صورة الديمقراطيات الغربية في مرحلة هابطة من تاريخه، صرعته فيها مواريثُ جاهليةٌ، وخذعته تقاليدُ استعماريةً سفيهةً، فماذا حدث؟ تم تزوير الانتخابات على نحو مُذهِل، وشقَّت الوثنيات السياسية طريقها وسط هالة من تأييد شعبي مكذوب.

ولو أن بعثة من النقاد والروّاد زارت مزبلة التاريخ لوجدت في رغامه^(١) عددًا من زعماء العرب والمسلمين، قَتَلُوا الألوْف المؤلفة لتكون لهم أمجاد ولتهتف بأسمائهم بلاد. وهم مع هذه الفرعنة زعماء الشعب المحبوبون.

يؤسفنا أن الشورى أينعت ثمارها في أقطار واسعة وراء دار الإسلام.

ونحن نطلب الشورى، ونريد اعتبار الوسائل المؤدية لها فروضاً عينية على أساسٍ من القاعدة الفقهية «ما لا يقوم الواجب إلا به فهو واجب».

ويتقاضانا ذلك وضعَ تفاسيرٍ صحيحةٍ لأحاديثِ الأمر والنهي، وتغيير المنكر، ومقاومة مرتكبي الكفر البواح^(٢)، وتوضيح الفروق الدقيقة بين المعارضة المشروعة والثورة التي تنقض بنیان المجتمع، أو بين النقد الواجب، والخروج المُسلِح.

(١) رَغامه: ترابه. (م).

(٢) البواح: العلني. (م).

من خصائص «الديمقراطية» الحديثة أنها اعتبرت المعارضة جزءاً من النظام العام للدولة، وأن للمعارضة زعيماً يعترف به ويتفاهم معه دون حرج؛ ذلك أن مالك السلطة بشر له من يؤيده وله من ينقده، وليس أحدهما أحق بالاحترام من الآخر.

والواقع أن هذه النظرة تقترب كثيراً من تعاليم الخلافة الراشدة، فإن علي ابن أبي طالب لم يَسْتَبِخْ من عارضوه، أو يحشد الجموع لضربهم، بل قال لهم: ابقوا على رأيكم ما شئتم على شرط ألا تحدثوا فوضى ولا تسفكوا دمًا؛ أي أن الرجل العظيم يريد معارضةً بناءً لا هداماً، ولا يرى أن الاعتراض على شخصه منكر.

وعبارة علي عليه السلام للخوارج هي: «كونوا حيث شئتم، وبيننا وبينكم ألا تسفكوا دمًا حراماً، ولا تقطعوا سبيلاً، ولا تظلموا أحداً، فإن فعلتم نفذت إليكم بالحرب».

قال عبد الله بن شداد: «فوالله ما قتلهم حتى قطعوا السبيل وسفكوا الدم الحرام».

قال الصنعاني: «فدل ذلك على أن مجرد الخلاف على الإمام لا يوجب قتال من خالفه، وبهذا التفكير الصائب فسّر الحديث الشريف «من خرج عن الطاعة، وفارق الجماعة، ومات فميتته ميتة جاهلية»؛ أي كأهل الجاهلية لا إمام له.

ذلك كله ما لم يجنح إلى الثورة المسلحة، فإن جنح إليها فله حكم آخر، وعن عبد الله بن عمر قال رسول الله ﷺ: «من حمل علينا السلاح فليس منا». وقد تكون للديمقراطية الحديثة مثالب^(١) في أنها توفر الحرية للطاعة والفسق، والإيمان والكفر.

ولكن هذه المثالب تختفي عندما يوضع في صلب الدستور أن الإسلام دين الدولة، وأن الشريعة المصدر الأوحى للقوانين، وأن ما خالفها يسقط من تلقاء نفسه.

ولولا غلو الغلاة من أصحاب العقائد، وعدوانهم على مخالفيهم في الرأي ولو كان هامشيًا ما اتسعت دائرة الحرية إلى حد قبول المتناقضات وإقرار الرذائل والشهوات.

بيد أن هناك سؤالاً لا نوارب في الإجابة عليه: هل محاربة الإسلام ذاته تحت عنوان محاربة التطرف لون من الديمقراطية؟ هناك سلطات في العالم العربي والإسلامي تكره كل الكره ما أنزل الله، وتثور ثائرتها إذا رأت فتاة مستورة الرأس والأذرع، وترفض بغضب كل صيحة لإلغاء الأحكام التي جلبها الاستعمار العالمي عندما طوانا تحت رايته، فهل هذه ديمقراطية؟ أم أنها امتداد للإذلال القديم وللغارة الصليبية على العالم الإسلامي؟

(١) مثالب: عيوب. (م).

إن هناك من يريد قتل الشعب باسم الشعب، ووأد الحرية باسم الحرية، وفي مزبلة التاريخ - كما قلنا أنفًا - زعماء من هذا القبيل المحقور، فعلوا بالمسلمين الأفاعيل .

وهناك من رجال الدين من يمشي في مواكبهم راغبًا في دنياه، زاهدًا في أخراه، مستوجبًا لعنة الله .

إن للغايات الجليلة وسائلَ نبيلةً تعين على إدراكها، ومن غَيْرِ هذه الوسائل يصعب أن تقوم شورى صحيحة كما يصعب أن يقوم جهاد نزيه ناجح .

ويستطيع أولو الألباب أن يحددوا الغايات الثابتة والوسائل المتغيرة، والفقهاء في الكتاب والسنة أقدر الناس على ذلك .

على أن هناك استدراكًا حول ما ذكرنا من شئون الدنيا، وتجدد الوسائل .

صحيح أن الناس أعلم بشئون دنياهم، وبما يقرب لهم ما يصبون إليه من أهداف عظام .

لكن المهارة في الدنيا خطيرة الآثار، وكذلك الخبرة الإدارية الواسعة . ويوم يكون الملاحدة مَكْرَةً مهرةً خبراءَ أذكىء، ويكون المؤمنون سُذْجًا أغرارًا فإن مستقبل الإيمان على ظهر الأرض ضائعٌ يقينًا .

إن بعض الأتقياء يستكثرون حفظ النصوص ومطالعة الآثار على حين تراه في شئون الحياة غفل الذهن خالي الصحيفة، فماذا يكسب الدين من هذا الشخص؟

لقد نجحت خرافات وسبقت أوهام؛ لأن وراءها من أحسن خدمتها بقدراته وخبراته، على حين جمدت رسالات الله، وساءت بها الظنون؛ لأن أتباعها أنصاف أذكيا وأنصاف عاملين. ولا نطيل في هذه القضية فطالما خضنا فيها.

وإنما ألفتُ النظر في عجالة سريعة إلى فشل المتدينين في عرض آرائهم الدينية وتزيينها في القلوب، بل إن الدعاية الدينية تكاد تكون مهزومة في ميادين الإعلام.

والأمر لا يحتاج إلى استيراد مَوَادٍّ من الخارج، إنه يحتاج إلى استحياء الملكات الخادمة في نفوس المؤمنين، وهي ملكات خمدت من طول تزويق الظاهر، ونسيان الباطن.

إنني ألقى ناسًا يزعمون أنفسهم أقطابًا، وهم فقراء إلى المبادئ الأولى في تربية النفس، وإخلاص القلب، ونشدان وجه الله - وما أبرئ نفسي بل أسأل ربي المغفرة. إننا عندما نصدق نخترع ما لا يخطر ببال خِدْمَةِ الحق، ونقتحم آفاقًا ما عرفها الأولون، ونكسب معارك كثر فيها هزائمنا من قبل.

القدر والجبر

- العلم الإلهي الشامل - معنى سبق الكتاب - ردُّ ما يفيد الجبر مثل: إن الله خلق
- للنار ناسًا وللجنة ناسًا - عرض آيات الاختيار الحر والجزاء والعدل -
- معنى الآية ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَكُمُ أَجْمَعِينَ﴾ - مظاهر الإرادة العليا -
- ندم المذنبين يوم القيامة ودلالاته - نظرة في ختام سورة المؤمنين -
- نظرة عامة إلى أحاديث القدر.

القَدْر والجَبْر

العلم الإلهي مسطور في كتاب ضابط شامل محيط ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج / ٧٠].

وهذا الكتاب يضم عالمي الغيب والشهادة، ويتناول الأصغر والأكبر من مثاقيل الذر، فالله لا يخفى عليه شيء ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ / ٣].

وفي تفصيل آخر لمحتويات هذا الكتاب يقول جلَّ شانهُ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام / ٥٩].

وبديهي أن أعمارنا وأرزاقنا وتفاصيل حياتنا ومواعيد وفاتنا بعض محتويات هذا الكتاب، فليس من المعقول أن يجهل ربنا شئون ما خلق ومن خلق، أو يجهل

الخطة التي وضعها لسير الكون وسكانه، والأرض وقطانها^(١)، أو يجهل مراحل تنفيذها بما هيأ من أدوات ﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك / ١٣ - ١٤].

والناس كلهم كافرهم ومؤمنهم، طفلهم وشيخهم ينالون ما سطر لهم في هذا الكتاب، بل المخلوقات من جماد وحيوان تتحرك في دائرة هذا العلم السابق الصادق، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلٍ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد / ٢٢].

وقد أمر الله المؤمنين أن يستريحوا لهذا العلم القديم، ويستكينوا لحقيقته ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة / ٥١].

إن هذا العلم الأعلى يتناول ملكوتاً نشغل نحن البشر حيزاً صغيراً منه، وما ندري شيئاً عن أماده. ما لنا وللمريخ أو للشعري^(٢)، أو لغيرهما من العوالم؟ كما يتناول في حياتنا على ظهر الأرض نوعين من الأعمال، نوعاً لا ندري كيف بدأ، ولا أين يتجه، ولا متى يتوقف؟ وهذا النوع من الأعمال وإن مَسَّ حياتنا من قريب أو بعيد فلسنا مسئولين عنه ولا مؤاخذين بخيره أو شره.

(١) قطانها: المقيمين فيها. (م).

(٢) الشعري: كوكب نير يطلع عند شدة الحر. (م).

إن الأقدار حولنا تصنع الكثير مما نفهم وما لا نفهم، وهذا الكثير يتحول إلى أسئلة عملية نجيب عليها بسلوكنا، ترى أنصبر في البأساء والضراء؟ ترى أنشكر في النعماء والسراء؟

إن البشر جنس محكوم ومختار في آن واحد، إنه محكوم بالإمكانات التي في كيانه والملايسات التي من حوله، ومختار في موقفه من هذه وتلك.

ونريد أن نقول مصارحين وحاسمين: إننا لن نسأل أبداً عما لا إرادة لنا فيه، ولكننا نسأل يقيناً عما نملك فيه حرية الاختيار.

وبعض الناس يحلو لهم الخلط بين الأمرين أحياناً، وهذا لون من الجدل المحقور والمشاقة لله ورسله، ولنا مع هؤلاء حديث قد يطول.

لقد شاء الله - لحكمة لا نعلمها - أن يخلقنا ويكلفنا، وقال في وضوح: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك / ٢]، فجاء من يزعم أن الحياة رواية تمثيلية خادعة، وأن التكليف أكذوبة، وأن الناس مسوقون إلى مصايرهم المعروفة أزلاً طوعاً أو كرهاً، وأن المرسلين لم يبعثوا لقطع أعذار الجهل، ومنع الاحتجاج المرفوض، بل المرسلون خدعة تتم بها فصول الرواية أو فصول المأساة.

والغريب أن جمهوراً كبيراً من المسلمين يجنح إلى هذه الفرية^(١). بل إن عامة المسلمين يطوون أنفسهم على ما يشبه عقيدة الجبر، ولكنهم حياءً من الله يسترون الجبر باختيار خافت موهوم.

وقد أسهمت بعض المرويات في تكوين هذه الشبهة وتمكينها، وكانت بالتالي سبباً في إفساد الفكر الإسلامي، وانهيار الحضارة والمجتمع.

إن العلم الإلهي الذي ذكرنا شموله وإحاطته وصاله كشاف، يصف ما كان ويكشف ما يكون، والكتاب الدال عليه يسجل للواقع وحسب، لا يجعل السماء أرضاً ولا الجماد حيواناً، إنه صورة تطابق الأصل بلا زيادة ولا نقص، ولا أثر لها في سلب أو إيجاب.

وعندما يذكرنا ربنا بهذا كله فلكي يكشف لنا جانباً من عظمته حتى نقدره حق قدره.

وعندما نتعلم منه أن ما نجهل من مستقبل، هو مكشوف لديه فليس معنى هذا أن الامتحان الذي نتعرض له صوري، وأنا مسوقون إلى هذا المستقبل برغم أنوفنا.

(١) فريّة: كذب. (م).

إن هذه الأوهام تكذيب للقرآن والسنة، فنحن بجهدنا وكدحنا ننجو أو نهلك، والقول بأن كتاباً سبق علينا بذلك، وأنه لا حيلة لنا بإزاء ما كتب أزلاً.. هذا كله تضليل وإفك لقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام / ١٠٤]. ﴿وَقَلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف / ٢٩].

والواقع أن عقيدة الجبر تطويع بالوحي كله، وتزييف للنشاط الإنساني من بدء الخلق إلى قيام الساعة، بل هي تكذيب لله والمرسلين قاطبة^(١).

ولما كانت بعض المرويات مسئولة عن هذا البلاء فقد أحببت أن أشرح القضية بضرب بعض الأمثلة.

قد يقول لك الأستاذ بعدما خبر تلامذته في قاعة الدرس: إنني أعتقد أن فلاناً سوف ينجح وفلاناً سوف يرسب، ثم يعقد الامتحان آخر العام ويدخله الطلاب، فإذا رأى الأستاذ يتحقق، فيقول لك مباحياً: إن كلامي لا يقع على الأرض، كان لا بد أن يتحقق ما قلت.

هل معنى ذلك أن رأي الأستاذ هو الذي أنجح هذا وأسقط ذاك؟ كلا، إن ذلك نجح بجهد، وذاك سقط بلعبه، وما قول الأستاذ إلا تصوير لصدق حكمه^(٢).

(١) قاطبة: جميعاً. (م).

(٢) استصحب هذا المثل عند قراءة أحاديث القدر.

إِنَّ لِلَّهِ الْمَثَلَ الْأَعْلَى، وعلمه بكل شيء مستيقن، وعلمه السابق الذي لا يتخلف ليس سبباً في نجاة ولا هلاك، إنه لا يتخلف؛ لأنه علم الله الذي يستوي عنده الماضي والحاضر والمستقبل. والظن بأن نجاة من نجا وهلاك من هلك هو أثر إكراه الله لهذا وذلك هو من الظن السوء، وما أراه إلا كَفَرًا.

ومن ثم فإننا نتناول بحذر شديد ما جاء في حديث مسلم «فوالذي لا إلهَ غَيْرُهُ، إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنْ أَحَدُكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ... إلخ».

إذا كان الحديث المذكور تنويهاً بشمول العلم الإلهي، وأن بدايات بعض الناس قد تكون مخالفة لنهاياتهم فلا بأس من قبوله بعد الشرح المزيل للبس، المبطل للجبر.

أما المعنى القريب للحديث فمردود يقيناً، وهو مخالف للكتاب والسنة، أو للعقل والنقل.

وأذكر هنا: أن الإمام مالكا في مُوطَّئِهِ رَوَى حَدِيثَ عَائِشَةَ - الَّذِي نَقَلَهُ مُسْلِمٌ «كَانَ فِيمَا أَنْزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ عَشْرَ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يَحْرَمْنَ، ثُمَّ نَسَخَنَ بِخَمْسِ مَعْلُومَاتٍ، فَتَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ فِيمَا يَقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ» قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ: لَيْسَ عَلَى هَذَا الْعَمَلِ... وَرَفُضَ الْحَدِيثَ.

وَحُقُّ لَه أَنْ يَرْفُضَهُ، وَقَدْ بَنَى مَالِكٌ مَذْهَبَهُ كَالْأَحْنَافِ عَلَى أَنَّ مَطْلَقَ الرِّضَاعِ يَحْرَمُ.

ونحن نؤكد مرة ومرتين أنه ليس لروايات الأحاد أن تشغب على المحفوظ من كتاب الله وسنة رسوله، أو أن تعرض حقائق الدين للتهتم والريب.

وقد قرأت ما رواه الترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف / ١٧٢].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عنها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتَ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً فَقَالَ: هَؤُلَاءِ خَلَقْتَ لِلنَّارِ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَيَمِ الْعَمَلُ؟ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ، اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَىٰ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ، اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَىٰ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ.»

وهذا السياق يكاد يكون نصًّا في الجبر، ولذلك نرفضه، ونراه من أوهام الرواة، بل نراه من الجهل بمعاني القرآن الكريم.

فإن هذا التفسير المنسوب لعمر يسير في اتجاه مضاد للتفسير البديهي المفهوم من الآيات البيّنات، الآيات تقول للمشركين عن ربّ العزة: لا وجهة لكم عندي، ليس لكم عذر قائم ولا حجة ناهضة، إنني منحتكم عقلاً يفكر وفطرة تبعث على التوحيد والاستقامة، وأنزلت ما يمنعكم من تقليد الآباء الجهلة، فلماذا تجاهلتم هذه المعالم كلها، وهمتم على وجوهكم^(١) في طرق الشر والغواية^(٢)؟ أفبعد هذا التفصيل والتوضيح تبعدون عني ولا ترجعون إليّ؟

هذا هو تفسير الآيات كما ينقدح في ذهن كل عاقل، وكما يثبت لأول وهلة في فهم القارئ العادي.

ولنذكر الآيات كما وردت في القضية كلها:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ . أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَنهَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْتَطِلُونَ . وَكَذَلِكَ نَفِصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف / ١٧٢ - ١٧٤].

(١) همتم على وجوهكم: خرجتم ولا تدرن وجهتكم. (م).

(٢) الغواية: الضلال. (م).

فأين يا أولي الألباب آثارُ الجبرِ الإلهي هنا؟ وأين ما يفيد أن الله خلق ناسًا للنار يساقون إليها راغمين، وخلق ناسًا للجنة يساقون إليها محظوظين؟ إن التعلق بالرويات المعلولة إساءةٌ بالغة للإسلام، وينبغي ألا نتجاوز كتاب ربنا وسنة نبينا، فذاك نهج سلفنا الأول.

كل ميل بعقيدة القدر إلى الجبر فهو تخريب متعمد لدين الله ودنيا الناس، وقد رأيت بعض النقلة والكاتبين يهونون من الإرادة البشرية، ومن أثرها في حاضر المرء ومستقبله، وكأنهم يقولون للناس: أنتم محكومون بعلم سابق لا فكاك منه، ومسوقون إلى مصير لا دخل لكم فيه، فاجهدوا جهدكم فلن تخرجوا عن الخط المرسوم لكم مهما بذلتم.

إن هذا الكلام الرديء ليس نضح قراءة واعية لكتاب ربنا، ولا اقتداء دقيق بسنة نبينا، إنه تخليط قد جنينا منه المرء.

يقول الله لكل بشر على ظهر الأرض: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ، مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ. مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم / ٤٣ - ٤٤]. فهل ربط الجزاء بالعمل هنا من قبيل المزاح أو الخديعة؟

وعندما يصف ربنا جزاء الكذبة والمكذبين، ويذيقهم عقبي ما قدموا ويقول: ﴿فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ. ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ هُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت / ٢٧-٢٨].

هل هذا الربط المتكرر بين العمل والجزاء، هل هذه النعمة المحسوسة على المجرمين، تُومئ من قرب أو بعد إلى أن القوم كانوا أهل خير فلوى زمامهم قدر سابق، أو كتاب ماحق^(١)؟ ما أقبح هذا الفهم!

في يوم الحساب يحصد الناس ما زرعوا لأنفسهم، والقرآن حريص كل الحرص على إعلان هذه الحقيقة؛ وهي إنك واجد ما قدمت، لن تؤاخذ أبداً بشيء لم تصنعه، لم تغلب على إرادتك يوماً فيحسب عليك ما لم تشأ.. إن المغلوب على عقله أو قصده لا يؤاخذ أبداً، بل إن التكليف يسقط عنه.

وتدبر قوله تعالى: ﴿الْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . مَمْنَعِ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ . الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ . قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ . قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ . مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق / ٢٤ - ٢٩].

(١) ماحق: مُهْلِك. (م).

ربنا سبحانه وتعالى ينفي الظلم عن نفسه، ويقول إنه ما عَذَّبَ إِلَّا مَنْ فَرَّطَ
وأساء.

ومع ذلك يجيء أقوام منا فيزعمون أنه رمى بناس في النار بعد أن قهرهم
على طريقها، وأنه لا يسأل عما يفعل، وليس بظالم فيما أوقع بعباده.

هذا تفكير أعمى لا يتصل بفطرة الله ولا بوحيه، ويجب فطام العوام عنه.

وسبب هذا الشرود: سوء الفهم للآيات، وسوء النقل للأحاديث.

ولنضرب أمثلة لما ذكرنا: إن الحق يعرض على الناس، فمن قبله شرح الله
به صدره، وأثار عقله، ومن أبى زاد الله قلبه ظلمة وسلوكه حيرة.

وعندما يُضِلُّ اللهُ مجرماً فلن ينقذه أحد، ولن يجد ولياً ولا نصيراً، وفي
هذا يقول الله تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللهُ فَكَلَّا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف / ١٨٦].

الجملة الأولى في الآية تفيد أن مَنْ عاقبه الله بالإضلال فلن ينفعه أحد،
والجملة الثانية تفيد أنه إنما أضله لطيغانه وعماه.

لكن البعض يقف عند الجملة الأولى وينسى الثانية أو يفهم أن طغيانه جاء
نتيجة إضلال الله له، وهذا جهل كبير، فإن إضلاله جاء نتيجة طغيانه، فالإضلال
نتيجة لا سبب.

ويؤكد هذا قوله تعالى في موضع آخر: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا . وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ [مريم / ٧٥ - ٧٦].

وقد يجيء بعض الناس إلى آية يقف عقله الكليل عندها فيفهمها فهمًا مقلوبًا مثل قوله تعالى: ﴿ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام / ١٤٩]، أو قوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة / ١٣].

إنه يفهم أن الله خلق للنار ناسًا، وخلق للجنة آخرين، ثم دفع هؤلاء دفعًا إلى النار، ودفع هؤلاء دفعًا إلى الجنة، وقد سبق بذلك كتابه.

وهذا كله جهل، فالآيات تعني أن الله كان قادرًا على أن يخلق الناس كلهم ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. لكنه - وهو المرید المختار - صنع البشر على مثال آخر، أو على نموذج فيه صلاحية للعوج والاستقامة، وأدخلهم في مسابقة عامة أو في اختبار حرّ، وسوف تمتلئ النار بالساقطين، وامتلئ الجنة بالناجين.

نعم، هو من بدء الخلق يعرف ما سيكون، لكن علمه مبتوت^(١) الصلة بنجاة من نجا وهلاك من هلك .

وقد يَتَقَعَّرُ البعض ويقول: ما تم شيء إلا بإذنه، ولكي نجيب على هذه الشبهة نقول:

إن المجرم يذهب إلى حقل قمح ناضج السنابل حافل بالخير، فيشعل النار فيه، فإذا قبض عليه يقول: ما كانت النار لتشتعل لولا «الأوكسيجين» الذي خلقه الله في الهواء، ولو خلا الجو من هذا العنصر ما احترق الحقل، فالله هو المسئول عن جريمتي، إذ بإذنه تمت! .

إن إرادة الله مَبْثُوثَةٌ في كل شيء، ولو قهرتنا على عمل ما حوسبنا، إننا نحاسب على ما قدمت أيدينا، ولن نستطيع شرح العلاقة بين إرادة الله المحيطة، وبين الحرية المتاحة لنا في الاتجاه إلى اليمين أو الشمال .

وتصيد الشبهات للفرار من المسئولية لا يُجدي .

وكل أثر مروِّي يشغب على حرية الإرادة البشرية في صنع المستقبل الأخرى يجب ألا نلتفت إليه، فحقائق الدين الثابتة بالعقل والنقل لا يهدّها حديثٌ واهي السند أو معلول المتن .

(١) مبتوت الصلة: مقطوع الصلة. (م).

لكننا مهما توَّهنا بالإرادة الإنسانية فلا ننسى أننا داخل سفينة يتقاذفها بحر الحياة بين مد وجزر، وصعود وهبوط، والسفينة تحكمها الأمواج ولا تحكم الأمواج.

ويعني هذا أن نلزم موقفاً محدداً بإزاء الأوضاع المتغيرة التي تمر بنا.

هذا الموقف من صنْعنا وبه نحاسب، أمَّا الأوضاع التي تكتنفنا فليست من صنعنا، ومنها يكون الاختبار الذي يبتُّ في مصيرنا.

إن جراثيم الأمراض تملأ الجو، ولو أنَّ كُلَّ عدوى تصيب لهلك البشر. وإلَّا، فما قيمةُ جهاز المناعة الكامن في أجسامنا؟ وكيف يحمي؟ وكيف يفشل؟

والصبغات المورثة للخصائص المادية والنفسية والفكرية، ما نصيننا منها؟ إن ذلك ليس إلينا وإن حدد المجال الذي يتم فيه اختبارنا.

إن الفلاح يرمي في التراب حفنات^(١) من البذور، قد ترتدُّ إليه قناطيرٌ مقنطرة، وقد تعود عطاءً محدوداً، وقد تذهب سُدىً. وجهود الناس في الدنيا تتبع هذا المسار.

وقد نعزم وينفك عزمنا من تلقاء نفسه، وقد تعترضه عوائقٌ تعصف به؛ لأنه لا يطيق مواجهتها.

(١) حفنات: مفردتها «حفنة»، ملء الكفين. (م).

وقد نطيع حافزاً نفسياً عابراً فيبلغ بنا إلى القمة أو يهوي بنا إلى القاع.

إن الإنسان عبدٌ لله، وليس إلهاً على ظهر الأرض، وقد شاء الله أن يخلقه على نحو خاص، فليس جماداً ولا دابة ولا ملكاً.

وبهمته أن يعبد ربه، وأن ينجح في أداء هذه العبادة، وأن يقهر المثبّطات والعقبات، فإن نجح نجح، وإلا طاح.

ولن يغني عنه أن يقول: إنني «جماد» لا إرادة لي، أو أنني ورقة تطير بها الريح وتهبط. كلا، إنك إنسان مكتمل المشيئة في كل ما يزكي نفسك أو يدنسها، والسفسطة لا تجدي ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُجَدِلُ فِي اللَّهِ بَغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ . ثَابِتٍ عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ . ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [الحج / ٨ - ١٠].

وبعد انتهاء الحياة تعود الأرواح إلى بارئها، ونحن أمام موقفين متضادين، هناك من قضى عمره كدحاً إلى الله وجهاداً في سبيله، وهناك من عاش ذاهلاً غادراً لم يقم لله بحق. أما الأولون فإن الملائكة تستقبلهم بالترحاب والود، تقول لهم: ﴿ أَلَا تَتَخَفُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت / ٣٠].

وأما الآخرون فلا استقبال عابس، والأفق مليء بالدخان والنذر، لقد واجه كل امرئ منهم ما كان ينكر، وعلم علم اليقين أنه كان في ضلال مبين. إنه يتمنى

في هذه اللحظة المستحيل، يتمنى لو عاد إلى الدنيا مرة أخرى كي يستأنف حياة أهدي.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ . كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون / ٩٩-١٠٠].

وقد أخصيت في كتاب آخر نحو عشرة مواضع تكررت فيها هذه المنى، وهيهات فليس لامتحان العمر ملحق، ولا دوراً ثانٍ يستدرك فيه المفرط ما فات.

وهذا الندم - بعد فوات الأوان - ينطق بحقيقة واحدة، شعور المجرم أنه هو الذي ظلم نفسه، وهو الذي صنع حتفه بظلفه^(١).

إنه لن يحاول الكذب فيقول: كنت مجبوراً على ما كان مني، أو سبق عليّ كتاب بما لم أرد لنفسي.

ولو أنه حاول الافتراء لأخرس الله لسانه، وأنطق أركانه بما حدث، إن الله لا يكره أحداً على طريق الشر ثم يدخله النار، ومن تصور هذا فهو جاهل بالله طائش العقل.

(١) ظلفه: حاجته، شدة معيشته. (م).

ومن المنتمين إلى ديننا من يتصور ذلك - للأسف الشديد - ويحاول
إساعته بترهات لا تقال. ونشرح هنا موقف الضالين كما صورته سورة المؤمنين
وحدها:

ليس العمر ساعةً واحدةً، إنه ساعاتٌ شتى، بعضها يسرٌ وبعضها يضرُّ،
ليس العمر موقفاً واحداً، إنه مواقفٌ بعضها يشرف وبعضها يخزي، والمهم
هو المحصل الأخير. ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا
يَتَسَاءَلُونَ. فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَنْ خَفَّتْ
مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ. تَلَفَحُوا وُجُوهَهُمْ
النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون / ١٠١ - ١٠٤].

ولنتدبر هذا الحوار بين ربِّ العزة وبين الأشقياء المسجونين في جهنم، إنه
يقول لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُنَالِي عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون / ١٠٥].
ترى ما جواب القوم؟ إنهم يطلبون فرصة أخرى ينجحون فيها بعد هذه الفرصة
الضائعة، يقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ. رَبَّنَا أَخْرِجْنَا
مِنْهَا فَإِنَّ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون / ١٠٦ - ١٠٧].

ويستمع رب العزة إليهم، ثم يرد بما معناه: كان على الأرض عمل ولا
حساب، أما هنا فحساب ولا عمل، إنها فرصة واحدة توات الرسل للحث

على انتهازها، لكن المجرمين كابروا وكذبوا. يقول الله لهم: ﴿أَخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا . إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فَأَتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ [المؤمنون / ١٠٨ - ١١٠].

هذا تذكير بأيام الطغيان الأولى، لطالما وثب الزائغون الطاغون على جمهور المؤمنين الضعفاء فأذاقوهم عذاب الهون، وكانوا منهم يسخرون.

ها قد تبدلت المواقف وتغيرت الأحوال، ورجحت كفة الخير، وجنى الصابرون عقبي ما تحمّلوا وأملوا.

ويقول الله سبحانه خاتماً الحوار: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المؤمنون / ١١١].

أترى في هذا الحوار أثاراً من ظلم نزلت بمعدب؟ أجزؤ أحد أن يفترى على الله كذباً فيقول له: إنك كتبت علي ما كتبت، والآن تؤاخذني بما لم أستطع الفرار منه؟

إن تصوير القدر على النحو الذي جاءت به بعض الرويات غير صحيح، وينبغي ألا ندع كتاب ربنا لأوهام وشائعات تأبأها روح الكتاب ونصوصه.

القرآن قاطع في أن أعمال الكافرين هي التي أَرَدَتْهُمْ^(١) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا يُعْذِرُوا أَيْمًا^ط إِنَّمَا يُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحریم / ٧]، وقاطع في أن أعمال الصالحين هي التي نجت بهم ﴿وَوُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف / ٤٣].

فلا احتجاج بقدر، ولا مكان لجبر.

وعلى من يسيئون الفهم أو النقل ألا يعكروا صفو الإسلام.

وعندما كنت أكتب هذا البحث وقعت في يدي كلمة جميلة للأستاذ أحمد بهجت عنوانها «المغفلون»، رأيت إثباتها لغرض سينكشف بعد قليل.

- «هناك ناس يحبون الله، وهناك ناس يكرهون الحق».

هناك ناس تخشع قلوبهم لذكر الله، وهناك ناس يشمئزون إذا تعلق الأمر بالحق.

هناك ناس يحبون الدين، ويحبون أن تشيع الفضيلة في الناس وأن تنتشر القيم بينهم، وهناك ناس يكرهون الدين كرههم للعمى، وهؤلاء الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الناس، وأن ينتشر العري لتسقط العيون الجائعة عليه كما يسقط الذباب على اللحم المكشوف».

(١) أَرَدَتْهُمْ: أهلكتهم. (م).

والصراع بين المؤمنين والكافرين جزء من سنة الحياة.

لقد خلق الله ناسًا هم أهل للجنة، وخلق ناسًا هم أهل للنار، والذين يدخلون الجنة يدخلونها برحمة الله وعفوه، والذين يدخلون النار يدخلونها بإصرارهم واختيارهم وحریتهم المطلقة. ولا حجة لأحد على الله عَزَّ وَجَلَّ.

لقد أقيمت الحجة على الناس، في فطرتهم وفي آيات الله في الكون.

والأصل المعروف هو استغناء الله تعالى عن الخلق، وحاجة الخلق إليه ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أُنْتُمْ أَفْقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر / ١٥].

ونحن نعرف أن عبادة العابدين لا تزيد في ملكه سبحانه، كما أن كفر الكافرين وإلحاد الملحدین لا ينقص من ملكه سبحانه شيئًا، الدين فائدة للناس لا فائدة لله.

واتباع الدين خير الناس لا لخير أحد غيرهم، ومن هنا نرى المغفلين عادة يقفون في المعسكر المعادي للدين.

وقد وصف المغفلون بأن لهم أعینًا لا يبصرون بها، وأذانًا لا يسمعون بها، وقلوبًا لا يفقهون بها^(١).

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف / ١٧٩].

أيضاً تمت مقارنتهم بالبهايم، وصَرَخَ النص القرآني أن الأنعام أهدى منهم:
﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف / ١٧٩].

وقد كان الرسول يحزن لتكذيب الناس له، ويدهشه هذا الغلو في العداة واللدد في الخصومة، وأفهمه الله تبارك وتعالى أن الناس لا يكذبونه، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون. والظالمُ مغفلٌ كبير؛ إنه يشتري النار بإرادته واختياره، وليس بعد هذا التغفيل تغفيل.

والظالم يكسب الدنيا وينحسر الآخرة، وهذا أيضاً تغفيل عظيم.

لأن الدنيا إذا قيست بالآخرة كانت أقل من جناح بعوضة، نسأل الله السلامة» اهـ.

وهذا كلام صادق، حسن الوقع والثمر، وقد أثبتناه بين يدي كلام آخر - لا يزيد أمتنا إلا سقاماً، ذكره أحدُ الواعظين في مجال تخويف الناس من الله حتى يدعوا الرذائل. انظر كيف خَوْفهم من الله؟ قال: إننا مهما عملنا من خير لا نعرف مصايرنا، وقد نكون من أهل النار ونحن لا ندري.

ثم ذكر أحاديث في القدر لا تخدم إلا مبدأ الجبر، بل تجعل العصاة يمشون مع المنحدر إلى نهايته؛ لأنهم يحسّون فقدان الإرادة التي تسيطر على الأمور.

وأغلب المسلمين تساورهم هذه الظنون المجنونة؛ لأنهم فهموا أن المثوبة والعقوبة حظوظ عمياء، أو مصادفات ليست لها ضوابط.

ونحن نتلو قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ. وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة/ ١٧]، ولكن الله القدير الحكيم العدل القائل: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام / ٥٤] لا يخلق ناسًا للنار لمجرد أنه يريد لهم العذاب.

ولنذكر طرفًا من هذه الأحاديث:

جاءت في القدر أحاديث كثيرة، نرى أنها بحاجة إلى دراسة جادة، حتى يبرأ المسلمون من الهزائم النفسية والاجتماعية التي أصابتهم قديمًا وحديثًا.

روى أبو داود عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال لابنه عند الموت: «يا بني، إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: يا رب وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى يوم القيامة. يا بني، إني سمعت رسول الله يقول: من مات على غير هذا فليس مني».

وفي رواية أخرى للترمذي ما يؤكد هذا الحديث.

وقد علّق الشيخ محمد حامد الفقي على الحديث ورواته بأن في السّنَد مُتَّهَمًا بالوضع، ومتروكًا، ومنكر الحديث.

ومع ذلك فنحن مع تهافت الأسانيد نرى في المتن جملاً مقبولاً تتلاقى مع دلالات القرآن القريبة والبعيدة، وتتفق مع العقيدة الصحيحة: وهي أن الله أحاط بكل شيء علماً وأنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، وعلينا بعد ذلك أن نكافح لنضع مستقبلنا في الدار الآخرة غير وائين ولا متقاعسين.

المشكلة تكمن في أحاديث أخرى صحيحة السند، غير أنّ متونها تقفنا أمامها واجمين^(١)؛ لنبحث عن تأويل لها أو مخرج.

خُذْ مثلاً حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: دُعِيَ رسول الله ﷺ إلى جنازة غلام من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طُوبَى لهذا، عصفور من عصفير الجنة، لم يدرك الشر ولم يعمله، قال: أو غير ذلك يا عائشة؟ إن الله وَجَّلَ خلق للجنة أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم».

وخذ مثلاً حديث سهل بن سعد أن رسول الله قال: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل النار وإنه لمن أهل الجنة، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة وإنه لمن أهل النار».

(١) واجمين: ساكتين وعاجزين عن التكلم من كثرة الغم والخوف. (م).

وخذ مثلاً حديثَ عبد الله بن عمرو قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، فألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضلَّ، فلذلك أقول: جفَّ القلمُ على علم الله تعالى».

وهناك أحاديثُ كثيرة تدور على هذا المحور، وهو أن الإنسان مسلوب المشيئة، وأنه مقهور بكتاب سابق، وأن سعيه باطل؛ لأنه لا يغير شيئاً مما حُطَّ عليه في الأزل.

نقول: هل صحيح أن سَعِيَ الإنسان باطلٌ؟ فلماذا يقول الله تعالى عن يوم الحساب: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه / ١٥]؟

ولماذا يقول: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ . ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ [النجم / ٣٩ - ٤١]؟.

إن الله تبارك وتعالى يطلب من الإنسان أن ينصف نفسه من نفسه، وأن يعترف بأنه أخطأ حيث ينبغي أن يصيب، وأساء حيث يستطيع أن يحسن، ولذلك يقول له: ﴿أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء / ١٤].

فهل يقال له ذلك وهو مجبور مسكين؟ أم يقال له ذلك وهو حرٌّ مختار؟

إن ظواهر الجبر في هذه الآثار كلها مرفوضة عند علماء الإسلام، وأمامنا أمران لا ثالث لهما، إما صرف هذه الظواهر إلى تأويل قريب مقبول، وإما اعتبارها آثاراً بها علة قادحة تسقطها من درجة الصحة، وإيرادها في مجال التربية والتعليم لا يجوز.

وقد استطعت بشيء من التكلف أن أصرف شبهة الجبر عن آثار شتّى، لكنني لم أستطع إصلاح عقولٍ تريد أن تسوق الإسلام كله إلى أحاديث غير واضحة، تظهر عليها العلل القادحة.

يقول الله سبحانه في الأمم التي حكم عليها بالهلاك: ﴿وَحَاءَ تَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . ثُمَّ كَانَ عَقِبَهُ الَّذِينَ اسْتَوْأُوا السُّوَاءَ ﴾ [الروم / ٩ - ١٠].

الله يعاقب مقترفي السيئات بالسوآى، فهذا عدله، ولو شاء عفا، وهذا حقه.

ولكنه لا يظلم مثقال ذرة، ومن العجب أن ننسب إليه الجبر ثم نقول: لا يسأل عما يفعل. إن الذين يخطئون في الفهم ويجورون في الحكم لا ينبغي أن يسقطوا عوجهم الفكري على دين الله.

والله وليُّ التوفيق. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

خاتمة

ضعف الوعي القرآني جريمة

السلسلة الذهبية لا تشفع لمتن متهافت . . الفقيه مع الحدث يضبطان السنة النبوية .

لا يسأل الرجل: فيم ضرب امرأته؟

جزيرة المسيح الدجال

لا علاقة للمرأة بإنجاب ذكور ولا إناث

خاتمة



المنهج الذي هداني الله إليه - وله المنة - أن أعرف الرجال بالحق، ولا أعرف الحق بالرجال، وأن أنظر بتأمل إلى ما قيل ولا أنظر بتهيب إلى من قال .

والوصول إلى الحق يحتاج إلى الذكاء قدر ما يحتاج إلى الإخلاص، ومن ثمّ منح الله أجريين لمن عرفه، ومنح أجرًا واحدًا لمن أخطأه وهو حريص على بلوغه .

وبعض الناس يظن أن خطأ مجتهد ما قضاء على مكانته، ونسف لشخصيته، وهذا جهل كبير. فما أكثر الأخطاء التي وقع فيها مجتهدون من كبار الأئمة .

إن بناءهم العلمي شاهق، والخير الذي انفجر منهم دافق، فلا تهدمهم قذاة، أو تزري^(١) بهم كبوة، والدهماء عندنا ميالون إلى القول بعصمة الأكابر، ونحن لا نعرف في تاريخنا إلا معصومًا واحدًا، هو محمد بن عبد الله صاحب الرسالة الخاتمة .

(١) تزري: تعيب وتحقر. (م).

وقد نقدت مرويات جاءت في الصحاح رأيتها تمسّ الصميم من ديننا، وتفتح ثغرات مخوفة ينفذ منها عدوُّنا، ما قصدت بذلك أن أُلزِمَ (١) كبيراً أو أضع من قدره، ولا قصدت بذلك أن أرفع خسيستي ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء / ٨٨ - ٨٩]، وإنما كان نصحي لله ورسوله، ومصصلحة الدين الذي شرفت بالانتماء إليه والدفاع عنه.

من ذلك اعتراض علي نقل أو رأي لنافع مولى عبد الله بن عمر في أمرين حساسين، يتصل أحدهما بالأسرة والآخر بالدعوة أو الدولة، رأيت التابعي الكبير تورط فيهما تورطاً مفرغاً مسيئاً، ولا يجوز السكوت.

كلنا يقرأ قوله تعالى: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة / ٢٢٣]، والحرث مكان البذر لا غير، لا يقول بغير ذلك أحد يعرف لغة الوحي.

بيد أن فهماً شاذاً أثبتته في الصحاح من لا يدققون في المتون؛ رأوا فيه أن الرجل يستطيع أن يتجاوز ذلك من زوجته.

(١) أُلزِمَ: أعيب. (م).

ونظرت - بتجرّد - إلى هذا النقل السيئ فرأيته يخزي النساء الحرائر،
ويُرْضِي الرجال الشواذ، ويقلب موازين الفطرة، ويفتح باباً جديداً لمرض «الإيدز»
فلم أتريث في رفضه، وقلت: لكل جواد كَبُوءَةٌ.

ونافع غفر الله لنا وله، برأيه هذا أو بروايته يخالف دلالات القرآن، وسنننا
أخرى أثبتها الرواة، كما يخالف طبائع الأحياء من أناسي ووحوش ودواب.

ولكن ناساً في عصرنا ما كادوا يقرؤون ما كتبت حتى انبروا^(١) لمهاجمتي
والنيل مني، وليس هذا بضائري، وإنما لفت نظري أن القضية العلمية لَهَا ضباب
مفتعل، فلم تُبَحِّثْ، ولم يذكر حكم الله فيها حتى لَحِئِلَ إِلَيَّ أن التجهيل في
الحكم مقصود، والصياح الذي طال حبله هو:

أتعترض على نافع يا.... أتشكُّكُ في السلسلة الذهبية يا... أتكذب السنة
النبوية يا... إلخ، وتحوّل الاعتراض إلى عواء يُسمع صدهاء من قريب ومن بعيد،
فذكرت قول الشاعر:

كَرِيمَ أَصَابَتُهُ ذِتَابٌ كَثِيرَةٌ فَلَمْ يَدْرِ حَتَّى جِئْنَ مِنْ كُلِّ مَذْهَبٍ

(١) انبروا: اعترضوا. (م).

قلت: لا بدّ من إنصاف الحقيقة العلمية التي كادت تختفي مع هذا العواء، ليعرف الرجال والنساء أن ما حكاه نافع باطل، وإن إفساد الدين لا يستطيعه بعض المتحمسين العميان من عبيد الأسماء.

قلنا: إن الشهوة الجنسية ليست رجساً من عمل الشيطان إذا تمت في نطاقها المرسوم. هذا النطاق هو الزواج، وهو لا يتم عقلاً ولا نقلاً إلا بين رجلٍ وامرأة، أمّا ما وراء ذلك فدنسٌ مرفوض.

والمجتمعات الوثنية، والملحدة، تمدُّ رقعة الشهوة فلا تقف عند حدٍّ، وقد لاحظنا ذلك في الجاهليات القديمة والحديثة على سواء.

نشأت علاقات شاذة لا يبقى بها النوع، وإذا بقي فعلى نحو خبيث شرير، كما قال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ، وَإِذْنِ رَبِّهِ، وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف / ٥٨].

وقد كان المشركون العرب يفتنون في إرواء ظمئهم الجنسي، يشبههم في ذلك الأوروبيون والأمريكيون اليوم؛ فهم يتعدّون دائرة الحلال المباح إلى دائرة أخرى مليئة بالمستنقعات والأوبئة.

وعندما تحدث القرآن الكريم عن قوم لوط ذكر أوصافاً محددة، هي الإسراف، والعدوان، والجهالة، والإجرام، والإفساد وما يتصل بهذه المعاني المظلمة.

وقد لاحظت أن أكثر ذلك كان في القرآن النازل بمكة قمعاً^(١) لغرائز السوء، وتذكيراً بمصاير الهالكين ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ. وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء / ١٦٥-١٦٦].

ثم بدأت شرائع الأسرة في المدينة المنورة إقامة لمجتمع فاضل طاهر، وشرح القرآن الكريم أن المرأة سكن لزوجها، ونبع يفيض بالود والرحمة، وأن العلاقة بينهما تبلغ حدَّ الامتزاج ﴿هُنَّ لِيَاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٍ لَهُنَّ﴾ [البقرة / ١٨٧].

وأن المقصود ليس إنشاء ذرية ما يبقى بها النوع، بل إنشاء ذرية صالحة تزيد بها الحياة كمًّا وكيفًا، ومن ثم فلا مكان لشذوذ أو عدوان أو فساد.

ولا يجوز أبدًا أن يستضعف الرجل امرأته فيرتكب معها ما لا يليق، فعن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «هي اللوطية الصغرى»؛ يعني الرجل يأتي امرأته في دبرها. وعن عمر بن الخطاب قال رسول الله: «استحيوا، فإن الله لا يستحيي من الحق ولا تأتوا النساء في أدبارهن». وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله قال: «استحيوا من الله، فإن الله لا يستحيي من الحق، لا يحلُّ مأتاك النساء في حشوشهن»؛ يعني: في غير الحرث.

(١) قمعًا: قهراً. (م).

وقد قصَّ عليّ صديقٌ ثقةٌ: أن طالبةً مُطلَّقةً طلبت منه أن يستمع إليها بعيداً عن الزميلات. قال: كانت بادية الغضب تبلغ حدَّ الهياج، سألته أتستطيع أن تضع في عقد الزواج شرطاً يصون كرامتها؟ قال: ما هذا الشرط؟ فتمعَّر وجهها^(١) وتهدَّج^(٢) صوتها وقالت: نحن بشر، لسنا بهائم. وخفَّت حديثُها واستحيت من إتمامه، ولكنه عرَّف أن الزوجَ الذي طلقها أو طلقته كان شاذاً.

في عالمِ البهائم تكره الأنتى - بعد أن تحملَ - أن يتصل بها ذكر؛ لأن المقصود تم وهو الحمل.

أما في عالم الإنسان فالصلة أرقى وأزكى؛ لأن التواصل في مهاد الأسرة استدامة للسكن المنشود والودَّ المتبادل.

وأريد أن يعرف المسلمون الحكمة العليا من الزواج، فيكون كلا الزوجين امتداداً لسعادة الآخر، ولا يتم ذلك إلا بالأسلوب المشروع.

وإني أطلب من الزوجة التي يشدُّ زوجها أن تُوبِّخه وأن تعنفه، وقد جعل ابن تيمية ذلك ذريعة إلى أن يحكم القاضي بالطلاق.

(١) تمعَّر وجهها: تغير لونه غيظاً. (م).

(٢) تهدَّج صوتها: تقطَّع في ارتعاش. (م).

من أجل هذا كله رفضنا ما رَوَاهُ نافع غفر الله لنا وله، وإن تعصب له من لا يفقهون.

لقد ابتليَ الإسلام بأعداء ينتقصون أطرافه من الخارج، كما ابتليَ بأعداء يشوهون حقائقه من الداخل، ولعل العدو الداخلي أنكى من العدو الخارجي.

لقد رأيت مرويَاتٍ كثيرةً لا تستحق الحياة، ومع ذلك فقد ضربتُ حتى زاحمت على الصدارة.

والعلة في هذه الفوضى غفلة أهل الإيمان، واسترسالهم أحياناً مع الظنون.

إنَّ أكذوبةَ الغرائق لم يضعها مستشرقون، وإنما وضعها ناسٌ عندنا فقدوا الوعي والتقوى، وأكذوبة أن الرسول عشق بنت عمته زينبَ بعدما زوّجها من زيد بن حارثة، فريةٌ بلغت الغاية من الغثاة والسخف، ومع ذلك وجدت من يرويها.

ومن قديم وعلماء الإسلام النقدة يحمون الحقيقة ويذودون عنها الخرافيين وذوي الأهواء.

وقد رفضت دون تردد ما فهمه البعض من أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - قد يغير على الناس دون دعوة، ويأخذهم على غرة، فلا يدري القليل لم قتل؟ ولا يدري الجريح لم جرح؟

الإسلام بطبيعته دين دعوة، يقول لك تعلم وعلم، اقتنع وأقنع غيرك، انقل الحق وأعل مناره حتى يستطيع الآخرون السير على شعاة ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران / ١٠٤].

والبلاغ يجب أن يكون مبيناً حتى ينتقل الوضوح من صدرك إلى صدر سامعك، وتكونوا سواسية في الاستبانة والوعي.

وهذا ما عنته الآيات: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنِ أَدْرَيْتَ أَقْرَبُ أَمِ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء / ١٠٨ - ١٠٩].

وقد كان التوحيد - ولا يزال - يشق طريقه بصعوبة، وتكتم الأفواه الصياحة به، ويحتمد القتال من أجل حقه في الحياة، وقد أمر المسلمون أن تكون دعوتهم إلى الإسلام - قبل الاشتباك - هي آخر ما يقطع الأعدار.

لقد كانوا يدعون فقاومهم الفتانون، وها هم أولاء قبل الحرب يدعون ليستجيب لهم من يؤثر الحق والسلام. والتبعة بعد هذا على عبدة الأوثان، ولا عدوان إلا على الظالمين، كما قال الرسول الأمين.

فهل صحيح أن الدعوة كانت في صدر الإسلام ثم نسخت؟ كما فهم نافع

مولى عبد الله بن عمر؟

هذا الفهم مخالف للكتاب ولللسنة وللواقع التاريخي .

وَلَنْقُرَأَ هَذَا الْحَدِيثَ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ عَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قَالَ : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ إِذَا أَمَرَ الْأَمِيرَ عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْ صَاهٍ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ، ثُمَّ قَالَ : اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ ، اغْزُوا وَلَا تَغْلُوا^(١) وَلَا تَغْدُرُوا ، وَلَا تَمْتَلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا . فَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثٍ خِلَالٍ ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ، ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ .

ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، إلى أن قال :

وإن هم أبوا^(٢) فسَلُّهُمُ الْجَزِيَّةَ ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . فإن أبوا فاستعن بالله تعالى عليهم وقاتلهم ..

(١) لا تغلوا: لا تخونوا في المغنم. (م).

(٢) أبوا: رفضوا. (م).

والذي نلفت النظر إليه بادئ ذي بدء أن هذا الحديث قيل في أواخر العهد النبوي؛ لأن ذكر الجزية ورد فيه، والجزية لم تعرف في الشريعة إلا بعد نزول سورة براءة، وهذه السورة نزلت في آخر السنة التاسعة من الهجرة؛ أي قبل وفاة الرسول ﷺ بعام تقريباً.

ويعني هذا التحقيق التاريخي أن الدعوة كانت قائمة أول حياة الرسول وأخرها، وأن الزعم بنسخها لا أصل له، وأن نافعا غفر الله له جانباً التوفيق في فهمه.

بل إن ابن هشام في سيرته كان أولى بالحق عندما ذكر أن بني المصطلق بلغتهم الدعوة وأنهم - حين بلغتهم - قرروا رفضها، وانحازوا جانباً كي يأخذوا أهبتهم للقتال، ثم فوجئوا بالغارة التي أجهضت استعدادهم، وفضت جموعهم.

على أن الأمر كله بحاجة إلى إيضاح، فقد كان المسلمون بعد تسعة عشر عاماً من بدء الدعوة يُعدُّون خوارج على القانون، كان المشركون يشمئزون من عقيدة التوحيد، وبيطشون بجميع دعواتها لو استطاعوا.

ومع أن عهد الحديبية منحهم اعترافاً بوجودهم المادي والأدبي إلا أن هذا العهد سرعان ما خرجت قريش عليه، وعادت جزيرة العرب سيرتها الأولى في التعصب للوثنية وعبودها وحدهم.

إن العرَض الذي وضعناه تحت أعين المشركين وهو ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾
 وَآلِ دِينٍ ﴿[الكافرون / ٦] استُبعِدَ وتُنُوسِي، وأمسى المسلمون أحوج أهل الأرض
 للدفاع عن أنفسهم وإقامة دولة تحمي عقائدهم وشرائعهم، وترغم الوثنية على احترام
 الحرية الدينية.

وأقول: ما أشبه الليلة بالبارحة، إنه محذور علينا أن نحيا بالإسلام كما
 نريد.

ولأترك هذا الشجن لأذكر أثراً آخر يعرف منه القراء خلق رسول الله،
 ومبلغ حرصه على حقن الدماء، ورفضه الشريف لقصة «الغارة بلا إنذار» التي
 توهمها بعض الرواة.

روى أبو داود عن الحارث بن مسلم عن أبيه قال: «بعثنا رسول الله في
 سرية، فلما بلغنا المغار - مكان المعركة - استحثت فرسي، فسبقت أصحابي،
 فتلقاني أهل الحي بالرنين، فقلت لهم: قولوا لا إله إلا الله تحرزوا، فقالوها، فلامني
 أصحابي وقالوا: حرمتنا الغنيمة^(١).

(١) طلاب الغنيمة لا يخلو منهم عصر وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَيَّنُّوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ
 أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ أَسْلَمْنَا لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَعُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النساء / ٩٤].

فلما قدمنا على رسول الله أخبروه بالذي صنعت فدعاني، فحسّن لي ما صنعت، ثم قال لي: أما إن الله تعالى قد كتب لك بكل إنسان منهم كذا وكذا من الأجر.

وقال: أما إني سأكتب لك بالوصاة بعدي، ففعل، وختم عليه، ودفعه إليّ.

إنَّ محمدًا - عليه الصلاة والسلام - أشرف من أن يأخذ الناس على غرة، وعلى الذين يقرؤون الأحاديث أن يتفقها، وأن يدرسوا الملابس والتواريخ والأحوال، وقد قلت ومازلت أقول: لا سنة بلا فقه.

إننا مع تدبر القرآن نعرف أسلوب الدعوة في العرض والإقناع، ومع دراسة التاريخ نعرف أنَّ الوثنيين كابروا الحق لآخر رمق، وأن الوثنية إلى آخر قاداتها مسيلمة احتقرت البرهان، واعتسعت الطريق، فلم يكن من السيف بد، ولسنا نحن الذين نحتل الدنيا أو نستبيح الناس.

فقهاء السيرة والتاريخ والأخلاق يعلمون أن الدعوة إلى الإسلام فريضة لا يقدر أحد على إلغائها، وأن هذه الدعوة عامة لا يحدّها زمان ولا مكان، وأنها تتأكد قبل نشوب الحرب خاصة.

وقد شرحنا في كتبنا الأخرى أسباب القتال، وأنها كما تكون دفاعًا عن الحقائق والحقوق تكون تأمينًا لمسار الدعوة من الفتانين والمعونين.

أي أنني أعرض ما عندي على الناس بأدب وتلطفٍ، فإذا قال لي أحد: انصرف عني، لا أحب أن أسمعك، ولست لك عدوًّا ولا صديقًا، اذهب إلى غيري، ولا شأن لي بما تصنع معه أو بما يصنع معك.

فإنني والحالة هذه أتركه غير مفكر في إلحاق أذى به، منفذًا قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقِنِلُواكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ أَلْسَلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء / ٩٠].

هل الرومان الذين احتلوا مصر والشام وساقوا جيوشهم إلى الحجاز من هذا القبيل؟ لا، إنهم دخلوا بلادنا غزاةً وأقاموا بها معتدين.

وكانوا بأقوالهم وأعمالهم وأحوالهم مصادرَ طغيانٍ وفتنةٍ، وما بدَّ من تحرير الأرض منهم وإعادةتهم من حيث جاءوا.

وترك الشعوب بعد ذلك حرةً تعتنق الإسلام إذا شاءت أو تتركه مع المشاركة في أعباء الدفاع العسكري عن الأرض التي كانت مستعمرة ثم حررها الإسلام.

هل الفرس أحسنُ حالاً من الرومان؟ كلا، إن كسرى أصدر أمرًا بالقبض على محمدٍ بعدما مزَّق رسالته، وكان جنده يحتلون العراق، وموقفه حاسم في رفضه الدعوة والدعاة، فما يجوز تركه، تلك هي هي الأسباب الأولى للفتوح.

وقد حرص الخلفاء والأمراء وقادة الجند ألا يشتبكوا في حرب إلا بعد دعوة متأنية واضحة مفصلة، وهات هذه الوقائع من «حياة الصحابة» التي يجهلها للأسف بعض أديعاء السلفية، ممن صدقوا أن الرسول يأخذ الناس على غرة، أو أن الدعوة كانت ثم ألغيت، كما توهم نافع مولى ابن عمر.

جاء في كتاب «حياة الصحابة» تحت عنوان، دعوة الصحابة إلى الله ورسوله في القتال على عهد أبي بكر، ووصية أبي بكر الأمراء بذلك.

أخرج البيهقي (ج ٩ ص ٨٥) وابن عساكر عن سعيد بن المسيب أن أبا بكر رضي الله عنه لما بعث الجنود إلى الشام أمر يزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، ولما ركبوا مشى أبو بكر مع أمراء جنوده يودعهم حتى بلغ ثنية الوداع فقالوا: يا خليفة رسول الله، تمشي ونحن ركبان؟ فقال: إني احتسبت خطاي هذه في سبيل الله.

ثم جعل يوصيهم، فقال: أوصيكم بتقوى الله، اغزوا في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله فإن الله ناصر دينه، ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تجبنوا، ولا تفسدوا في الأرض، ولا تعصوا ما تؤمرون.

فإذا لقيتم العدو من المشركين - إن شاء الله - فادعوهم إلى ثلاث، فإن هم أجابوكم فاقبلوا منهم وكفوا عنهم.

ادعوهم إلى الإسلام فإن هم أجابوكم فاقبلوا منهم وكفوا عنهم.

ثم ادعوهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، فإن هم فعلوا فأخبروهم أن لهم مثل ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين.

وإن هم دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم على دار المهاجرين فأخبروهم أنهم كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي فرض على المؤمنين، وليس لهم في الفياء والغنائم شيء حتى يجاهدوا مع المسلمين.

فإن هم أبوا أن يدخلوا في الإسلام فادعوهم إلى الجزية، فإن هم فعلوا فاقبلوا منهم وكفوا عنهم، وإن هم أبوا فاستعينوا بالله عليهم فقاتلوا إن شاء الله.

ولا تُعرقنَّ نخلاً ولا تحرقنها ولا تعقروا^(١) الهيمة^(٢) ولا شجرة ثمر، ولا تهدموا بيعة ولا تقتلوا الولدان ولا الشيوخ ولا النساء، وستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له.

وفي عهد عمر بن الخطاب أثناء فتح فارس جاءت هذه القصة تحت عنوان: دعوة سلمان الفارسي يوم القصر الأبيض ثلاثة أيام.

(١) لا تعقروا: لا تذبحوا. (م).

(٢) الهيمة: جمعها «الهيم»، وهي الإبل العطاش. (م).

وأخرج أبو نعيم في الحلية (ج ١ ص ١٨٩) عن أبي التبخري أن جيشاً من جيوش المسلمين كان أميرهم سلمان الفارسي رضي الله عنه فحاصروا قصرًا من قصور فارس فقالوا: يا أبا عبد الله، ألا نهدهم إليهم؟ قال: دعوني لأدعوهم كما سمعت رسول الله صلوات الله عليه يدعوهم.

فقال لهم: أنا رجل منكم فارسي، أترون العرب تطيعني، فإن أسلمتم فلکم مثل الذي لنا وعليكم مثل الذي علينا، وإن أبيتم إلا دينكم تركناكم عليه وأعطيتمونا الجزية عن يد^(١) وأنتم صاغرون. قال: ورطن إليهم بالفارسية وأنتم غير محمودين.

وإن أبيتم نابذناكم على سواء، فقالوا: ما نحن بالذي تؤمن، وما نحن بالذي نعطي الجزية، ولكننا نقاتلكم.

قالوا: يا أبا عبد الله، ألا نهدهم إليهم؟ قال: لا، فدعاهم ثلاثة أيام إلى مثل هذا، ثم قال: انهضوا إليهم فنهضوا إليهم، قال: ففتحوا ذلك الحصن.

وأخرجه أيضًا أحمد في مسنده، والحاكم في المستدرک كما في نصب الراية (ج ٣ ص ٣٧٨) بمعناه. وفيه: فلما كان في اليوم الرابع أمر الناس فغدوا إليها ففتحوها. وأخرجه ابن أبي شيبه كما في الكنز (ج ٢ ص ٢٩٨). وأخرجه أيضًا

(١) عن يد: عن ذل واستسلام. (م).

ابن جرير (ج ٤ ص ١٧٣) عن أبي التبخترى قال: كان رائد المسلمین سلمانُ الفارسی، وكان المسلمون قد جعلوه داعية أهل فارس، قال عطية: وقد كانوا أمروه بدعاء أهل بَهْرَ سَبْرٍ وأمروه يوم القصر الأبيض فدعاهم ثلاثاً، فذكر الحديث في دعوة سلمان رضي الله عنه بمعناه.

هذا، والروايات في الدعوة إلى الإسلام قبل القتال مستفيضة أيام رسول الله صلی الله علیه و آله وأيام الصحابة - رضي الله عنهم.

وغفلة نافع غفر الله لنا وله عن هذه الحقيقة لعلها كبوة الجواد.

والملام كله على من يتعصبون لخطئه، ويخاصمون الصواب بعد ما تبين.

ولا أدري لحساب من ينشر بعض الجاهلين أن سيد الدعاة يأخذ الناس على غرة من غير دعوة ولا بلاغ، وأن الدعوة كانت في مرحلة موقوتة ثم اختفت؟؟

ما يَبْلُغُ الأعداءُ من جاهلٍ ما يبلِغُ الجاهلُ من نفسه

الكلمات الصادقة المضيئة تنبع من سرائر هادية زاكية، وهي تلتمس أول ما تلتمس في تراث الأنبياء، ولم يبق موضع الثقة من هذا التراث الغالي إلا ما خَلَفَهُ لنا محمد - عليه الصلاة والسلام - في كتابه وسنته.

أما هذا القرآن فقد أعيا الإنس والجن أن يجيئوا بمثله، ومنذ نزل إلى يوم الناس هذا، إلى أن تبدل الأرض غير الأرض والسموات، وهو محفوظ بحفظ الله لا ترقى إليه ريبة، ولا يتوهم فيه تحريف، ولا يستغني طلاب الحق عن آياته البينات.

وأما السنة فأوجز ما يقال فيها أنها «تنزيلٌ من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم»، وقد أوتي محمد جوامع الكلم، وانسابت هداياته من ينبوع جياش بالرشد حافل بالخير، وسبحان من أبدع محمدًا. إنه الإنسان الفذ الذي صان الإيمان مادة ومعنى، وعاش به سيرة ودعوة، وأقام على دعائه مجتمعًا ودولة، وأنشأ باسمه حضارة ترنو إليها المشارق والمغرب، ويرهب بأسها المعتدون والفوضيون.

والثقافة الإسلامية قامت على الكتاب والسنة معًا، وقد يئست الشياطين من تحريف الكتاب، فحاولت النيل من السنة ولكن العلماء النقدة صدوا هذا الهجوم، ومضوا بقافلة الإسلام منيعة الجانب على حين طاشت رسالات، وحالت رسوم.

ولا نزال - بفضل الله - نحرس الإسلام، ولن تخلو الأرض من قائم لله بحجة.

ولا أعرف أحداً من علماء الإسلام هَوَّن من مكانة السنة النبوية، ولا أجاز أن يقول رسول الله كلمة ويمضي هو على خلافها، بل ذلك طريق الكفر.

وما قد يقع بين العلماء من شجار في القضايا الفرعية أساسه: أقال رسول الله هذا الحديث أم لا؟

قد تقول: فقد رسا علم المصطلح، واتضح منه أسس القبول والردّ بشتّى المرويات.

ونقول: صدقت وذلك ما نريد تطبيقه لا غير.

إننا نلتزم بما وضعه أئمتنا الأولون، ولا نفكر في البعد عنه، كل ما لفتنا النظر إليه أن الشذوذ والعلل في متون الأحاديث يتدخل فيهما الفقهاء إلى جانب الحفاظ، وقد تدخلوا فعلاً في الماضي، وجدّ في عصرنا ما يستدعي المزيد من البحث والاستقصاء.

وأعرف أن البعض يوجس خيفة من هذا القول، ولكن تجاربي في ميدان الدعوة تجعلني أزيد الأمر تفصيلاً.

في أيام الهزائم الإسلامية التي نعانيها، والتي ألصقت بالإسلام ما شاء أعداؤه من نقائص، سمعت خطيباً يروي هذا الحديث: «لا يسأل الرجل: فيم ضرب امرأته؟».

قلت له: إن ديننا متهم بأنه ضد حقوق الإنسان، وضد كرامة المرأة خاصة، فما حملك على إيراد حديث يفيد أن الرجل يضرب امرأته كيف يشاء لا يسأل عما يفعل، وأنت تعلم أن هذا المعنى مرفوض في الكتاب والسنة جميعاً؟

قال: إنني رويتُ حديثاً صحيحاً، قلت له: ألا تحفظ حديث مسلم في صحيحه: «التَّؤَدِينُ الْحَقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَفَادَ لِلشَّاةِ الْجِلْحَاءِ^(١) مِنَ الشَّاةِ الْقِرْنَاءِ^(٢)»، أفتكون الزوجة المضروبة أهونَ على الله من نعجةٍ منطوحةٍ ظلماً؟

قال: النساء منذ حواء إلى اليوم يستحقن الحذر والتأديب، وقد جاء في الحديث: «لولا حواء لم تكنْ أنثى زوجها الدهر». فقلت له: ما خانت حواء آدم، ولا أغرته بالأكل من الشجرة، هذا من أكاذيب التوراة.

والقرآن صريح وحاكم في أن آدم هو الذي عصى رَبَّهُ، ولكنكم دون مستوى القرآن الكريم، وتنقلون من المرويات ما يقف عقبه أمام سير الدعوة الإسلامية.

لماذا لا يُسأل الرجل: فيم ضرب امرأته؟ أنربِّي بناتنا ليذهبن إلى فحل يلطمهن أو يؤذيهن دون مساءلة في الدنيا والآخرة؟

(١) الجلحاء: هي التي لا قرن لها. (م).

(٢) القرناء: كبيرة القرنين. (م).

بأي منطق تتكلمون؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء / ٤٠]،
﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء / ١٢٣].

ذاك في الآخرة، ومن حق المرأة في الدنيا أن تشكو ما نزل بها إلى أهلها، أو
الحكم الذي يمثلها أو القاضي الذي يجب أن يسأل زوجها.

ولها بعدئذ أن تطلب الخلع أو تطلب التطليق للضرر.

إنك أيها المتحدث باسم الإسلام تفتن الناس عنه بهذه الأحاديث.

وهاكم موقفاً آخر من واعظ يحب الحكايات ويستنصت الناس بما تحوي
من عجائب.

قال: إن الدجال موجود الآن في إحدى الجزر ببحر الشام أو بحر اليمن،
مشدود الوثاق، وقد رآه تميم الداري بعدما غرقت السفينة التي كان يركبها هو
وصحبه، وتحادثوا معه، وهو موشك على الخروج.

وقد حدثت بذلك فاطمة بنت قيس في سياق طويل.

قال لي طالب يسمع الدرس: هل يمكن أن نذهب في رحلة إلى هذه الجزيرة
لنرى الدجال؟ قلت له: وماذا تفعل برؤيته؟ الدجالون كثيرون، وإذا تحصنت
بالحق نجوت منهم ومن كبيرهم عندما يخرج.

قال: ألم يزر أحد هذه الجزيرة بعد تميم الداري؟ فأثرت السكوت، وصرفت الطالب عن الموضوع بلباقة.

إن أساطيل الرومان والعرب والترك والصليبيين تجوب البحرين الأبيض والأحمر من بضعة عشر قرناً ولم تر هذه الجزيرة.

وفي عصرنا هذا طرِقَ كل شبر في البر والبحر، والتقطت صوراً لأعماق المحيطات عن طريق الأقمار الصناعية، فأين تقع هذه الجزيرة؟

وأخيراً تذكرت كلمة عمر بن الخطاب وهو يرد حديثَ فاطمة بنتِ قيس في نفقة المطلقة ثلاثاً، قال: لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لحديث امرأة لا ندري حفظت أم نسيت؟ قلت: ونحن لا نُعَرِّضُ كتاب ربنا وسنة نبينا للتكذيب من أجل حديث السيدة نفسها، في قضية أخرى.

يجب أن تسير قافلة الكتاب والسنة دون عائق.

وتم أمر أخير، لقد ثبت على وجه اليقين أن الجنين يتكوّن من حيوان منويّ وحيد يخترق بُيُوضَةً - بويضة - المرأة، هذا الحيوان الفذ يسبق مئات الملايين من أمثاله تسبح في الماء الدافق^(١).

(١) الماء الدافق: المندفع والمنصب بشدة. (م).

وعندما يصل تبدأ المرحلة الأولى من الحياة الإنسانية.

وهو الذي تنشأ عنه الذكورة والأنوثة، فليس لماء المرأة دخل في هذا، بل قال العلماء: إن البلل الذي يرطب الرحم عند الوقاع لا يسمّى ماءً إلا مجازاً، ولا دخل له في التكوين.

وقد التقطت صور للحيوان المنوي الذي ينشئ الذكورة، وللآخر الذي ينشئ الأنوثة، كما أمكن في الأنابيب الجمع بين الحيوان المنوي والبيضة.

والمعروف أن القرآن الكريم سبق إلى تقرير هذه الحقيقة في قوله تعالى:
﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّرَّ وَالْأُنثَىٰ. مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم / ٤٥-٤٦].

واليقين الثابت بالعلم وبالوحي لا يجوز أن يتقدم عليه ظنٌ علمي يرويهِ حديثٌ آحاد، يزعم فيه الراوي أن الأنوثة تنشأ من علوِّ ماء الأُنثى على ماء الرجل.

إن حديث الآحاد يتأخر حتماً أمام النصِّ القرآني والحقيقة العلمية والواقع التاريخي، أو يتأخر كما يقول المالكيون أمام عمل أهل المدينة، وأمام القياس القطعي كما يقول الأحناف.

ذاك ما هديت إليه، فإن كان حقاً فمن الله، وإن كان خطأً فمني وأستغفر الله أولاً وآخرًا.

معد التقديم في سطور

نصر الدين شريف باعطوة

- باحث مصري، ولد عام ١٩٦٧ م.
- حصل على ليسانس في اللغة العربية وآدابها من آداب القاهرة عام ١٩٩٨ م، ودرجة الماجستير من الكلية نفسها عام ٢٠٠٥ م. مسجّل لدرجة الدكتوراه بذات الكلية والقسم في إبريل ٢٠٠٦ م .
- درّس العلوم الإسلامية واللغة العربية لغير الناطقين بها بمركز لسان العرب بالقاهرة من عام ٢٠٠٥-٢٠١٠ م.
- عمل مصححاً ومراجعاً لغوياً بمركز الحضارة العربية للإعلام والنشر بالقاهرة خلال الفترة من ٢٠٠٣ م - ٢٠٠٩ م.
- رئيس مجلس إدارة نادي اليرموك من عام ٢٠٠٢ م- حتى الآن.
- عضو نادي الأدب بقصر ثقافة الفيوم.

أعضاء اللجنة الاستشارية للمشروع

٢٠١١/٢٠١٠

رئيس اللجنة

إسماعيل سراج الدين (مكتبة الإسكندرية)، مصر.

أعضاء اللجنة

- إبراهيم البيومي غانم (المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة)، مصر.
إبراهيم زين (الجامعة الإسلامية العالمية، كوالالامبور)، ماليزيا.
حسن مكّي (جامعة إفريقيا العالمية)، السودان.
رجب شان ترك (جامعة فاتح، إستانبول)، تركيا.
زاهر عبد الرحمن عثمان (مؤسسة التراث بالرياض)، السعودية.
زكي الميلاد (رئيس تحرير مجلة الكلمة)، السعودية.
زينب الخضيرى (كلية الآداب، جامعة القاهرة)، مصر.
سيد دسوقي حسن (كلية الهندسة، جامعة القاهرة)، مصر.
صلاح الدين الجوهري (مكتبة الإسكندرية)، مصر - أمين اللجنة.
ظفر إسحق أنصاري (الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد)، باكستان.
عبد الرحمن السالمي (وزارة الأوقاف والشئون الدينية)، عُمان.
عبد الرحيم بنحادة (جامعة الرباط)، المغرب.
عمار الطالبى (جامعة الجزائر)، الجزائر.
محمد الحداد (الجامعة التونسية)، تونس.
محمد عمارة (مجمع البحوث الإسلامية - الأزهر الشريف، القاهرة)، مصر.
محمد كمال الدين إمام (جامعة الإسكندرية)، مصر.
محمد موفق الأرنؤوط (جامعة آل البيت)، الأردن.
منى أحمد أبو زيد (جامعة حلوان، القاهرة)، مصر.
نور الدين الخادمي (جامعة الزيتونة، تونس)، تونس.

**AL-SUNNAH AL-NABAWIYYA
BAYNA AHL AL-FIQH
WA AHL AL-HADITH**

**The Sunna of the Prophet (pbuh):
The People of Fiqh versus the People of Hadith**

Muhammad al-Ghazali

**DAR AL-KITAB
AL-MASRI**


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

**DAR AL-KITAB
AL-LUBNANI**



AL-SUNNAH AL-NABAWIYYA BAYNA AHL AL-FIQH WA AHL AL-HADITH

The Sunna of the Prophet (pbuh):
The People of Fiqh versus
the People of Hadith

Muhammad al-Ghazali

هذا الكتاب

(16)

طُبِعَ لأول مرة عام (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ويُعَدُّ محاولة لزحزحة العقل الإسلامي عن دوائره التقليدية، وإذكاء فاعليته للعمل على تجسير العلاقة بين مستلزمات الواقع ومتطلبات الشريعة التي جاءت لتحقيق مصالح الناس.

وتأتي أهميته في تناوله لقضيتين محوريّتين في الفكر الإسلامي: أولاهما أن أحاديث الآحاد ظنية الثبوت، وأنه لا حجية للحديث النبوي إذا تعارض مع القرآن الكريم، أو خالف المحسوس، أو تنافى مع العقل السليم، أو العلم المقطوع به. وثانيهما أنه لا سُنّة من غير فقه؛ ومن ثمّ فإن عمل الفقيه يتم عمل المُحدّث.

والشيخ الغزالي في كتابه هذا لم يطرح أو يتبدع قواعد جديدة؛ وإنما أراد إحياء مجموعة من القواعد العلمية في الحُكم على الحديث، وحاول مُخلِصًا دفعها إلى حيز البحث العلمي الرصين.

ISBN: 978-977-452-128-5

DAR AL-KITAB AL-MASRI
CAIRO

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

DAR AL-KITAB AL-LUBNANI
BEIRUT